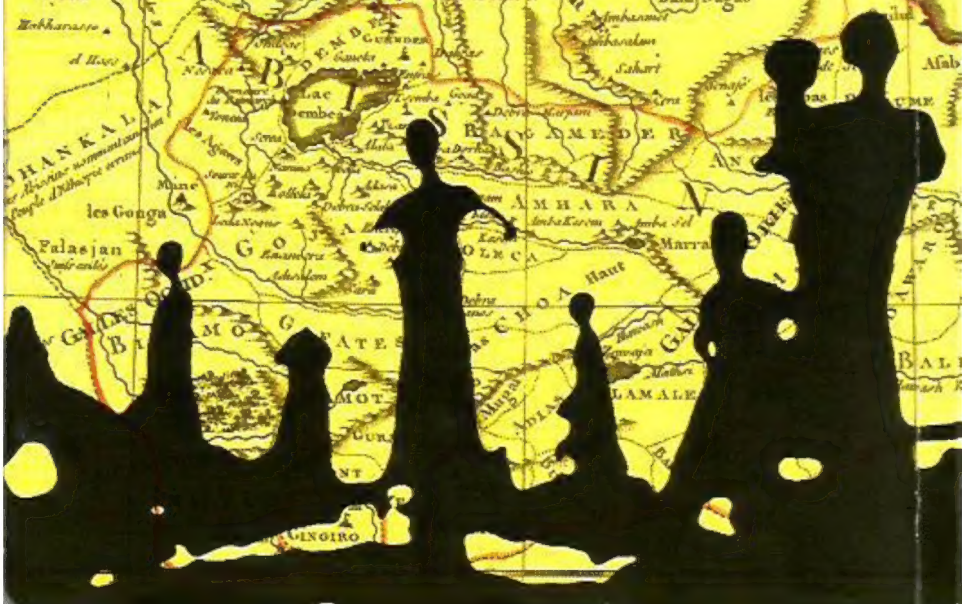


154

رواية

أمیر تاج السر



مهرالصياح

Le council de cris

(رواية)

أمير تاج السر

وزارة الثقافة



• هيئة التحرير •

رئيس التحرير

محمد بريري

مدير التحرير

أماني الجندي

سكرتير التحرير

أحمد بكر

الأراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة
بل تعبر عن رأي وتوجه المؤلف في المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا باذن
كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

سلسلة

آفاق عربية

تصدرها

الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

سعد عبد الرحمن

أمين عام النشر

محمد أبوالمجد

الإشراف العام

صبحى موسى

الإشراف الفنى

د. خالد سرور

• مهر الصباح

• أمير تاج السر

الهيئة العامة لقصور الثقافة

القاهرة 2013م

13,5 x 19,5 سم

• تصميم الغلاف:

أحمد اللياد

• رقم الإيداع: ٢٠١٣/٨٠١٠

• الترقيم الدولي: 978-977-718-320-8

• المراسلات:

باسم / مدير التحرير

على العنوان التالى: ١٥ شارع أمين

سامى - قصير العيسى

القاهرة - رقم بريدى 11561

ت، 27947891 (داخلى 180)

• الطباعة والتنفيذ:

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت، 23904096

/

مهرالصباح

إضاءة

هذا النص مستوحى من التاريخ القديم لسلطنات كانت سائدة في السودان ردحا من الزمان، وإن تصادف وتشابهت بعض أحداثه وشخصياته، وأسمائه مع أحداث أو شخصيات أو أسماء حاضرة الآن.. فهذا محض صدفة ولا أساس له من الصحة. وأود في هذا الصدد أن أشكر الكاتبة المجددة بثينة خضر مكي، التي أهدتني كتابا ألفه رحالة عربي قام برحلة إلى بلاد السودان في القرن السابع عشر، ومنه استوحيت أحداث هذه الرواية، كما أود أن أشرح معنى (الكوراك) الذي تنبني عليه الرواية، وهو الصياح أو المناداة بالصوت العالي.

يذهب الراوي إلى عزلته..
لنحصد عذاب الكلمات.

سنان المسلماني من مجموعة (مزن)

- 1 -

كان (آدم نظر) في الخامسة عشرة من عمره حين أخذه أبوه لأول مرة إلى مجلس (الكوراك) الذي كان يعقده السلطان (رغد الرشيد) سلطان (أنسابة) عصر كل جمعة للنظر في شكاوى رعاياه، واقتراحاتهم، وأمانياتهم الحاملة أيضاً.. لم يكن ذلك المجلس من اختراع السلطان الرشيد، لكنه كان تقليداً متوارثاً في سلاطين (أنسابة)، والركيزة الأهم في ركائز الحكم. وقيل أنه من وضع السلطان (يوسف ضو) الذي لم يؤسس سلطنة (أنسابة) فقط، لكنه أوقفها على قدميها، زينها بجهد وعرق غزيرين وربط أوردتها بشرابين التجارة التي كانت تأتيها من كل صوب. من صعيد مصر من أفريقيا السوداء.. من الحجاز واليمن، وبلاد فارس، وحتى من العالم البعيد والغامض.

كان مجلس (الكوراك) يعقد في قصر السلطان المغروس في وسط العاصمة (جوا جوا)، بناء من طين أحمر داكن على مساحة شاسعة من الأرض تتخللها الحدائق والنوافير، يتوسطه باب عريض من خشب (المهوقني) الفخم، وتوزع على طول نسيجه، نوافذ صغيرة الجسم تمتص الشمس أو ترضع الهواء، أو تحمل نظرات معذبة من حريم القصر إلى فضول الطريق. كان واحداً من قصوره المتعددة والمنتشرة في (جوا جوا) وضواحيها، لكنه كان المفضل والأفخم والثري في المعمار، والمسمى قصر (المسك) كناية إلى (مسك النساء) إحدى حريم السلطان المفخخات، والتي كانت تقيم بداخله وتعد بمساعدة خسيانها، وجواربها المدربات وليمة الجمعة الاستثنائية.

كان يؤم ذلك المجلس الأسبوعي خلق كثير، يأتون من جحور

(جوا جوا)، من فقرها وغناها، ومن سترها وانكشافها، والتباين مصارينها، ومن حوافها الغاصة بالبدو والرحل، ومهمشي القبائل وأيضاً من تلك الجبال والأقاليم البعيدة والحدود. يملأون العاصمة بالقوضى والدواب، والعادات المتناقضة ويساهمون بشكل كبير في نفاد السلع وغلاء المرطبات وعلف المواشي. كانت النزاعات بجميع مستوياتها تعرض.. الحاجات الملحة وغير الملحة تعرض.. الأمراض المستعصية والخبينة تعرض.. عذابات البيوت.. وروائح البول والروث وتشقق الأظافر والثارات، وأمنيات الحج والعمرة وأيضاً عقوق الأبناء تعرض... وتتحول ساعات انعقاد المجلس التي قد تطول وقد تقصر، إلى سوق همجي يعج بالمتناقضات ويشد السياح، وتجار القوافل، وكثيراً من السحرة الجائلين، عارضين لمهاراتهم. وأيضاً رسامي المناسبات التذكارية الذين يسجلون الكثير بألوانهم. لم يكن السلطان يظهر للناس دماً ولحماً أبداً. كان يجلس في قاعة الحكم الكبيرة المزينة بزخارف الحرب وطبول النحاس والسيوف المصقولة والخناجر، ووجوه الجاريات التي خطتها فنانون أوريون مروا بالسلطنة في أيام مضت.. كان يجلس عن يمينه الأب الشيخ (يوسف كرا) وزيره الكبير ونائبه في السلطنة في حالة الحرب أو السفر أو وعكات المرض، وعن يساره مستشارون في شتى شؤون الحياة في (أنسابة).. منهم ابنه الأمير (مساعد) مؤسس كتية (الرعا) القوية والمكلفة بأعمال جليلة، والحكيم (دوباجي) كبير ممارسي الطب في (أنسابة)، و(لاليا البرناوي) معلم الخط والقرآن ومفتي الديار الأنسابية، و(كردم كردمان) الذي كان وزيراً مبعجلاً في بلاد الأكراد البعيدة، ودخل (أنسابة) في إحدى السنوات راكباً إحدى القوافل التجارية.. كان فازاً من خطب ما وقال لاشيء يخيف.. إنه مجرد ثأر، فاحتواه (رغد الرشيد) عينه مصمماً لأزياء السلم والحرب السلطانية وسخر له جيشاً من النسوة والعبيد والخصيان، ينفذون تصاميمه حرفياً.. وكان وجوده في مجلس

(الكوراك)، نابعاً من رغبة شخصية، فقد كان يستوحي من الصياحات ومطلق الصياحات، أزياء ودروعاً يقدمها للسلطان عند الطلب. أيضاً كان (أحمد برم) عم السلطان ذو العينين الثابتين واللسان الركيك الراطن يحضر صامتا وكاتما لضغينة يكنها للسلطان بسبب نفى ابنه إلى الجبال البعيدة.. وصبايبي كبير التجار وموزع ثمار القوافل يحضر، وأحياناً يأتي ملوك الأرياف وحكامها وزعماء قبائلها ليطلوا قريين من شكاوى قد ترفع في حقهم من قبل مواطني مناطقهم. وكان يقف خلف السلطان مباشرة خمسة عشر من الرجال الأشداء والمدرين على فنس الخيانة، والسلاح الأبيض.. كانوا هم فصيل (الظهريين) المكلفين بحماية السلطان في كل أوقاته التي يحيا فيها، في المواقب.. في ذكرى الأعياد، وعند السفر إلى القرى البعيدة. وكان وجودهم في مجلس (الكوراك) للزركشة أكثر مما هو للحماية، حيث أن السلطان كان يجلس بعيداً ومحماً داخل مجلسه وبين مستشارين لن يغمد أحدهم خنجره في قلبه. وكانت الصياحات الشكاوى أو الحاجات ترفع إلي السلطان عبر سبعة ناقلين منتقلين من دم السلطان وأواصره المقربة، وحالفين لقسم غليظ بأمانة النقل لا يحدون عنه أبداً، كانوا ينتظمون في سلسلة رأسها عند السلطان في مجلسه، وذيلها خارج القصر عند المواطنين، وتعود الأحكام السلطانية عبر تلك السلسلة السباعية أيضاً لتصب في آذان الصائحين، والتي تتراوح بين عفو السلطان أو جوره، ورأفته أو احتداد مزاجه.. وفي بعض الأحيان كانت السلسلة تمتلئ لتصب في أذني السلطان وتأتي فارغة، وفي أحيان أخرى كانت تحمل فهقهة أو حكاماً مؤجلاً حيث تطلب من صاحب الشكاوى أن يصرخ بعد جمعة أو جمعيتين أو حتى مائة جمعة. وعن طريق سلسلة (الكوراك) تلك، أتيح لسلطين (أنسابة) أن يتنفسوا روائح رعاياهم، يشمون الفتن والدسائس، وعطور الثورات الرخيصة، يقيمون حكام أقاليمهم، وموظفي جبي

الضرائب، وأسعار السلع، يتنزهون بين المتسوقين في السوق والمقاتلين في الحرب، والدارسين في مدارس الخط والقرآن، وربما نفذوا إلى الغيد الحسان في مخادعهن. وحين أصيب أحد سلاطينهم مرة بالغطسة وألغى ذلك المجلس الاحتكاكي، تهدمت هيئته، وخانه حكام أريافه، وفرت ضرائب مهولة من تحت رأسه، ولم يمكث في السلطنة سوى أشهر معدودة بعد ذلك.

سار (آدم نظر) ووالده على أقدامهما خائضين في رمل (جوا جوا)، مرا على شوارع خامدة، وشوارع مشتعلة بالصخب، وصادفا غرباء جاءوا من أماكن بعيدة حاملين لصياحاتهم الملونة.. كان الفصل صيفاً في أواخر عمره، ثمة لسعة من حر، ومداعبات من نسيم أحيائي وسحاب مسافر لا يستقر.. كان (آدم نظر) مغتبطاً بشدة.. وطوال ذلك السير المتعرج، داعبته خيالات عطر الرجولة الذي أحس به في ثوبه وعمامته، وشعيرات شاربه الهزيل.. وفي حذائه المصنوع من جلد الغزال، والذي كان يرتديه لأول مرة احتفاءً بهذه المناسبة.. وكانت الخطوات التي كبر من شأنها وحاول إيصالها إلى خطوات والده الناضجة والقوية، قد خضبت أيضاً بإحساس رائع ووفير.. كان يتعجل التجربة، ويكاد يرتعش حين يفكر في ذلك الزخم الذي سمع عنه مراراً، ولم تتح له فرصة التقاطه بعد.

كان طالباً في مدرسة (عباد عبد الرب).. المهاجر اليمني الذي دخل (أنسابة) عن عمد وإصرار في إحدى السنوات البعيدة راكباً في قوافل الحج العائدة.. ليستقر هناك ويؤسس تلك المدرسة.. كان عنيفاً وصلداً، ويحمل في رأسه المعمم ثروة من علوم الدنيا والآخرة.. تحفيظ القرآن.. تلاوة القرآن، خط الرقعة.. خط تهامة.. خط الياقوت والفارسي ونظريات متشعبة في فلسفة الجهاد والطهارة، وتحفة العروس، وغسل الموتى، وكانت دروسه في النحو والصرف هي أكثر ما كان يباغت التلاميذ، كان يحشوهم بها فلا يهضم منها إلا القليل، فيعيد ويكرر دون أن يكل.. كان

قد تزوج في (أنسابة) من إحدى قبائل الأشراف، وأنجب في (أنسابة) أيضاً، واقترب من السلطان رغد كثيراً، اقترب لدرجة أن سبعة من علماء السلطنة كانوا فيما مضى هم عقد اللاكئ الذي يرتديه السلطان، وهو في مجلسه، وفي جولاته، وحربه، قد همّشوا.. طرد بعضهم من خدمة العلم، وعين بعضهم جباة للضرائب، وأرسل واحد منهم إلى مهمة في بلاد (البرقد) لم يعد منها أبداً. لم ينس المهمشون عبد الرب أبداً.. وضعوه في ذاكرة الغل الواسعة وابتدأوا يخيطنون ثوب الفضيحة الذي سيرتديه يوماً، وصفوه بالمجنون، وحامل الجرب والوسواسي، ومروج الإفك، وسلطوا عليه امرأة اسمها (النعيمة) كانت معروفة بالتسلل إلى عواطف المراهقين في (أنسابة)، أغونها بعدد من الدنانير والسلع الكمالية والسيناريو الملقق، فجاءت إلى مجلس (الكوراك) في إحدى الجمع، وقفت ممزقة وباكية، وسردت أمام الحشود كلها، وقائع شديدة السخاء عن مهاجر خمسيني اسمه عبد الرب، ظل يتحرش بعواطفها وجسدها لأيام طويلة إلى أن قرصها مرة في سوق (الفخاريات) الكبير في وسط (جوا جوا).. وصفت أصابع يديه وما تحتويه من وسخ بين الأظافر، واحمرار شفثيه، والشعيرات البيض في لحيته الجهمة، وقلدت حتى نغمته اليمانية حين يقطع على مشيها الطريق هامساً.. يا ريمة.. يا مها.. يا أنس القلب. كان المهاجر حاضراً في تلك الجلسة، فخماً وأخضراً بفعل جبة الحرير التي يلبسها.. وكانت من عطايا (رغد الرشيد) لجلسائه المتميزين حيث لم تهد إلا لثلاثة فقط في (أنسابة). كان في لسانه حديث مدهش لم يكتمل، وفي آذان الحاضرين سماع مدهش لم يكتمل أيضاً. وقف شعر المهاجر حين استمع إلى الحكاية التي دلّقتها رأس السلسلة في أذني السلطان.. لسهه السلطان بنظرة مرة.. ناداه بعباد اليماني ملغيا ألقاب العالم والشيخ والفقيه، والنحوي، ووالد الصبيان وعدداً آخر من الألقاب التي جاءت معه أو اكتسبها أثناء وجوده في أنسابة.. قال.. .

هكذا يا يمانى.

- لم أفعل شيئاً يا مولاي.. ولا سمعت بهذه النعمة أبداً.. صدقني يا مولاي..

- احكم على نفسك يا يمانى.

- نفسي المذنب أم البريئة؟

ما تريد.

إذن حكمت على نفسي البريئة بالبراءة.

وأنا حكمت على نفوسك كلها بالجلد ثلاثين جلدة.

رماها (رغد الرشيد) ليس أمام خاصته فقط، بل في أذن رأس السلسلة الذي دلّقتها عبر بقية السلسلة لتصب في الخارج أمام كل الصائحين.

وكان أن سلّم المهاجر إلى كتّبة الرعاع، وجلد بالفعل في ساحة (جوا جوا) الكبيرة وسط عيون شمتت وعيون بكت وعيون توسلت بلا

فائدة.. أبعد عن عناية السلطان وعطاياه وموائده، ومجلس (كوراكه) الأسبوعي، لكن مدرسته لم تُمس أبداً.. ظلت تلك المنارة المضيئة

في ظلام (أنساب) التعليمي، تجتذب التلاميذ وترضعهم.. وحتى بعد أن أدخل أحد الأمراء الصعاليك إليّ منهجها مادة علوم (الهبرات)

المختصة بالصيد والغزل، ونظم النكات وتقوية الخيال الجسدي، وجاء يدرّسها بنفسه. ظل المهاجر يردد بلا توقف: دسياسة والله العظيم..

دسياسة والله العظيم..

تلك الأيام توقع الكثيرون أن يشرع (عبد الرب) في هجرة جديدة إلى بلاد تقدس العلم، أو تناصب (أنساب) العداء كسلطنة (كردمال)،

لكنه لم يفعل ذلك أبداً.

في تلك المدرسة الفقيرة المشيّدة من عدة أكواخ من الطين والصفيح وسعف الدوم، والقائمة على جهد معلم تخلت دنائير

السلطين عن نصرته، وتلوّث منهجه الرصين بجرائم علم (الهبرات)

والخيال الجسدي، تعلم (آدم نظر) الكثير تعلم أن يرفع رأسه، وينصب عينيه، ويجر عشرات الأسئلة والاستفسارات معه إلى البيت.
في أحد الأيام سأل أمه فجأة..

هل غازلك والدي نظر حبايب قبل أن تتزوجه؟
انكسر طرف الأم، وتساعد إلى خديها الدم النابض ولم تستطع أن

وفي يوم آخر باغت قيلولته أبيه التي كانت مقدسة ولا ينبغي مباغتتها.. صب في أذنيه عدداً مهولاً من النكات ومقاطع غزيرة من عيون شعر الغزل في (أنسابه).. قال أعضاء جسمك كلها قاحلة واستهلاكية ما عدا السفلية منها، فهي التي تنتج. وحين ابتداء يخطو إلى بيوت الجوار العامرة بذوات الخدور، متذرعاً بمراسيل وهمية، واستلاف لكماليات لم يطلبها أحد، عرف أبوه، وعرفت أمه، وأخته (الرزينة) التي تكبره بعدة أعوام، أن ثمار علم الهبرات الطالحة قد بدأت تنضج في عقول مرتادي مدرسة (عباد عبد الرب). وقد حاول أبوه وآباء آخرون زيارة المدرسة مراراً للاطلاع على أحوال أبنائهم وإبداء اعتراضات على نظم التعليم، فأوقفتهم كتيبة الأمير (الهبراتي) التي كانت تحرس مقرره، أيضاً حين أوقفوا أبنائهم عن الذهاب إلى تلك المدرسة وأقعدوهم في البيوت، جاءت سواعد ذات الكتيبة واقتلعتهم من أسرّتهم ومسكنة آبائهم، وكانت محاولة الصياح في هذا الشأن في مجلس (الكوراك) الأسبوعي، ومطالبة السلطان بالتدخل لإلغاء تلك المادة أمراً عسيراً.. فقد كانوا يعرفون، وتعرف (أنسابه) كلها أن أحد أعضاء السلسلة السباعية المكلفة بنقل الصياح إلى أذني السلطان، كان هو الأمير (الهبراتي) نفسه وكان ابن أخت له معزة.

سأله أبوه فجأة وهما يسيران متجهين إلى ساحة الصياحات:

- بماذا تفكر يا أدم؟

في الذي سأشاهده في مجلس (الكوراك).

وماذا تظن أنك ستشاهد؟

لا أدري.

إذن أسرع.

استلمته يد صانع الطبول القوية، والمدربة على نشر الخشب ونحت النحاس، وديغ الجلود وحكها، وتثبيتها في تلك الآلات المربعة، وسارت به وب تلك الخطوات الكبيرة والناضجة. كان الطريق الآن مزدحماً بالفعل.. ثمة إبل وحمير، وأحصنة مغبرة وبادية التعب وغرباء بحلق متفخعة ولاهنة.. ثمة عواء ونباح وشهيق وزفير، وضحكات، وصراخات أطفال. وكانت أشجار (الهجليج) الموزعة أمام قصر السلطان في ذلك النسق الجمالي الفقير الآن مكتظة بالظلال والخضرة، وتأوي تحت فروعها آلاف البشر. كذلك أزيار السقاية كانت ممتلئة وبغشاها العطاشى ليرتوون. تعرف (آدم نظر) على جارهم (أبكر) الذي كان أعور منذ أن ولد وصاح عدة مرات في مجلس السلطان مطالباً بعين زجاجية لكن العين لم تصله أبداً.. وإلى تلميذ آخر كان يزامله في مدرسة المهاجر وجاء برفقة امرأة كان حلقها متفخاً وفي إحدى عينيها جروح.. فوجئ برمال في عينه، واتساخ في حذائه الجديد، ويد خشنة لسارق تندس في جيب قميصه وتخرج فارغة، وحين اتخذ مجلسه إلى جانب والده تحت إحدى أشجار (الهجليج).. كانت غرابة الرؤيا قد بدأت تسافر، وحلت محلها رغبة الصبا في اكتشاف أفق جديد.

فجأة شق التجمع جسد مهيب لامع يرتدي جبة من حرير أزرق، ويضع على رأسه عمامة الكبار الفخمة ذات الملمس الحريري، ولون الضباب.. كان قد ترجل عن فرس رمادية مخططة وسط عبيد خارقي الأجساد وضعوه على الأرض بنعومة، وخطا بحذاء جلد النمر المغاربي، منفلاً إلى داخل القصر.. وقف الآلاف المتجمعون إجلالاً، زغردت

امرأة وامرأة وامرأة، وهتف هتاف وهتاف وهتاف، وصرخ الحاجب الذي عند الباب:

الأب الشيخ يوسف كرا.

سأل الصبي والده لاهثاً:

- هل هو سلطان آخر يا أبي؟

ردد الأب:

- لا لكنه وزير السلطان ونائبه في الحكم..

- وهل له مجلس كوراك أيضاً؟

لا لكنه يقوم بدور كبير في مجلس السلطان ويحكم السلطنة في غيابه.

تقبل (آدم نظر) تلك المعلومات الطازجة راضياً.. أدخلها في بيوت ذاكرته الصبية والتي بدأت تتسع، وأغلق عليها بقفل الترقب الذي كان الآن في تمام متانته.. أبصر ظلال (الهجليج) تنتفض، والمتجمعين يمدون أعناقهم، والمسجلين في قائمة الصباح، يصلحون هندامهم، وشاهد سلسلة النقل السابعة تنتظم، وسمع الحاجب الذي يقف تماماً بمحاذاة ذيلها يصرخ:

- السلطان في مجلسه ويتلقى (الكوراك)..

كانت بداية الصباحات من امرأة من قبيلة (المساليط) التي كانت تستوطن في إحدى الحواف على مسافة أربعة عشر يوماً من (جوا جوا) وفي جوار لاصق مع إحدى الدول السوداء، كان اسمها (حرّة)، وكانت ممزقة الثياب، وحافية، ومتوفة شعر الحاجبين، تحمل على ظهرها رضيعاً أجرب، وتصيح بمغص..

(زوجي قلب الأسد يا مولاي.. يضربني في اليوم عشر مرات..

يسب أهلي وعشيرتي، يدلق طيخي على الأرض.. لا تعجبه

فثران (الصلمبوي) الصغيرة التي أطبخها.. ويريد فثران (الكدكاي) الضخمة التي لا يملك ثمنها.. كان يسرقها من الناس.. نعم يسرقها.. أنصفوني.. مولاي الرشيد.. أنصفوني.. شكوته مئات المرات إلى قضاة العشيرة ولم ينصفني أحد)..

ولم تكن أكثر من عشر دقائق مترقيات، حتى جاءها الرد من ذيل السلسلة راكضاً:

- السيدة (خرة المسلاطية) زوجة (قلب الأسد المسلاطي)، لقد أمر مولانا السلطان بتعيين زوجك فرداً في كتيبة (الرعاغ) تحت قيادة الأمير (مساعد) تأديبا له وتقويما لسلوكه، عودي إلى الصباح بعد عامين إذا أردت عودته إلى بيتك.

زغردت (المسلاطية) جنونا، ألقت برضيعها الأجرب على الأرض وورقصت رقصة (حلال العقد) العريقة التي كانت تنتشر في تلك الأصقاع وتعتمد على طي الجسد وتفكيكه بحركات متناغمة. لم يكن الزوج (قلب الأسد) موجوداً ليصبح مدافعا عن نفسه، وحتى لو وجد ما كان ذلك يجدي نفعاً، فقد كانت أحكام مجلس (الكوراك) قاطعة وبلا أمل في تعديلها.

كان التالي عجوز من قبائل (البراقيد) التي لم يكن موطنها يبعد كثيراً عن (جوا جوا) والتي كانت أم السلطان (رغد) من أحد بيوتها الفقيرة، وأهديت إلى أبيه جارية راطنة فتزوجها وأنجب منها السلطان وأخوة آخرين.. كان يتحدث عن غرر الصلاة التي تنتشر على جباه الأبناء والأحفاد وكل من هبّ ودبّ في (أنسابه) دون أن تظهر على وجهه برغم سنوات عمره التي تجاوزت الثمانين، وقد أخبره أحد معارفه بأن تلك الغرر من هدايا السلطان يوزعها على من يريد من أهل (أنسابه).. صرخ: (خالك يريد غرة للصلاة يا مولاي.. غرة واحدة فقط مولاي.. رأيته عند (جبريل ولد عجب) وعند (الحاج كجكي) وحتى عند الولد

(سردابي) الذي أكلت من لحم (سمائته).. غرة واحدة فقط.
وجاء الرد عبر السلسلة ضحكة مدوية.. فانصرف مطرقا دون أن يفهم شيئا.

وجاءت (تمائم) المغنية التي كانت فيما مضى صوتا طويل القامة،
وواسع النبرات، يجرح خلفه قوافل البله والشفاه الفاغرة، ويرجم كل
صوت آخر يجروء على البزوغ في أنسابه، وكانت حفلاتها التي تقام في
الساحات والبيوت الكبيرة وفي مناسبات جليلة كيوم تأسيس (أنسابة)،
ويوم غزو (الكردمالين) الذي حدث في عهد السلطان (نفر المقدم) أو
ذكرى التتويج والجلوس على العرش، تشد حتى السلاطين، والملوك،
وقادة الحرب، ورؤساء القبائل.. وحين باغتها العمر فجأة، وتغلغل
إلى حبالها الصوتية، ومفردات جسدها الطري، لم تعد تظهر أو تغني،
كانت تعيش في ركود الحسرة في أحد الأحياء البعيدة متغذية من عصائد
الهبات ودنانير قليلة كانت تصلها من عند معجبين مسنين لم ينسوها
أبدأ.. كان صياح المغنية مختلفاً.. رددته بصوت جاهدت أن تعيده
عشرين عاماً إلى الوراء.

(السلطان للعشيرة..)

قائد جيشها وكبيراً.

السلطان في المسائل..

الرويان وذ القبائل.

السلطان لو يبرك..

يديك بي إيدا تسرك).

استغرق الأمر اثنتي عشرة دقيقة مفخخة وسط ترقب المتجمعين
وانظارهم لذيل السلسلة في رده على ذلك الصياح الفخم.. لم تكن
المررة الأولى التي يمدح فيها (الرشيد) على هذا النحو، لكنها كانت
المررة الأولى المغناة وذات الإيقاع الشجي وبذلك الصوت الأنسابي

العريق. ثم جاء الرد أخيراً.. فقد تم تعيين السيدة (تمائم شريف) بنت (شريف غاني) المنحدرة من قبيلة (الغانيسن) والمقيمة في حي (ورى) الشعبي، عضواً في مجلس الجدات الذي كان واحداً من أهم المجالس في (أنسابه)، كان يضم جدات من صفوة المجتمع، وبيوته العريقة.. ترأسه (السحابة) جدة السلطان شخصياً، وكان مكلفاً بإجراء مراسم تدوير السلطان ومراسم دفنه، ومراسم تحميمه بالطبول والحناجر في وقت الحرب، إضافة إلى مراقبة علامات البلوغ ونمو الغرائز لدى بنات القصر.. وكانت ثمة تدقيقات صارمة تجرى عن كفاءة الجدة وسلامة سيرتها من خدوش الشائعات وقدرتها على شل الفوران لدى البنات عند ظهوره، وكان تعيين المغنية بهذه الصورة المتعجلة، استثناء صارخاً، لم يحدث قط في (أنسابه) وكان راتب الجدة العضو في ذلك المجلس، مجزياً، لدرجة أن تمائم المغنية لم تستطع التماسك.. اتكأت على كف ذيل السلسلة، واندلقت في بكاء رهيب.

والى ذلك المجلس أيضاً جاء (حنفي الساحوري).. تاجر القوافل الكبير، كان صعيدياً من جنوب مصر، تعرف على طريق (أنسابه) منذ سنوات بعيدة، وأنشأ تجارته التي كانت دورة هائلة من دماء السلع، تتغذى من البلاد وتغذيها، كان يتاجر في الذهب والفضة والعقيق، والدخن، والمواالح، وحتى في الجواري والعبيد، والخصيان.. يأتي بقافلة كل عام تكفي مؤونتها لإشباع جوع التجارة إلى أن يعود، وتربطه بالسلطان علاقة الوجهة والثراء لكن مشاغله الكثيرة كانت تمنعه من حضور مجالس (الكوراك) ضيفاً، وكان قد تعهد برعاية جميع مجالس (الكوراك) التي انعقدت في أثناء وجوده في (جوا جوا).. قدم أتباعه شراب القضييم المرطب لحلوق الصائحين، أهدوا الصغار رزماً من حلوى (الدرادم) اللزجة والملونة، وأبروا النساء بأقراط السكسك والقصدير، وبعطور (الكافن كافن) و(المسرة) و(مخدع الحب) المهيجة والتي أضفت على

الأنوثة طعمها المطلوب.. كان صياحه بلهجة لا يعرفها (آدم نظر)، ولم يسمع بها أبداً من قبل.. انسابت إلى سمعه وخرجت كما هي.. التفت إلى والده متسائلاً.. فرد الأب..

- إنه على سفر ويطلب الإذن بالرحيل من السلطان رغد.

كان (آدم نظر) قد سمع بـ(حلحلوك) المجنون الذي ظل يصيح في مجالس السلاطين لخمسة وخمسين عاماً لم يتغيب فيها جمعة واحدة. كان يطالب بجارية بلا ثدين، وبيت بلا أرض، وعربة من فضة تجرها خيول رمادية. في البداية كانت نداءاته تتخذ مسارها الطبيعي في السلسلة السباعية حتى تصب في آذان السلاطين، وبمرور الوقت شاخت تلك النداءات، أصابها الإعياء وصارت تسقط عند ذيل السلسلة لا تعداه. وكان أغرب ما في الأمر أن أحد السلاطين ألهمته تلك النداءات.. استجاب لها وأهدى إلى (حلحلوك) جارية ضامرة وبلا ثدين بالفعل.. لكنه أخفق في توفير ذلك المنزل المعلق، وتلك العربة الفضية التي تجرها خيول الرماد. وعندما لمع نجم (ولد أعرج) المنحدر من قبيلة (العراجين) كواحد من الأباطرة السفليين، وأصبح مقصداً للكثيرين الذين حكوا عن معجزاته في مناداة المطر، وحل المربوط، وتوزيع حناء الزواج على العازبات، حدثوه عن (حلحلوك) ونداءاته الغربية، فتبعه في أحد مجالس (الكوراك)، علقه في الهواء ثلاثة أشهر كاملة.. ترجمه الريح، ويفسله المطر، وتحاوّم طيور الرخم حول هيكله، فأقلع عن طلب ذلك المنزل الذي بلا أرض لكن نداءاته الباقية ظلت مكثفة، وتكرر في كل مجلس. وبعد عدة جمع عادت النداءات كاملة إلى الظهور. كان المجنون موجوداً في عصر تلك الجمعة أيضاً، طويلاً ومغبراً، وضامراً ومنحنياً، كأنه كان يحمل (أنسابة) على ظهره وأنزلها. في عينيه بريق ولمعان، وفي أنفه احمرار طفيف وفي سرواله رائحة حامض ما. كان مستظلاً تحت إحدى أشجار (الهجليج) الكبيرة، تتزاحم حوله الناس ويحكى عن جن

في هيئة ثعلب إفرنجي صادفه في البراري منذ يومين:

(قال لي جود إيفنتنج حلحلوك.. قلت له جود صلييك.. لفخني
برجله فلفخته بقرني الاستشعار.. شخر في وجهي فأخرجت له ثلاثة
السنة).

كان الجميع يضحكون، وكان المجنون يتمعن في الضحك ثم
يمسك بهذيان آخر.

أهداني السلطان (نفر المقدم) جارية حمارة.. كنت أكوها بالنار
فتصرخ: اتركني يا مجنون.. اتركني يا مجنون.. هل أنا مجنون؟ وهل
يوجع الكي بذمتكم؟

كافح (آدم نظر) في الزحام حتى وصل إلى مكان المجنون.. صرخ
يا حلحلوك، يا حلحلوك.. فلم يلتفت، كافح في الزحام أكثر حتى أمسك
بيده، وجدها رقيقة، وطبعة وخالية من مستعمرات النحل التي وصفها
له زملاؤه في مدرسة (عبد الرب) وأقسموا أنهم شاهدوها بأعينهم
وحين غاص في عينيه ذاتي اليريق واللمعان أحس بدوار خفيف، وفي
اللحظة التي هم أن يسأله شيئاً، لعل ذلك النداء الحاجبي الذي يعلن
وجود السلطان في مجلسه، انفلت المجنون من يد الصبي وضحك
المتزاحمين، واتخذ مكانه في صف الصائحين لتلك الجمعة..

(أريد جارية طرية بلا ثدين وبيتاً من الطوب الأحمر، ليس في
الأرض، وعربة من فضة تجرها خيول رمادية.. أرروك.. أرروك).
وسقطت نداءاته عند ذيل السلسلة.

أخيراً نودي على صانع الطبول ليعرض حاجته.. صرخ الحاجب:
راعي الأغنام نظر حباب.. راعي الأغنام نظر حباب..

كان الحاجب جاراً لصانع الطبول، يسكنان (حي الرديم) المهمل
في أحد أطراف (جوا جوا)، ويتقاسمان فقر الجوار، وحلقة الزمن..
وأشياء أخرى عديدة من مفردات البيئة.. يعرفه منذ أيام صياحاته الأولى،

وكم من مرة اشترى الحاجب من عنده طبلاً رخيصاً لإيقاظ زوجته كثيرة النوم أو طبلاً أغلى قليلاً لإهدائه إلى إحدى المغنيات.. أو طبلاً غالياً بالفعل لسبب لا يعرفه أحد. صانع الطبول يا إبراهيم. صانع الطبول يا إبراهيم.. راعي الأغنام نظر حباب.. راعي الأغنام نظر حباب..

لا يهم.. انتظم أمام ذيل السلسلة مغتماً، ومظلم العينين. كانت الفرصة الأخيرة التي تمنح له من قبل السلطان الرشيد في شأن حاجته بعد أن تعددت صياحاته في السنوات الأخيرة.. وضع منها السلطان شخصياً. وكادت أن تصبح مثل نداءات (حلحلوك)، شيخة تسقط عند ذيل السلسلة. صاح.

أريد أن أذهب إلى الحج في بعثة مولانا السلطان لهذا العام.. أريد أن أطوف وأن أسعى وأن أرمي الجمار.. أريد أن أقبل الحجر الأسود.. أروك.. حجاً مبروراً.. أروك.. ذنباً مغفوراً.. أروك.. عوداً حميداً.. أروك.

كانت المرة الأولى التي يرى فيها (آدم نظر) والده يصيح بتلك الرعونة، وذلك التهيج الجبار.. شاهده في البيت صائحاً عادياً.. مثل كل المربين وأولياء الأمور، قد لا يعجبه الغداء أو مذاق البن أو سلوك طائش من ولد.. شاهده في السوق صائحاً متذمراً من ارتفاع الأسعار وانعدام السلع الضرورية.. وشاهده في حضرة أقرباء ملاعين صائحاً في نقاش عن الزواج والطلاق وتعدد الزوجات.. لكن تلك العضلة الكبيرة التي غطت عنقه بالكامل، كانت مفاجأة للصبي.. استغرب منها لدقائق معدودة ثم هدأ، وكانت الدقائق التالية كثيفة القلق، أنفقه مع والده في انتظار نتيجة الصباح الذي لابد يعربد الآن في أذني السلطان. خمسة عشر عاماً وصياحات صانع الطبول عن الحج لم تنقطع.. يودع الحجاج ويصيح، يستقبلهم ويصيح، يشارك في دهن السيوت، ونحر الذبائح، ولييك اللهم لييك، ويأتي إلى مجلس (الكوراك).. بصياحات متشنجة،

وصوت فارغ الطول يرج الآذان كلها. وفي إحدى السنوات كاد صياحه أن يأتي بالنتيجة.. سار في السلسلة السباعية كجزء من روتينها العادي لكن الرد كان مختلفاً.. أمر السلطان بإلحاقه ببعثة السفر المتوجهة إلى الأراضي المقدسة لذلك العام، فطار فرحاً، جهز إحرامه، شد إلى وسطه جراب الجلد المألوف والمحتوي على نقود سفره القليلة، وأبقى في بيته خروفاً ودهاناً أبيض، ولقباً فخماً سيرتديه حين يعود، وكان يوم ذهابه إلى مقر انطلاق القافلة من أمام (بيت) مال (أنسابة)، يوماً مشهوداً، تبعته الزغاريد وأمنيات الحج المبرور والسعي المشكور والعود الحميد.. كان على ظهر ناقته حين جاء رئيس البعثة شده من رجله وأنزله في صلف.. قال.

انزل يا صانع الطبول.. انزل.

صرخ في وجهه: لماذا؟

معنا أمر سلطاني بإبعادك عن البعثة.. انزل.

بكى: لماذا؟.. لماذا؟

لا ندرى..

عاد إلى بيته مغتماً.. خلع إحرامه وجراب الجلد من وسطه وألقى بهما في أحد الأركان، هبط بمعنوياته إلى الأرض، رفض تذوق الأكل والشرب، وكاد ينبج ككلب حين جاءه الشامتون يمدون أيديهم ويرددون: عوداً حميداً.. عوداً حميداً.. وفي أول جمعة صائحة كان أول من افتتحها، عرف أن ثمة وشاية قد حدثت، وأن فتاقه السري الذي ظل يخفيه بإتقان لسنوات طويلة قد انكشف، وكان محظوراً على (المفتوقين) والعور والطرشان، وذوي السوابق وحاملي ميكروب (الطاعون اللساني) ركوب القوافل السلطانية حتى لو كانت تقوم برحلات داخلية في تخوم (أنسابة). لم يأس صانع الطبول أبداً.. اغتم لعدة أيام فقط ثم تبعثر في كل حيل الطب التي كانت متوفرة في البلاد في ذلك الوقت.. جرب

أوراق (الهجليج) يابسة وخضراء.. جرب بصاق العشر، ومركبات الليمون المخلوطة بدم الغزال.. ألصق لزقة القرض، وغمر جسده لعدة أيام في ماء خور (الفرايس) الذي كان يركد خارج (جوا جوا) ويعتقد الأنسابيون بقداسة مائه. لجأ إلى موهبة (ولد أعرج) إمبراطور السفليين فما أفادت في شأنه، وإلى مواهب آخرين لم تجد أيضاً.. كان فتاقه إيليسياً.. شرده من قوافل الحج، وأقعده هكذا.

تلك الأيام ظهرت في (جوا جوا) خمس فتيات شقراوات.. جئن في قافلة كبيرة كانت قادمة من صعيد مصر، كجزء من دم التجارة الذي كان متدفقا بين البلدين.. قال رئيس القافلة أنهن متخصصات في طب الإفرنج وقادمت لمعاينة علل الأنسابيين بلا مقابل.. استقبلهن المواطنون بفضول أخرق، واستقبلهن السلطان استقبالا حاشدا كان يخص به كبار الزائرين.. فرش لهن الأبسط، وموائد الطعام.. قلدهن الحرير والذهب والعاج.. والعقيق واقترح عليهن أن ينشئ مجلساً اسمه مجلس (المدواة) على غرار مجلس (الجدات)، تخصص له حصّة من موارد السلطنة، وترأسه كبيرتهن إيزابيل التي دخلت إلى قلبه، فأبين بترفع وقالت له إحداهن: (ثانكس).. نحن موظفات عند الرب وسنال أجرننا. انغرس الشقراوات في (جوا جوا).. أنشأن مشفى هزبلاً أسمينه (مشفى العناية الإلهية) كان مبناه تبرعاً من التاجر (صباي) وتأثيته الفقير من خيرات قوافل (الساحوري) وقوافل أخرى تأتي من الحجاز واليمن، وابتدأن في استقبال المرضى.. وكان مرضاهن في أغلبهم شيوخاً فضوليين أو نساء غيورات أو مراهقين جاءوا سعياً وراء عورات أجنبية.. وكان (دوباجي) كبير ممارسي الطب في (أنسابة) قد زارهن أيضاً.. لم يأت كطبيب ولكن كقرود عجوز يبحث عن دواء لإبقاء الجسد واقفاً. وفوجئن أكثر من مرة بدخول السلطان نفسه إلى مخادعهن متبوعاً بحراسه (الظهوريين). لم تكن في جسده علة ولا جاء لهدف محدد..

كان سلطاناً لا يمكن مساءلته أبداً.

وصل نظر حباب بأفته المهلكة إلى مشفى العناية الإلهية.. سرد صياحاته عن سيرة الحج وذلك الإبلis الذي يعربد في جسده ويمنعه من السفر.. عاينته الشقراوات بتأن ومنذ الوهلة الأولى وضحن برصانة.. لا يوجد علاج هنا يا صانع الطبول.. لكن يمكن أن نصحبك معنا في العطلة الصيفية حيث يقوم متخصصون بعلاجك. فرح صانع الطبول فرحاً مخيفاً.. غنى ورقص، وهيج الفتاق في سرته.. لن يمنعه أحد من ركوب قافلة الشقراوات التي هي قطعاً لا تمت للحكومة بصلة، لكنه سيعود يوماً ما.. يركب قافلة السلطان.. يحج ويعتمر.. ويدهن بيته بالأبيض ويمد إلى الشامتين يداً عادت بالفعل بعد أن لمست الحجر. وفي أحد الأيام الطويلة المنتظرة من عمره، جاءت تلك الفتوى المدمرة التي أصدرها (لاليا البرناوي) مفتي ديار (أنسابة).. والتي تبين أن أولئك الشقراوات صاحبات مشفى العناية الإلهية كافرات قدمن من بلاد الأنجاس لتنجيس شعبه برغم براءة وظيقتهم.. وأنهن محللات الدم يؤجر من يقتلن. فررن بليلهن تاركات مشفى العناية خائياً تنن به امرأة ويسعل به رجل، وينزف في فراغه ختان لطفل لم يكتمل، وتاركات فتاق صانع الطبول إبليسياً يعذبه في كل لحظة. وبعد عدة أشهر وصلت أخبارهن من سلطنة (كردمال) المجاورة والعدو التقليدي لسلطنة (أنسابة).. وصلت عبر النازحين ومشردي الحدود وعرب (المجانين) المترحلين بين الدولتين.. الشقراوات يقمن في سلطنة (كردمال) في مشفى إلهي آخر مؤسس بأناقة، وبفتوى رسمية من مفتي الديار الكردمالية وموقع عليها من السلطان، تبين أنهن ممارسات طاهرات للطب لا علاقة لهن بالكفر والنجاسة. تلك الأيام فكر صانع الطبول في النزوح بأفته إلى (كردمال) لكن قيود الوطن الكثيرة والمتشابكة أقعدته.

راعي الأغنام نظر حباب.. راعي الأغنام نظر حباب..

صانع الطبول يا إبراهيم.. صانع الطبول يا إبراهيم
راعي الأغنام نظر حبايب.. طلبك مرفوض.. عالج سرتك يا
مواطن.
عالتجها يا مولاي..

اندفع الحاج المؤجل إلى ذيل السلسلة.. متحدياً لواحدة من أرفع
القيم في (أنسابة).. وهي القبول بالحكم السلطاني، وعدم الصباح أكثر
من مرة في مجلس واحد.. وعبر تاريخ (الكوراك) الطويل لم يخرج
عن ذلك السياق سوى نفر قليل.. كان أهمهم (حلحلوك) الذي صنف
معتوهاً وانتهى أمره، والفقهاء (القرشي) الذي لم تعجبه فقرة في الدستور
عدّلها السلطان (رغد الرشيد) وكانت تختص بمساواة خصيان السلطنة
بالرجال.. واستدعائهم للشهادة إن لزم الأمر وتزويجهم لو أرادوا. اندفع
في عصر إحدى الجمع صائحاً بعشرين صوت مختلف.. وكان أن سحبت
هيئته وأرسل مجنّداً في كتية (الرعاغ) التي أسسها الأمير مساعد.

لحظات من ترقب وانفتح الباب السلطاني عن آخره.. كان
الحكيم (دوباجي) كبير ممارسي الطب في (أنسابة).. القرد العجوز
كما يسميه السلطان.. وطابخ الوصفات الخيثة كما يهمس أعداؤه..
لم يكن دوباجي طبيباً متمرساً ولا شوهده يجس نبضاً أو يحضر مركباً
أو يضع أذنّاً على صدر يثن في (جوا جوا) أبداً.. وكان تعيينه الذي تم
في عهد السلطان (رغد الرشيد) غريباً وملغياً لمهارات عدد من الأطباء
الآخرين وقيل أنه تم بالسحر الذي تجيده بعض القبائل.. وكان وجوده
في مجلس (الكوراك) وفي غير مجلس (الكوراك) بتلك العقاقير التي
يطلبها السلطان أحياناً للنشاط أو الفوران، حتمياً ولا مناص منه.. خطا
الحكيم إلى خارج القصر خطوا ناعماً.. وبحداء هو أيضاً من جلد نمر
مغاريبي.. شق جموع المتطلعين وتوقف عند صانع الطبول الذي كان
الآن في رعشة كبيرة.. وبسرعة رفع قميص المحتج حتى إبطيه.. في

تلك اللحظة بالذات.. كان الفتاق الإبليسي مستيقظاً، وفي كامل بهائه،
وخاطب المتطلعين كلهم بتلك التموجات العنيفة المعروفة في الفتاقات
السرية.

غادر (آدم نظري) ووالده ساحة (الكوراك) بصعوبة، كانت
(المسلاطية) ما زالت ترقص، وتحل عقد الجسد بجنون، المغنية ما
تزال تتعثر متكئة على جذوع (الهجليج) اليايسة، ووجد الصبي نفسه
يجر الجسد الجبار والمفضوح والغزير العرق لوالده. اليد الصغيرة تجر
الكبيرة، والهم الصغير.. يجر الكبير.. ماذا حدث يا أبي.. ماذا حدث؟
ولا رد.. لا رد أبداً.

تلك الجمعة وفي الساعة التي تقرض فيها الأجساد بأسنان التعب
أو تسعل الرياح الهضمية هنا وهناك، أو تختلي، أوجاع الظهر بسلسلة
فقارية، مات صانع الطبول (نظر حباب). وجدوه عند نقطة تجمع
القوافل المسافرة أمام بيت مال (أنسابة)، نفس النقطة التي شهدت تلبسته
وركوبه وانزلاقه عن ظهور الإبل من قبل.. كان يحتضر بمشقة.. يشهق
ويزفر، وأحياناً يغني أو يضحك أو يقهقه..

صانع الطبول يا إبراهيم.. صانع الطبول يا إبراهيم..

عالجت الفتاق يا مولاي..

عالجته يا مولاي..

رميت جمرة خبيثة..

رجمت (دوباجي) ولاليا البرناوي..

قبلت حجر الجبل..

طفئت نائماً..

سعيت بين الصفا ويوت أولاد عنبر..

حملوه إلى الجزء الأكثر رحابة والأوسع صدرا لاستقبال

الفضوليين وعابري السبل في بيته الفقير، جاءه رعاة الطب الحقيقيون، ورعاة الشعوذة المنتشرون بغزارة في (أنسابه) حضرت (الأكاسير) المختلفة، واتقد البخور، وتعال دعاءات وبسملات، والتمت النائحات من حيث لا يعلم أحد وجاء الحكيم (دوياجي) إلى حي (الرديم) لأول مرة منذ أن أصبح الحي رديما، وأصبح كبير ممارسي الطب (دوياجي).. كان محاطا بالعبيد والخصيان، وكان في مهمة سلطانية عنيفة، فيها وعود وأمنيات بلا حصر، وربما يلغى بعدها حظر السفر للمفتوقين والعمي والطرشان وحاملي ركافة اللسان إلى الأبد. فتح صانع الطبول عينيه بمشقة ليرى إحرامه نظيفا ومرتباً، وحزام الوسط محشوا بمال الحج، ونموذجا منحوتا من خشب الزان، يمثل الكعبة مشرقة وذات بعد روحاني أحضره من أحد تجار منحوتات الخشب على عجل.. سأل عن جرعة ماء، وعن الطريق إلى مقام إبراهيم.. أغلق عينيه ببطء لا ليطوف أو يسعى أو يرمي الجمار أو يقبل الحجر، ولكن ليموت بسلام. ولأول مرة أيضاً جاء إلى الحي، المهاجر اليمني (عباد عبد الرب).. لم تكن مهمته عنيفة كمهمة الحكيم بقدر ما كانت استرداداً متأخراً لواحد من الألقاب المتعددة التي فقدتها بعد أن انقلب (رغد الرشيد) على حظه.. لقب الشيخ عبد الرب.. حيث تعالت الأصوات عند رؤيته:

الشيخ عباد عبد الرب يتلو ما تيسر من الذكر الحكيم.
وللمرة الثانية وفي أقل من عامين، أقسم الكثيرون أنهم شاهدوا السلطان (رغد الرشيد) بشحمه ولحمه، وعمامته المذهبة، ممتطياً حصانه (المهراجا) الذي أهدي إليه من بلاد الهند، يتجول في مناخات حي الرديم الحزين والغاضب.

وربما للمرة الخمسين أو المائة شوهد (حلحلوك) المجنون.. لم يكن زائراً ولا معزياً، ولا حتى عابراً عادياً للطريق. كان مجرد مجنون

يشاهد للمرة الخمسين أو المائة في حي الرديم البعيد.
وكجزء روتيني من مهامه الأمنية، وحفظ النظام في تلك الوفاة غير
العادية، كان لابد أن يشاهد الأمير (مساعد) ونفر من كتيبته.. مبثوثين في
بؤس تلك الليلة.

دفنوه في مقابر (أولاد غرب) المخصصة لدفن المعوزين وذوي
الحاجات وفئات القبائل، وسار في موكبه قرابة الألفي شخص يتقدمهم
الحكيم دوباجي، الذي امتدت مهمته العنيفة إلى الفجر، والمهاجر (عبد
الرب) الذي كان سخيا في تلاوته لآيات الاستشهاد كلها، وسخيا في
مواساته لتلميذه (آدم نظر).. كان الأخير متجمدا، وبمطارق الضرورة
التي زورته في ذلك اليوم، أضافت إلى أعوامه الخمسة عشر أعواما
أخرى، كان لابد أن يصبر وأن يصمت وأن يخطو إلى داخل البيت بين
حين وآخر ليضرب فتاة أو يهدئ غلاما أو يطعن امرأة نائحة بصوته..
لم يكن في مخططه أبداً أن يصنع طبولا، لا للحرب ولا للسلم ولا
لصعاليك المغنين الذين تمزقها حناجرهم.. ولا كان قادراً على الصباح
لخمسة عشر عاماً في مجالس الخرس السلطانية. لكن أفكارا أخرى قد
تجيء في حينها، وذلك الجسد المهيب والفتازي للأب الشيخ (يوسف
كرا) بغرة صلاته الداكنة، وعبيده الخوارق، وحصانه المخطط، وعمامته
الضبابية قد يزوره في حلم ما.. لقد امتصه في العصر، وأغلق عليه في
خزائن الذاكرة ولولا موت والده الفجائي الذي يخلخل ثباته الآن،
لاستعاده كاملاً. اليوم يدفنون صانعاً معدماً للطبول، وغداً قد يتوجون
أباً شيخاً جديداً ربما ينبع لأول مرة من حي مهترئ كالرديم، ليمنح تلك
الأبوة الشيخة معنى مرهفاً ونيلاً. أفاق على صوت جسد يوضع، وتراب
يردم، وواحد من أقربائه يصبح.. ادفن أباك يا (آدم نظر).

-2-

انتهت الأيام الثلاثة الرسمية للعزاء بنواحيها المكثف وإحساسها العميق بخسارة لن تعوض، وانتهت بعدها سبعة أيام شبه رسمية كانت مواساة من أهل الجوار وبعض مرضى (جوا جوا) من (مفتوقين) وطرشان وعور.. الذين حلموا بالحج أسوة بصانع الطبول، وخمسة عشر يوماً أخرى غير رسمية، كانت قد خصصت لآل المتوفى القادمين من أماكن بعيدة. كانوا من قبيلة (التنجر) إحدى قبائل (أنساب) العريقة في الحزن والفقر. كثيفين وخشنيين، وذوي شوارب رفيعة كأنها خصصت لمراهقيهم وأخطأتهم إلى الرجال، كانوا يلوكون نبات (القرض) ويسفون (التبالك) ويخلطون بين القمح والذرة وثمار (الحميض)، وفي ساعات نومهم التي كانت شحيحة للغاية لا تتعدى الساعتين، كانوا يهلوسون بلا انقطاع. وكانت نساؤهم في الغالب ضئيلات الفم، ومبعثرات الشعر، ولهن عطر مؤلم إذا ما احتك بحاسة الشم. ترجلن عن ظهور الحمير والنوق بسرعة غير معتادة، بعد أن جرحن أصواتهن التي نزت بغزارة في بيت (نظر حباب). تعرف إليهم (آدم نظر) بمشقة، تعرف إلى أصولهم وروافدهم وحتى إلى سير مهاجريهم الذين لم يتركوا (أنساب) فقط، لكنهم تركوا العالم الفقير بأكمله ويعيشون الآن (خواجهات) أو أفارقة متأقين.. وكان يجادلهم كثيراً في البيت أو في تلك البيوت المجاورة التي بعثروا فيها واستضافتهم بالزفريات.. كانوا يتحدثون عن الفن وعن التجارة والزواج والطلاق وخلط الأنساب، وتذكر بعضهم أنهم لم يصبحوا في مجالس (الكوراك) السلطانية منذ أعوام طويلة برغم حاجاتهم التي كان العمر يزيد من تراكمها، وكان فيهم مسن أحذب الظهر، تحسس عمامته

المتآكلة على رأسه وقال بفخر

أهداني إياها مولاي (نفر المقدم) حين صحت في مجلسه عاري
الرأس منذ ستين عاماً.. قال أعطوا ولد حسيب إحدى عمائمي.

سأله (آدم نظر) في تدخل غير مهضوم من غلام أمام عمر وارف

ومجرب:

كم كان عمرك في ذلك الوقت يا جدي؟

في مثل عمرك الآن.. رد الشيخ.

وكم كان عمر السلطان؟

لا أدري.. ليس للسلطين أعماراً مثلنا.. إنهم يولدون ويحكمون

ويموتون دون أن تتغير أعمارهم.

وكم عمرك الآن يا جدي؟

كان سؤالاً صائباً وعادياً، ومن البساطة بحيث أن أي صبي يرى

ذلك العمر الهرم، وذلك الظهر المحدودب، وتلك الخطوط الوافرة على

الوجه، يمكن أن يسأله.. لكن الشيخ كان قد تكدر، تخلص من لقمته

الأخيرة من عصيدة (الحميض) بأن ألقى بنصفها على الأرض، ونصفها

على ثيابه، وزحف إلى أحد الأركان البعيدة وهو يسعل.. واكتشف الصبي

(آدم نظر) لاحقاً، وبعد مضي عدة أيام، أن الجد (سند حسيب) كان في

الواقع من أعمدة قبيلة التنجر، وقضاتها النافذي الأحكام منذ زمن بعيد،

وكان قد جاء في ذلك الوفد العزائي عريساً مفترضاً لأمه التي ما كانت

تقاليد التنجر تسمح ببقائها أرملة.. وفي مناخات وعرة كمناخات (جوا

جوا)، كان من المفترض أن تزف إليه بعد إكمال عدتها مباشرة، وتغادر

برفقة طفلها إلى ذلك المكان البعيد حيث جذور القبيلة. والواقع

أن الجد لم يتقدم لأمه أبداً، التزم في شيخوخته وحكمة (الروماتيزم)،

وغادر إلى إقليمه البعيد بعد يومين فقط من مجيئه.. وكان ابنه (حسيب)

موجوداً أيضاً في ذلك الوفد، لكنه كان أخرس اكتفت إشارات بتقديم

عزاء باهت ثم لزمتم الصمت. وعندما حاول الصبي سؤاله في إحدى المرات عن تلك الخرزة الخضراء التي تتدلى من عنقه بخيط رفيع، لم تقل إشارات شئاً مفهوماً.. ارتفعت وانخفضت، ودارت في الهواء عدة دورات ثم خبت. وقد لاحظ الصبي أن عبداً جاء مع الوفد أيضاً، كان شديد الالتصاق بحسيب، كأنه يحميه من خطر غير مرئي، وكان يوقد في أول الليل جمرأ على مبخر مزركش، يضع فيه ورقة مطوية، ثم ينفخ فيه بعنف حتى يتكاثر الدخان، يقربه من وجه الأخرس بعد أن يغطيه بملاء داكنة، فيشتد سعاله من تحت الملاء، وتبدو عيناه بحيرتين من دموع مرة بعد رفعها. كانت كما يبدو وصفة لعلاج خلل ما اجتهد الصبي في فك غموضها لكن أحداً لم يساعده.. كان الجميع يرددون.. لا ندري والله لا ندري.. وحتى العبد الذي كان مكلفاً بذلك الطقس.. كان يردد.. لا أدري.. لا أدري. وكان الغريب حقاً أن أحداً لم يتقدم لأمه أبداً بعد أن انسحب الجد (سند) متعكراً من ترملها. تركوها هكذا أرملة وأما لولد وبنت، وفقيرة، وباكية، وقد تواجه مصيبة، ووسط تلك المناخات الوعرة.. مناخات (جوا جوا).

كانوا يتحدثون عن طبول النحاس ذات الرنين الصلد والأثر النفسي الذي تتركه في قلوب سامعيها خاصة في أزمنة الحرب والتحرشات.. حين خفق قلب الصبي.. الآن فقط يتذكرون والده صانع الطبول العظيم، والذي قاوم الفقر لسنوات وأبدع طبولاً نحاسية ما زالت عواءاتها ترج قلوب الأعداء في (سقرة) و(أم جراب) و(واو الحفير)، لكن المتحدثون ما لبثوا أن خرجوا وبسرعة كبيرة عن ذكر الطبول وأصواتها، دخلوا بخيالاتهم إلى ليالي عرس، ودكاكين للحراير، وسوق للفخاريات، وسافروا في حلم يقظة حماسي في قافلة سياحية كاثت تقل (الأنسابيين) إلى جنوب مصر. كانوا يقومون للصلوات، فيقوم معهم، يجلسون للمضغ، فيجلس معهم.. يتسمون، فيتسم ويضحكون

فيضحك، يسIRON أحياناً في شوارع (جوا جوا) فيسير معهم، وكم
آلمته نيمتهم عن (هجليج) الشوارع التافه الظل، وسيقان النساء التي
هي عراقيب طيور، وبرادع الحمير غير الممتينة. أو بصقهم (للتمباك) في
الغرف النظيفة و المرتبة. عرفهم إلى الحكيم (دوباجي) الذي كان يأتي
أحياناً، ليس في مهام سلطانية عنيفة كما جاء أول مرة، ولكن كمأتنق
عجوز يسأل عن فرو الثعالب الذي تشتهر به منطقة قبائل التنجر وأراده
الحكيم كساء له، وأيضاً عرفهم على المهاجر (عبد الرب) الذي أقام في
عزاء نظر حبايب الرسمي وغير الرسمي، مستعيداً لثلاثة ألقاب مهمة
من التي فقدوها أيام غضب السلطان (رغد الرشيد) عليه.. وكان يمكن
أن يعرفهم إلى (حلحلولك) المجنون، لكن المجنون لم يشاهد في حي
(الرديم) أثناء وجودهم أبداً.

في أحد الأيام التفت أحدهم إلى (آدم نظر)، تأمله يامعان كأنه يراه
للمرة الأولى، برغم عشرة أيام أمضاها برفقة الصبي الذي كان رجلاً
لبيت ومتلقياً للعزاء، وخائضاً في حمى النقاشات..

- هل صحيح أن أباك مات بالمرض الإنجليزي؟

لا مات من حسرته..

صرخ الصبي.

ماذا كان لون حسرته؟ فقهه الغريب.. هل كان أحمر أم أزرق أم في
لون خريف (أم دبابيك)؟.

كان آدم قد سمع بالمرض الإنجليزي، سمع به في واحد من دروس
علم (الهربات)، في مدرسة المهاجر. كان الأمير (الهيراتي) يتحدث عن
أجهزة حيوية توجد فقط في المرأة، سماها أجهزة الخصوبة، وقال إن
تلك الأجهزة قد تفسد من أمراض كثيرة ك(الهيضة) و(أم صفوف)
والمرض الإنجليزي الذي يحولها إلى أعشاش للغراب أو أوكار لنعيق
البوم. لم يفهم (آدم نظر)، ولا فهم زملاؤه التلاميذ شيئاً، اعتبروها فقرة

معقدة قد تتفكك في عقولهم شيئاً فشيئاً، ولم يكن من السهل سؤال الأمير أو استيضاحه لأنه كان في أغلب ساعاته متعكر المزاج، ويشكو من انتفاخ في البطن.. حملوا تساؤلاً خجلاً إلى أحيائهم دون أن يجرؤا على الدخول به إلى بيوتهم، وبعد شهر كامل من البحث والتنقيب وأسئلة الحفر الملحة، جاء أحدهم بالفقرة مفككة.. إنه مرض (الماء الأبيض) الذي ينتج من لقاح المصابين به بغير المصابين، وسمي إنجليزياً لأنه دخل في البداية في أجساد الرحالة ومستكشفي البلاد، واستوطنت قبائل منه في جسد (أنسابة) لا ترحه.

ذلك اليوم كان المهاجر (عبد الرب) موجوداً، وكان قد استعاد بقوة غير رسمية ألقاب الشيخ والفقير و(بثر العلوم) أثناء وجوده المكثف في العزاء.. استعادها من فتاواه في الميراث، وتحببه للجهاد، وتخوفه من (الشق المائل) لمتعدي الزوجات.. كانت لهجته في مواجهة الغريب حكيمة لكنها لاسعة، وكان احتضانه لدموع تلميذه وبتلك العاطفة المؤججة وحده كفيلاً بإعادة لقب والد الصبيان إليه مجدداً.. ولدي لا تبك.. ولدي لا تبك.

كان في ذلك الوفد العزائي القادم من بعيد، شاب أبيض من الذين يولدون بلا صبغة للجلد في تلك الولادات النادرة، يسمون علمياً (بأعداء الشمس)، ويسمون محلياً ب(أولاد الحُور) وتحاك حول سيرهم آلاف الأساطير، والحكايا الغريبة. كان اسمه (جبروتي) وكان أول ولد للحور يراه (آدم نظري) في حياته بالرغم من أنه سمع عن تلك السلالة كثيراً.. سمع عنها في حكايات جدته ووالده، وسمع والدته مراراً تتحدث عن واحدة من بنات الحُور كانت تعرفها في أيام الصغر وكانوا يقولون أنها جنية تعيش بين البشر.

في البداية فر من صحبته متخوفاً من ذلك الجسد القصديري، وتلك الرائحة الحامضة للهاث وشياطين لزجة تخيلها ترافقه، تحاشاه

مرة ومرتين وعشر، وتقبل عزاءه مرتعداً، وكان يستغرب من انصهاره في الوفد لدرجة أن أحداً لم يكن يلقي إليه بنظرة. وبمرور الوقت تألفا لدرجة أنهما لم يكونا بفترقان طيلة النهار وقسماً من الليل.. وفي تلك الصحبة الطارئة حكى له الشاب عن ميزة التألق أن تولد (حوريا) وسط قوم عاديين كلهم يملكون صبغة للجلد. وإن كثيراً من السياح المتوغلين في بلاد التنجر كانوا يظنونهم أوروبياً لشدة اختلافه، يصافحونه باحترام ويمنحونه من الثقة أكثر مما يمنحونه لغيره وإن فتاة خارقة الجمال من إحدى قبائل العرب البدو المترحلين في أطراف (أنسابة) قريباً من بلاد (التنجر)، أحبته بجنون، وكاد أن يتزوجها بالفعل لولا (الدليل كرشو) الذي أفسد كل شيء.

سأله الصبي بتلهف:

من هو الدليل كرشو.. من هو يا جبروتي؟

ألا تعرفه؟

لا

إنه واحد من رعاة الأغنام لا يعرفه أحد.

وكيف أفسد كل شيء؟ كيف يا جبروتي؟

عض الصبي على حرف الاستفهام حتى أدماه.. كان مشوشاً بشدة، وقد ورد إلى ذهنه رسم متخيل لفتاة البادية الخارقة الجمال تبكي سجيئة في خيمة صحراوية، وبرفقة راع للأغنام لا يعرفه أحد. أطرقت الحُوري برأسه إلى الأرض قليلاً، أخرج من جيبيه حفنة من لب البطيخ ألقي بها بعيداً، وحين رفع رأسه كانت ملامحه العارية ساهمة ومجروحة..

أبدأ.. هزم أباه في عراك بالعصي، وبوجود ألف متفرج ظلوا يضحكون ليوم كامل، فلملم الأب أسرته واختفى.. ولم يعثر عليه أحد.. هل تحب الصيد يا أدوم؟

لم أجربه.

عندي كتاب عن الصيد مكتوب بلغة غريبة وبه رسومات كثيرة تعلمك الصيد في يوم واحد.. إنه هدية من صديقي الشماس عبود.. أهداني إياه حين زار منطقتنا في المرة الأخيرة. لقد رقص معنا في عرس تصادفت إقامته، وبكى معنا في مأتم حدث وهو موجود، وشاركنا في حفر بئر جديدة وقال حين انتهينا.. الرب يمنحكم من سخائه فلا تخذلوا الرب.

الشماس عبود؟

- نعم.. إنه رجل دين متجول اعتاد الحضور إلى (أنسابة) في كل عام.. لو رأيت رجلاً بثوب أسود وعمامة سوداء وحذاء من جلد أسود يسير في شوارع (جوا جوا).. فهو الشماس عبود.. صديقي.

افتتن الصبي بولد الحُور القادم من بعيد في ذلك الوفد العزائي، افتنانا أنساه غرابة القصدير وحموضة اللهاث، وأحزان موت والده المفاجئ. أحب لهجته ولسانه ومزيلات العرق والعطور التي كان يخترعها من خلط سيقان النباتات وبذورها ببعضها.. ويتاجر بها في دكان صغير افتتحه في موطنه في قرية (أم حراب) التي كانت أهم مراكز (التنجر).. وعلى مدى أسبوع، اطلع (آدم نظر) على نماذج خشنة ووارفة من تلك التجارة كان (الحُوري) يحفظها في قنار ملونة ويرتبها في حقيبة من سعف الدوم..

انظر هذه لإنعاش الساقين بعد الجري. هذه لعرق العنق. هذه لإيقاظ اللفهة أمام الأحبة.. هل تعلم أن لكل جسد عرقه الخاص وعطره الخاص أيضاً؟.. جدي علمني ذلك.

وما هو عطري أنا؟

سأله الصبي..

اقترب الحُوري من جلد (آدم نظر).. الذي كان بعضه عرقان

وشاحباً في مواجهة الشمس في واحد من آخر أيام الصيف في (أنسابة) في البداية شمه باستعجال، ثم أعاد الكرة لاصقاً أنفه في العرق وحين رفع وجهه في النهاية كان مبتهجاً..

- عطرك مزيج من سيقان (المنوليا) و(الجاندنار) وقليل من حبات (القرفة) بعد سحقها جيداً.. إنه عطر السطوة وسأخترعه لك.

لم يفهم الصبي حرفاً واحداً من لغة ولد الحُور المعطرة، لكنه اصطحبه في جولة موسعة في سوق العطارين القديم في (جوا جوا)، حيث نبش واستشق واستفسر وعاد في النهاية (بالمنوليا) و(الجاندنار)، وحبات القرفة المسحوقة، ليمكث ساعات طويلة، ويخترع عطر السطوة الذي لم يبهز (آدم نظر) فقط، لكنه أدار رؤوس عذراوات كثيرات تعمد الصبي أن يتسكع بالقرب من أنوف شمه. ذلك اليوم بالذات ضاعف ولد الحُور من ارتقائه لقلب الصبي.. كان سلّمه في هذه المرة عطراً عذّ فآخرأ في جسد لم يتذوق العطور أبداً من قبل.. ازداد به التصاقاً، وازداد ثقة، وكان ينظر إليه نظرة تلميذ باهت إلى معلم قدير

- هل يمكن أن أتعلم صناعة العطور؟

- صعب.. صعب..

- ولا حتى مزيلات العرق؟

- صعب.. صعب.. لا بد من ثقافة.. لا بد من صبر.. ولا بد من عاهة

تصيرك جباراً. يسكت الصبي.. لم تكن فكرة صناعة العطور إلا فكرة

طارئة.. ولكن طموحه أكبر وأكبر.. الجليل الذي ترجل عن الفرس..

من يصنع عطوره؟ لا يفارقه الجليل.. لا تفارقه الأحلام الكبيرة.

على صعيد الحزن المخفي في داخل البيت، كانت والدة الصبي وأخته (الرزينة) منكبتين في الحزن التقليدي الموروث بكل أوصافه ومسمياته وأنصاله الجارحة، وبرغم ذلك لم تقل كفاءتهما في خدمة المعزين الذين لم يعودوا وفداً رفيع الحزن قدم للمواساة في الفقد

من بلاد بعيدة، بل أصبحوا أشجاراً كبيرة الفروع في حاجة إلى ري،
وفئران ناشفة الحلق تجوس في مطبخ العائلة.نضبت الذرة، شح الدخن
والقمح، والحميض، وزيت جذع ((الهجليج)) البذيء الرائحة، وجاء
أهل خير من أشراف (جوا جوا) بخراف وماعز، وأرانب برية، سلخت
كلها.كان الصبي يتوغل إلى الحزن المخفي بين حين وآخر، يرى أمه
تلطم الخدود، وتشق الجيوب، وتصفّر المناحات وتنادي على والده
البعيد بلقبه الفخم المؤجل الذي حاول تفصيله مراراً ولم يستطع قط..
(حاج نظر حجيت.. حاج نظر سعيت)..

يعود إلى (الحُوري) صديق الخمسة عشر يوماً الأخيرة، يصف له
كل شيء، فيردد بثقة:

أرملة وفيه تمارس حقها في الترمل وبكاء الزوج.. دعهأ وشأنها.
يتوغل في الحزن المخفي، يرى أخته (الرزينة) التي كانت تلقب
في (حي الرديم) بـ (مهرجان جوا جوا) كناية عن بهائها، وتنوعها وبريق
عينها، يراها صائمة وقائمة، وهائمة التقاطيع تعد على أصابعها كثيراً،
وتصفّر شعرها بالخرز الباهت اللون، يعود إلى الحُوري يخبره.. يردد..
- فتاة لابد كانت بأبيها معجبة.. دعهأ..

يتوغل.. ويتوغل.. يرى نساء التنجر القادمات من بعيد.. مبتسمات
وضاحكات ومزينات بالذهب والفضة والخرز الملون، فيهن رائحة عطر
الإيذاء نفسه، وفي ثيابهن اللماعة تطاريز عرس.. يردد الحُوري:
- نساء عاديات في عزاء عادي.. هذه هي التقاليد.. هذه هي.. الغيرة..
المباهاة.. هكذا..

وحين انتهت الخمسة عشر يوماً حقيقة، وتلملم وفد العزاء الفئرائي
للرحيل، لطمت الأم لطمتها الأخيرة، شقت جيها الأخير، نادت يا حاج
حجيت.. نداءها الأخير، صامت (الرزينة) صيامها الأخير قامت قيامها
الأخير، وهامت تقاطيع الوجه أيضاً هيأها الأخير.. ساعد الصبي في

سقاية الإبل وتحميل الحمير، وشد اللجامات، وأمسك بثياب (ولد الحُور) الذي تهيأ لركوب ناقته صارخاً:

ابق يا جيروتي.. ابق أرجوك..

كان يريد أن يبقى بالفعل.. يريد أن يحكي حكايات الشامسة المتجولين التي كان يرويها، لم تكتمل بعد، أوصاف فتاة البادية الخارقة الجمال لم تتركز في الذهن بعد، وعطر (السطوة) الذي اخترعه وحرك شم المراهقات في الشوارع، اعتاد الجسد على رائحته وأوشك على النضوب.. يريد لأنه لم يصف له مجلس (الكوراك) الذي بهره، والأب الشيخ (يوسف كرا) الجليل المهاب وكل تلك التفاصيل التي شاهدها للمرة الأولى.. كان يحتفظ بأوصافه تلك لليل أقل عصفاً وبعد أن تخف مرارة المأساة. تأمله الحُوري باختصار بدا واضحاً في خلايا وجهه القصديري.. خاطبه بجلافة لم تكن موجودة في تلك الخمسة عشر يوماً المبهرة:

رزقي خارج عاصمتكم يا صبي.. عندي تجارة أتاجرها، وأم أرعاها، وسياح أجانب يسألون عني.. لا تقل لي اترك كل هذا..
انقلهم إلى هنا.
لا أستطيع.. وداعاً..

تلك اللحظة بالذات خرجت (الرزينة) من داخل الحزن المخفي لأول مرة منذ مات والدها، كانت تؤدي مراسم الوداع لوفدهم العزائي الذي تكبد مشاق السفر.. لم تكن هائمة، ولا في وجهها آثار غم، كانت نظيفة، ويانعة، ومهرجاناً، ولها جدائل من شعر لولبي تفرسه عناقيد الخرز.. وحين مدت يدها مصافحة لأيادي الرجال المتأهبين للسفر، صفروا فجأة أو كبروا فجأة أو توسطوا في العمر. توقف الحُوري عن ضحك جلافته المتقاة في وجه الصبي، تأجلت تجارته في تلك اللحظة بالفعل، وجفيت أمه، وما عاد يهمه لو سألت آلاف الوفود السائحة عن

غرابة جلده في تلك الأصقاع البعيدة، أحس بيد (الرزينة) التي امتدت إليه، خائفة.. أحس بكيانها يتراجع، رأى عينيها تهذنان، وكأنه سمع لسانها الرطب يهمس.. ولد حور.. ولد حور.. كانت قد أصابته في الصميم.. قلبت دمه في سروج الوله، ونبتت خامات عطرها الشخصي في ذهنه المتوَعك.. سيقى ليخترع ذلك العطر وليس من أجل خاطر الصبي، يخترعه من نرجس الحقول المتغطرس أو ياسمين الواحات البري، أو حتى من مسك غزلان نهر (الجمر) الذي سمع عنه مرة في الأساطير.. عطر النضارة.. عطر النضارة.. هكذا سماه.. عطر سيفتك بالعطور كلها.

نعم ولد حور.. إنه صديقي جبروتي.

قال الصبي وهو يلهث..

هزت نضارتها في ذات الوجه المرتعش، وبذات عيني الهيام المذعور، تراجعت إلى الخلف عدة خطوات حتى تأكد الحُوري أن ارتعاشها قد توقف وارتعاشه قد بدأ.. ترجل عن نوايا السفر وربط ناقته في وتدها من جديد، ودون حتى أن يودع قومه أو يبيت تحايا لأمه التي يرعاها، وقال للصبي وهو يهتز ويمد يده القصديرية ليقصره في خده:

- من أجلك يا أدوم يا شقي.. سأبقى.

ولم يكن صادقا.. لم يكن صادقا أبداً..

تلك الليلة لم ينم ولد الحُور أبداً، ولا نام (آدم نظر) إلا نعاساً يتضفر ويتقطع، كان يحس بأنفاس صاحبه ثمر، يحس بلهائه مرأً، ويلمحه في ضوء القمر الهزيل المتسرب من شقوق النافذة، يتلوى كأنه مغفوس.. وحين استيقظ من تلك الغفوة الواهنة في الصباح، وجد مئات من عيدان (الذرة) تتناثر تحت فراش صاحبه، استغرب للأمر كثيراً، ولم يخطر بباله أبداً أن تلك العيدان قد استخدمت وطوال ليلة كاملة في لعبة

الاستقصاء الشهيرة في حق أخته:

ستحبني..

لن تحبني

ستحبني

لن تحبني..

وأنها توقفت مصدومة عند المقطع الأخير.. لن تحبني.. رأى
عينيه جمرتين، وجفونه متفخة، وهالتان من قصدير داكن تحتويان تلك
الجفون. سأله:

ماذا حدث لك يا جبروتي؟

لا شيء.. عندي عطر يعذبني. وأريد أن أختعه حالاً

لم يحدث لك ذلك حين اخترعت عطري. لم تساهر ولم تؤرق..

- عطرك يختلف.

قالها في جفاء تقلصت له أمعاء الصبي.. وتجرحت صداقته.. كان
يقوم ويقع، يحتسي شاي التناع القادم من منبع العطر في الداخل بتعجل
كأنه يخشى فرار نكهته، لم تكن في الحقيقة أية فتاة للبادية خارقة الجمال
ترحل في بلاد التنجر كما ادعى، ولا راع للأغنام أسمه (الدليل كرشو)
يتعارك بالعصا ويفسد كل شيء، ولا أية اختبارات أخرى خضعت لها
عواطف (ولد الحُور) القصيرة القامة أمام طوفان العواطف.. نعم كان
ثمة سياح أجنب يلقون عليه التحية ويمضون في سبيلهم، وربما استغلوا
يديه الريفيتين في تكسير حطب أو إشعال نار.. وشماس متجول اسمه
(عبود) رقص معهم في عرس وبكى معهم في عزاء وحفر معهم بئراً
وقال حين انتهوا.. الرب يمنحك من سخائه فلا تخذلوا الرب.. وكتاب
عن الصيد برسومات مزرکشة عثر عليه في أحد الشوارع صدفة.. وربما
كانت هناك عشرات التلصصات وقصص الهيام من طرف واحد قد
حدثت بالفعل ولم يذكرها للصبي.. كانت أمه تختصه بحنانها كله حتى

كبر، أبوه يحاول أن يفتخر بولادته دون أن يقدر.. يذكر تلك الهلوسة
الذليلة التي هلوسها لسنوات طويلة، وهو طفل وهو يافع وهو رجل..
يذكر سرواله الأبيض النظيف، وقميصه السمني المخطط، وعمامة أولاد
القبائل التي اشتراها غالية، وارتداها مراراً في حفلات عرس الأصحاب
أو نواحات مآتهم.. لم تقل له فاطمة التي كانت إحدى بنات الجوار
شيئاً أبداً.. ولا (مسرة) الجارة الأخرى شيئاً أبداً، ولا (دار النعيم)
قريتهم المتطرفة، والتي لو كان شاعراً لرسم نعاسها، وحلقة الشعر.
كن يقلن للآخرين ويتجاوزن عاطفته المسكينة. ما التميز أن تولد حُورياً
وسط قوم يملكون صبغة الجلد؟ ما جبروتي، ما طعمه.. ما ملامحه..
ما لون صبغته لو كان مصبوغاً.. الأبيض يبدو أيضاً والأسمر أسمرأ،
وأصحاب (لون زينب) المخلوطين من هذا وذاك، يبدون أصحاب (لون
زينب).. تلك الليلة المقمرة سار خلف قطيع من ظباء البراري، واصطاد
واحداً منها، كان يريد تقديمه لواحدة من ست عشرة يانعة ظن فيهن
خيراً أو شراً.. لعبة الاستقصاء العنيدة.. لعبته.. من عيدان الذرة.. من
خيوط الطواقي.. من حبات الفاصوليا والعدس..

ستحبني..

لن تحبني

ستقبل..

لن تقبل..

ودائماً صدمة النهاية عند المقطع الأخير..

لن تحبني..

لن تقبل..

يذكر جده الذي علمه صناعة العطر ومزيلات العرق من سيقان
النباتات.. وأباه الذي علمه الفتونة وصيد الثعالب الغزيرة الفراء..
و(مالك الأنسابي) الذي علمه الكتابة والخط.. و(أحمد قرون) الذي

وضع قدميه على خطوط المراهقة الأولى، و(جديرة) الراعية التي علمته رعي الأغنام في مواسم الجذب.. ولا يذكر أحداً علم الفتيات أن يعشقته.. شديداً الصبي (آدم) حتى كاد أن يخلعها..

هيا إلى سوق العطارين.. هيا..

أيام من السهر والحمى والشم واللمس والمضمضة والاستنشاق، والشهيق والزفير ومكابدات أخرى لا علاقة لها بتركيب العطور، إضافة إلى لعبة الاستقصاء العنيدة.. من عيدان الذرة وخيوط الطواقي، وحببات الفاصوليا والعدس..

سأستطيع..

لن أستطيع..

سأستطيع..

لن أستطيع..

هتف (جبروتي) وهو يرفع قنينة وردية المحتوى، ويقربها من

حواس شم الصبي..

عطر النضارة كما أتصوره.. خلاصة العطور كلها.. ها.. ها

كان عطراً وارفاً بالفعل.. مزيج من برتقال، ورنجس وزنبق صحراوي، وغرائب أخرى جاء بها الحُوري من سوق العطارين وسوق الفخاريات الكبير، شمه الصبي فأحس بتوهان لذيد، تمثلت له فتاة البادية خارقة الجمال.. أكلذوية ولد الحُور، كاملة تعدو إلى مرافقه، تمثلت له أطيايف الجوار البضة، وأصوات لغنج بعيد، ووجوه وردية الخدود يعرفها، ولم يعرف إيحاءها أبداً، عادت ابتسامة جارتهم (روضة) التي ابستمها منذ عام ولكن بدثار جديد، عاد خصر قريبهم (عائشة) الذي تتخصره منذ عهد ولم يكن في الماضي سوى مجرد خصر لقريبهم عائشة، ولعبت في فناء الذهن قمصان حمراء كانت منشورة في جبل بعيد.. كانت دروس علم (الهبرات) في مدرسة المهاجر عبد الرّب،

تحتوي على الكثير من الحيل والرسومات والخطوط الحمراء، ويدرسها الأمير (الهيراتي) مستمتعا ومتفخ البطن، لكنها لم تخلق إحياءها كثيراً، وكانت في النهاية علوم تستوعب أو لا لكن عطر النضارة الذي أبعد جبروتي عن صداقته لعدة أيام وحقنه بذلك التوتر، ويلهو الآن أمامه، كان شيئاً خارقاً.. شيئاً لا يمكن تصديقه. لمن صنعته.. لمن صنعته يا جبروتي؟

- لها..

ردد الحُوري (لها) المبهمة والسرايية، عدة مرات أمام أذن الصبي..
وردد (للرزينة) مرات أكثر أمام آذان قلبه فقط..

لها..

للرزينة..

لها.. للرزينة.. للرزينة.. لن يشعل ضغينة الصبي بإيقاد قصة للحب في بيته، بالرغم من أن قصة الحب كانت متقدمة بالفعل.. ترى هل كل (حورتي) أنسابة عشاق مثله، وكل (رزيناتها) بمثل تلك الرقة؟ وتلك الليونة؟.. في وطن (التنجر).. وطنه لم يكن هناك سوى حورين فقط.. هو (جبروتي) و(سعدان) المزارع، لكن سعدان لم يكن عاشقاً.. ولا مازجاً للعطور، ولا سمح لسائح أو شماس بانتهاك غرابته أو حتى السلام عليه.. كان يحفر ويسقي وينام..

- لها.. من؟

- هي..

هي لأذن الصبي.. الرزينة لأذن قلبه.

هي.. الرزينة.. هي الرزينة..

فجأة انقطع الحوار المعطر بدخول صاحبة العطر حاملة صينية الطعام، كانت رزينة يوم وداع الوفد العزائي نفسها، نظيفة ومشركة، لولا آثار غرض من بعوض كانت تتناثر على وجهها.. قالت... مساء

الخير وابتسمت، ولاحظ الحُوري أن قميصها من (دانتيل) فقيرة كانت تسوقها قوافل الصعيدي (حنفي الساحوري) وبعض القوافل القادمة من الحجاز في تلك الأيام، وحذاءها من جلد ماعز صغير، وعناقيد الخرز التي تعض على صفائرها قد عدل ترتيبها عن يوم وداع الوفد العزائي.. وضعت عصيدة (الحميض) على الأرض واستدارت لتصرف، ولاحظ ثقباً واسعاً مستديراً.. في ثوبها تحت لوحة الكتف اليمين وبقعة من زيت في المتصف.. فتح فمه القصديري ليقول شيئاً.. لكن قصدير الفم انغلق دون بث..

جبروتي صنع عطراً جديداً يا رزينة.. عطر النضارة.

التفتت لا لتندش من جديد جبروتي ولكن من قديمه أيضاً.. لم تكن تعرفه، ولا تخيلته صانعاً للعطور ولا كانت هيئته توحى بوجود فنان أو عطار تحتها.. فتاة بأبيها معجبة.. وفتاة في وسط الحزن ما تزال.. وفتاة من حقها أن ترتعش لرؤية واحد من أبناء الحُور في بيتها.. منذ مات صانع الطبول.. والرؤيا غائمة.. وآدم صغير.. وأمها مرضت، والقبيلة انصرفت.. وهذا الجبروتي لا يقيم في حزنهم فقط، بل يصنع عطوراً للنضارة. انصرفت دون كلمة، ودون أن تقترب من العطر الوردي الذي صنعه حبها.

كانت أخبار ولد الحُور وعطوره التي يخترعها في البيت، تصل إلى أرملة صانع الطبول داخل حزنها وعدتها بانتظام، يحملها الصبي في دخوله وخروجه وفي الدقائق القليلة التي يقضيها في محيط العائلة. وصلتها فطرة من عطر النضارة، وعطر الدوران، وعطر طراوة القلب، وعطور أخرى متعددة، حتى أخبار لعبة الاستقصاء التي كانت تدار في بيتها بشكل يومي ولا يعرف أحد لماذا تدار، وصلتها، كانت تحث (آدمها) على التروي في اتخاذ الصداقات، تأتيه بأمثلة لأصدقاء عرفوا والده، وركلوه وكانوا أكثر الشامتين حين أنزل من قوافل الحج.. تقول..

لا بأس من صداقة جبروتي.. لكن بحذر.. كان يهز رأسه متجاوباً وفي الخارج يندفع إلى صداقة ولد الحُور بحمى غريبة. وحين انتهت عزلتها وخرجت إلى المواجهة والمصائب ومناخات (جوا جوا)، لم تندersh حين أبصرت جبروتي. كان هو جارتهم الحُورية القديمة نفسها، فقط بكيان رجالي وبلا قصدير مضفر.. سأله عن أمه.. وعن جدته، وعن حريم أخريات لم ترهن منذ عهد.. وكان ولد الحُور سخياً في التعامل معها.. زودها بالكثير من خفايا التنجر، واخترع لها عطراً رقيقاً يمسك بالدمع قبل أن ينهمر، سماه عطر تخفيف الحزن. وكان يبذل مجهوداً خارقاً للحفاظ على توازنه أمامها وأمام حبه الرزينة.. كان غريباً وتحت ظل لم يرد أن يفقده سريعاً.. في يوم ما سوف تخرج القصة المتقدمة من قلبه لتأخذ مسارها في بيت العائلة.. لكن ليس الآن.. ليس الآن.. يقول ويضغط على قلبه أكثر

1

-3-

ثلاثة أعوام انقضت على وفاة صانع الطبول (نظر حبابب)، تلك الوفاة الفاجعة التي حدثت في يوم جمعة (الكوراك). تغير الكثير من وجه السلطنة وجسدها، ازدادت تجارتها اشتعالا، ومجالس كوراها صياحاً، وعداءاتها لسلطنة (كردمال) المجاورة حدة وتوقدا. تقاعد (حنفي الساحوري) تاجر الصعيد الكبير عن ركوب القوافل، وخلفه (حنفيون) آخرون من ذات الصعيد، كانوا أكثر شراة وشبابا وصبرا على الاستيراد والتصدير واكتشفوا مداخل ومخارج لم تكن تخطر على بال (الساحوري) أبداً.. توسعت تجارة الحجاز واليمن وأرض تمبكتو، ولم يبلغ حظر ركوب القوافل السلطانية للمفتوقين والعور والطرشان، وحاملي ميكروب اللسان الركيك فقط، بل تم حصرهم بصرامة في جميع أنحاء (أنسابة)، بواسطة كتية الرعاع القوية، اصطيدوا، وأرسلوا في بعثات خاصة وقوافل مجهزة بلوازم الحج كلها.. حتى إخراجهم كان يربط، وحزام وسطهم يحزم في الوسط، وتساندهم حناجر العبيد الشرسة في التلبية والتهليل وإنشاد الدعاء الصوفي.. وكانت بيوتهم تدهن بالأبيض الجيري، وتكتب على أبوابها عبارات الحج المبرور، والسعي المشكور والذنوب المغفور، والعود الحميد قبل أن يرحلوا، وخراف كراماتهم تربط في ساحات مخصصة إلى أن يعودوا وكان من جراء ذلك أن أخطاء كبيرة قد حدثت، وكاد أن يرسل (إيراك) اليهودي تاجر الورق والتحف التذكارية في سوق الفخاريات، والذي كان أعور وبلسان ركيك، في واحدة من تلك القوافل لولا أن تم تدارك الأمر قبل أن تتحرك القافلة.. وتوجيه حميد من السلطان (رغد) شخصيا، كان بيت صانع الطبول

الراحل، يجدد بياضه سنوياً، وتكتب عليه العبارات ذاتها وينحر خروف
أيضاً تأكيداً للعود الحميد.

تلك الأثناء بقي جبروتي ولد الحُور في حي (الرديم) المرهق في
(جوا جوا)، قريباً من منبع العطر الذي كانت تضخه (رزينته) في كل
شيء، في الشاي المنع وعصائد الحميض والدخن والذرة، والسلام
عليكم وعليكم السلام العابرة من حين لآخر. سافر مرة إلى بلاد التنجر
البعيدة، لم يمكث سوى أيام قلائل لم تكفه حتى لمحو ماض أو بذر
بذرة حاضر، وعاد حاملاً تجارته، ورائحة أمه، وعطراً آخر اخترعه هناك،
وسماه عطر قلبي الصابر، وكان صابراً بالفعل يقاوم العرق، وفوضى
الشم، ولا يفارق الأجساد أبداً... كان حبه (للرزينة نظر) الآن حباً مختلفاً،
شاباً وقوياً وصلداً، ومستعداً للمغامرة إلى أبعد مستوى، ليس عشق اليوم
الأول المرتعش ولا الأيام التالية المكابدة، ولا التي أعقبتها تحت رحمة
لعبة الاستقصاء العنيدة.. ستحبي.. لن تحبي.. ستحبي.. لن تحبي،
بالرغم من استمرار تلك اللعبة لليال طويلة بلا انقطاع، واكتشف بعد
تأمل متأن لخيالاته المختلفة، وقراءة اتجاهات نظرتة وسلوكيات أخرى
يراها في يديه، ورجليه وعضلات بطنه، أنه يغار من عناقيد الخرز التي
تعض على شعر الرزينة.. يتخيلها خناجر، ويتخيلها سكاكين، ويتخيلها
حراب صيد.. ويمكن أن يتخيلها براميل بارود لو كان البارود قد وصل
إلى (أنسابة) في ذلك الحين.. تلك الأيام أيضاً جرب أن يكتب أغنية
عاشقة يرددها لنفسه بصوت قصدير مرهق، فكانت أغنية (حبي حبي)
غزلية فاشلة، لم تخفف من غليانه أبداً ولم تنفرع إلى أغنيات أخرى.
وبرغم نجاحاته المؤكدة في الترويح لعطوره في ذلك المتجر الصغير
الذي افتتحه في سوق (جوا جوا)، سماه (يسر ولا تعسر) وتهافت
وجهاء العاصمة وعذراواتها وفرسان كتابها للتزود بتركيباته، إلا أنه
كان معقداً في شأن عطر النضارة الذي اخترعه لحبه، يرفض ترويجه

بشدة، ويرفض حتى السماح لأحد بالاقتراب من نكهته. يقول لعملائه.. صنعته لها.. ولقلبه.. للرزينة.. لها للرزينة.. وكم كانت سعادته كبيرة حين التقى بثلاثة من سلالاته كانوا هم كل أولاد الحُور الذين يعيشون في (جوا جوا) تلك الأيام.. بادلهم المكابدات، وبادلوه الحنظل.. شكا لهم وشكوا، وكانوا يحكون رؤوسهم باستمرار.. في تلك الليالي الكثيرة التي أدمنها بحثاً له عن مخرج.. وكانت مخارجهم بذينة بالفعل حين اقترحوا عليه الموت، واقترحوا الخصي، واقترحوا التنسك، واقترحوا الصباح بحبه في مجلس (الكوراك) لعل السلطان ينصفه. وكانت كآبته تطعن في العمق حين يصرخون.. ما نحن.. ما طعمنا.. ما ملامحنا.. ما لون صبغتنا لو كنا مصبوغين..

من جانبها لم تكن الرزينة تحس أبدأ أنها مركب آثم يتبخر أمام حوري غريق.. لم تعش نظراته، ولا وقفاته ولا جلساته، ولا غيرته المستنة من عناقيد الخرز.. ولا فكرت أبدأ في التزود ولو بقطرة واحدة من عطر النضارة الذي كونه حبها.. كانت تراه في واقع تصورها.. مجرد ولد حور ريفي.. ومنهك، أعجبتة مناخات العاصمة وأسواقها فقر أن يبقى ويمدّن.. وحين تحس برائحة تعاطف تجاهه تحتك بقلبها.. تقول.. مثل أخي.. مثل أخي آدم تماماً.

أيضاً من جانبه لم يكن (آدم نظر) يحس بأكثر من احساسات أخته، إضافة إلى اعتبار البقاء المتأجج لجبروتي في بيتهم بقاء من أجل خاطره هو، حين أنزله عن ظهر ناقته صارخاً في ذلك اليوم البعيد وهم يودعون وفد العزاء (التنجري).. ابق يا جبروتي.. ابق.. أرجوك؟

وحدها كانت أرملة صانع الطبول متوجسة، تنام متوجسة، وتصحو متوجسة، تطبخ وتغسل، وتنفض شعرها وتمشطه متوجسة، ودفعها ذلك التوجس إلى النبش في تراب البيت وحوائطه، وغرفته الضيقة وحتى حفرة قضاء حاجاته، بحثاً عن شيء لم تحدده، والطواف على الجارات

وسؤالهن عن طباع أولاد الحُور، وشياطينهم، ومقدار شهواتهم لو كانوا يملكون شهوات.. كانت تخشى من شيء لم تحدده، وتطلع إلى شيء لم تحدده، وتخاف لو نامت ساعة أو دقيقة أن يحدث شيء لم تحدده أيضاً.. كانت الجارات يزودنها بالهلع، ينبشّن لها أساطير الأجداد عن جن أولاد الحُور واستعدادهم لشرب الدم لو سنحت لهم فرصة، وكم من مرة قدمت لجبروتي عصائد الحميض والدخن، ومرطبات (القنقلين) تافهة ومتسخة وفيها رائحة ودق.. أملا في فراره من بيتها، فلم ينتبه، كان يلوك ويحتسي، ويبيض ويفقس، ويعشش في بيتهم. وتحت ضغط مهول من أمومتها وفي أيام متعاقبة.. انتفش ولدها (آدم نظر) مرة أمام جبروتي يريد طرده.. رفع يده، وبرى لسانه، وأيقظ عضلتين نائمتين في صدغيه، لكنه حين احتك بنظرات عينيه تراجع صارخاً..

- ابق يا جبروتي.. ابق أرجوك..

فتكلم الحُوري مندهشاً..

أنا باق كما ترى.. من قال إنني ذاهب؟.

كان (آدم نظر) قد كبر أيضاً في تلك السنوات، تصلد وجهه، وامتد شارب، وتكاثف على صدره، وتحت سرته الشعر الخشن، وأصبحت صياحاته في البيت، والحي، وحتى في دكان الطبول الذي أعاد افتتاحه من جديد وعمره بعد أن أقلع عن مدرسة المهاجر (عبد الرب)، أقرب إلى صياحات والده الذي رحل حين كان يستلها بين حين وآخر. لم يكن يعجبه بن الصباح الطارد للنعاس، ولا لون الملاءات في الأسرة، ولا زيارات الجارات في وقت الضحى، ولا طنين البعوض، ولا رائحة عطر القمامة التي هي من مكونات حي الرديم، ولا مشية أخته النسائية العادية والتي اعتبرها مشية غنّج، ولا حتى أن تغسل أمه سراويله المتسخة، دون إذن كما تفعل كل الأمهات. وكم من مرة اشتد في نقاش عائلي كسر فيه طبقاً من الصيني، أو تعارك في ساحة عامة ومزق قميصه، أو

رجم زبونا متكبرا بطل من النحاس.. كانت ذكريات مجلس (الكوراك) الذي شهده، وانتهى بتلك الفاجعة، ما زالت تؤرقه، يحس بيد أبيه التي كان يمسكها في اللحظات الأخيرة، ما زالت لاصقة بيده. وذلك الجسد المهيب للأب الشيخ.. على أيدي العبيد الخوارق ما زال يؤرقه أيضاً.. وقد تسرب في عدة جمع إلى ذلك المجلس لا ليصبح أو يقضي حاجة أو يستعيد المشهد القاسي لوالده حين عري فتاقه أمام الناس، ولكن ليتمتع أكثر. ويستعيد أكثر. الآن هو في الثامنة عشرة من عمره.. شاب وممكن لا يستهويه (حللوك) المجنون وأحاديث ذنابه الإفرنجية، لا يستهويه بكاء الأرامل والمعذبات وصياحات العجايز المتساقطين.. والباحثين عن غرر الصلاة. الأب الشيخ (يوسف كرا).. كيف وصل إلى تلك المكانة.. كيف وصل؟ كان الآن يعرفه جيداً.. يعرف ألوان جبته وخطوط حصانه، وموعد تشريفه إلى مجلس (الكوراك) وحتى سمك عضلات عبيده الخارقين حين تبلور تلك العضلات لحمله.. ولولا خوفه من مشكلة أو خراب بيت لرخص إليه حين يحضر وصرخ.. أبي الشيخ.. أبي الشيخ.. لقد أجبر ولد الحُور في إحدى الليالي على الاستماع إلى وصف الأب الشيخ وهالته كاملاً.. وسأله كيف يصبح الإنسان أباً شيخاً؟ لكن جبروتي الذي كان مشغولاً بنصوصه المهلكة في حب الرزينة، يكتبها في الليل والنهار وبعيني القصدير أو مزج العطور، لم يكن معه. قال بعد انتهى مباشرة وهو ينهض متوجهاً إلى سهرة اكتثائية عند أبناء جنسه:

لا أستطيع إفادتك يا أدوم.. ليس لي أب ولا شيخ.. ولا أعرف عن (يوسف كرا) أكثر مما تعرفه أنت.

تلك الليلة مسه رذاذ من صدمة، لكنه لم يتوعدك، مضى إلى أخته (الرزينة) التي لم تكن صديقة له بالكامل ولا أشركها في عذابات النفس من قبل وكان في معظم أوقاته يعتبرها مشروع عورة في حاجة

إلى ستر سألها عن رأيها، فضحكت.. لا أعرف.. يا أدوم.. لا أعرف.
حتى أمه لم تسلم من السؤال، ومن مباغئات عديدة كان يتأنق فيها بثياب
يظنها تكفي لجعله أباً شيخاً في نظر عائلته. ولأن حي الرديم كان فقيراً
وبعيداً وأقصى أمانى سكانه هو الستر، فإن أحداً لم يفد.. لم يغذ الحلم
المتأجج الذي كان في حاجة إلى تغذية. كان الرجال يقولون ثرثرة بلا
معنى.. النساء يضحكن أو ينكفين خجلاً والصبيان أمثاله لا يعرفون إلا
متطلبات الصبا فقط.

كانوا يحتفلون بالعيد الثامن عشر لجلوس السلطان (رغد الرشيد)
على كرسي السلطنة خلفاً لأبيه (نفر المقدم) الذي نُحي قسراً عن كرسي
السلطنة قبل وفاته بعامين بعد أن داهمته أمراض (الهيضة) و(الهبوب)
و(أم صفوف) وحصار البول وأعاقَت تصاريِف حكمه، ومجالس
كوراكه، وخطفت من حنجرتِه الصوت الذي كان يهدد به سلاطين
(كردمال) عدوتهم التقليدية..

ازدانت (جوا جوا) بحمائم السلام البيضاء وأعلام (أنسابة)
الخضراء والوردية، وعناقيد الزهور المتفتحة بحرص من حقول خاصة
تابعة للحياة المترفة، ووجوه الصبايا اللاتي كن يحملن الفوانيس
الملونة ويضفرن شعرهن بالعقيق النادر.. وخرج السلطان إلى الشوارع
مرتدياً عمامة السلم الخضراء وراكباً فرسه (المهراجا) الذي أهدي
إليه من بلاد الهند في إحدى السنوات، تتقدمه أعضاء مجلس الجدات
بقيادة جدته السحابة، ومساعدتها المغنية (تمائم) شريف.. يدلن ماء
الورد المعطر، ويضربن بأصابع الشيخوخة على طبول الجلد الصفراء،
وكانت خطواتهن ملحنة بفعل عقود (السكسك) التي تحيط بسيقانهن
وأصواتهن المغنية رفيعة وحادة. كان عن يمينه الأب الشيخ (يوسف
كرا) وعن شماله الأمير مساعد، وفي الخلف كتبية (الظهوريِن) الشرسة
في امتصاص الخلل والشرسة في معالجته.. مروا على أحياء (جوا جوا)

كلها.. حيث كان جزارون مختصون ينحرون البهائم، وطهاة مختصون يطهونها.. وفقراء فرحون يلتهمون.. وكان عدد من الرسامين الكبار من داخل السلطنة وخارجها يتوزعون في نقاط مرور الموكب السلطاني كلها، حيث يرسمونه بدقة للتوثيق والذكرى..

ينادي المنادي الغليظ الصوت.. مولاي السلطان في حيكم، مولاي السلطان في حيكم.. فتنفرج البيوت أو تشرع، وترغد النساء أو تغني، وينبهر الصبية أو يصرخون.. ويزحف أطفال في المهد يتطلعون بأعين بريئة.. كانت (الرزينة نظر) بين فتيات الفوانيس الملونة وعناقيد العقيق اللائي يزين موكب السلطان.. انتقوها من بين ثلاثمائة وجه تم انتقاؤها لتزين الموكب.. وجاءت مندوبات من مجلس الجدات إلى حي الرديم لأخذها برغم اندهاشها واستغرابها وخوفها الكبير أن تسقط ميتة في أول مهرجان تشارك في إحيائه..

أهل الرديم.. أهل الرديم.. مولانا السلطان شرف حيكم..

خرجوا كلهم للفرجة.. خرج الفقراء والأفقر، والكبار والأكبر، والصغار والأصغر، وخرجت أرملة نظر حبايب، وابنه آدم، وجبروتي ولد الحور الذي لم يكن يهمه العيد السلطاني بقدر ما همته التفرس بجنون في كل فانوس ملون أو شريط متموج أو خطوة رشيقة بحثا عن وجه الرزينة، وحين وجده في النهاية لم يستطع الصمود.. بكى لأول مرة وكانت دموع من قصدير جريح تلك التي أقسم ألا يجففها أبداً، وكان عطره المرتقب في ذلك اليوم.. هو عطر المهرجان.. سيخترعه بلا انتظار وفي هذه الليلة بالذات.

انتهى ضجيج العاصمة في ساعة مبكرة من الليل.. عاد السلطان إلى اختفائه، والحماس إلى أعشاشه والفوانيس إلى أضوائها العادية.. عاد فقراء السلطنة إلى الجوع، وجداتها إلى ركود (الروماتيزم)، وطبول النحاس التي استخدمت أيضاً، إلى رفوف الانتظار.. لم يبق في السنة

سوى يومين آخرين مبهجين سينتظرهما الجميع بلا شك. يوم دحر (الكردمالين) ويوم (النعمة) الذي كان يوماً مفتوحاً للأكل والشرب والنعاس لا يعرف أحد من أين جاء. وكانت أيام أعياد الفطر والأضحى مفرحة للجميع، لكن يد السلطان لم تكن تشارك في ملئها.

عادت الرزينة إلى الداخل المخفي مبهجة، فطوال مشيها الملون في مهرجان السلطان كانت تحس بالشبع.. الشبع من تخيل وجهها الأجلل والشبع من نظرات الرجال المطاردة، والشبع من مجرد إحساسها منتفخة لمناسبة كذلك.. كان الفانوس قد أهدي إليها، وعقيق الشعر قد أهدي إليها أيضاً، ووعدها الجدة (السحابة) بإرسال واحدة من جواربها المحنكات إليها في حي (الرديم) وذلك لتنظيف جلدتها الذي بدا للجدة محتاجاً إلى تنظيف.. وفي انفراد طفيف أيضاً همست الجدة في أذنها.. ابقِ طاهرة على الدوام، فقد نحتاجك في أمور تقوم بها الطاهرات.. وحين جاءتها جارية التنظيف بعد ذلك حملت إليها وعداً من الجدة بإرسال (عامير) اليهودي صانع حريم القصر حتى يساهم في رقيها، لقد ألم الجدة بشدة أن ترى عنقاً راقياً بلا عقد، وحلمتي أذنين شفافتين بلا أقرط. كانت الرزينة مبهجة بالفعل، ونسيت لأول مرة أن تلف شعرها لفة النوم، وتبكي بكاءها المسائي المعتاد منذ رحيل والدها.

ذلك اليوم الاحتفالي كان حاسماً بشدة.. أطلق فيه السلطان سراح مائة بائع سمس وثلثين محارباً قديماً، وصيادين، وحفنة من موزعي مياه الآبار، كانوا قد اعتقلوا بتهمة التخابر لصالح سلطنة (كردمال)، تغاضى عن هفوات بعض الأمراء في شأن انتقادهم الشديد للحكم وتشكيل مجلس عائلي لتقويضه، وعفا عن زوجته (مسك النساء) التي تدمرت من انعقاد مجالس (الكوراك) في بيتها وكادت أن تفسد أحدها حين أرسلت بخوراً فاسداً.. وحين أمده كبير ممارسي الطب (دوباجي) بالمزيد من إكسير النشاط الفوار الذي يستخدمه كل ليلة، رفض بشدة..

قال اليوم أستطيع بلا إكسير. كان اليوم حاسماً لجنود الحدود وخاصة أولئك المرابطين في حدود (كردمال) حسموا أمرهم، وسمحوا لعائلة ضائعة بتخطي الحدود دون تدقيق في نسبها، وسمحوا لخمر العبيد المعتنق أن يعربد بعقولهم.. للمهاجر اليماني (عبد الرب) حين ابتكر دروساً جديدة سماها (مضاد الهبرات) وكانت نقضاً فورياً لكل درس (هبراتي) يتلقاه التلاميذ في مدرسته. كان حاسماً للرزينة نفسها حيث رددت.. أنا سلطنة.. أنا سلطنة.. ورقصت رقصة (الطموح) التي ابتكرتها.. ل (آدم نظر) حين امتص الأب الشيخ (يوسف كرا) أثناء مروره في الموكب البهيج واستعاده بعد ذلك استعدادات متتابعة، ليس (يوسف كرا) ولكن (آدم نظر) حبايب.. لأمه حين خلعت آخر ثوب كئيب من ثياب الحداد عن جلدها، واستبدلته بواحد أحمر من حرير القوافل الجديدة، ولجبروتي ولد الحُور الذي قرر حسم أمره بعيداً عن اكتئاب أولاد السلالة ولياليهم الطويلة.. الموت.. لا الخصي.. لا التنسك.. لا مجالس (الكوراك).. لا طلب يدها.. نعم.. طلب يدها.. نعم.. نعم.. نعم.. يخرج صوت القصدير من مكمته:

- هل تسمعي يا أدم.. هل تسمعي؟

انتزعه من لحظة السرحان الفذة التي كانت تصور الأب الشيخ (آدم نظر)، يهبط من حصانه الرمادي على أيدي العبيد الخوارق، ويخطو إلى قصر السلطان بحذاء جلد النمر المغاربي وسط الصراخ والهتاف.. كان متأنقاً بشدة، وتقوَّح من جلده القصديري رائحة عطر غامض خففت قليلاً من حموضة اللهاث.

- نعم.. أسمعك.

بصفتك رجل البيت..

- نعم بصفتي رجل البيت.

طبعا تعرف أن اسمي جبروتي إدريس جبروتي.. مواطن أنسابي عريق،

وتنجري من عائلتكم الموقرة كما تعلم.. أبي إدريس جبروتي كان مزارعاً قديماً لم يعرف غير الزراعة، ومات وهو يزرع، وأمي سرورة كانت وما تزال ربة منزل ماهرة.. أنا فنان عطري كما تعلم.. وشيال للتقيل إذا كنت لا تعلم.. وأريد الآن أن أتقدم إلى أختك الرزينة طالبا يدها.. فأنا أحبها.

ألقى بسيرته الذاتية وسيرة حبه في صرامة وتكبر وصوت فاخر كان يخرج من فمه المشحون راكضاً، أراد في تلك اللحظة أن يلغي فوارق الصبغة نهائياً، وأراد أن يبدو كأولاد البلد المؤهلين دون أي احتمال آخر.. كان يرتدي قميصه الرمادي المخطط، وسرواله الأبيض النظيف، وعمامة أهل العاصمة كثيرة الألوان.. وكان حذاء جلد الثعبان الفخم الذي يرتديه، هو في الواقع هدية من أحد عملائه، وأخفاه انتظاراً لذلك اليوم. كان يتمنى لو أمر رجل البيت امرأة، ويتمنى لو أطاعه رجل البيت دون جدال.. يتمنى لو أن الرزينة كانت هي التي تعشقه وتود أن تتزوجه، وأنه الذي سيرفض عشقها.. أو يقبله.

الرزينة أختي؟

رددها رجل البيت في استغراب كأن رزينات أخريات خطرن بباله في تلك اللحظة.. لم يكن يتوقع أبداً أن يصبح جبروتي عاشقاً في بيتهم، ولا توقع بعد أن نضج وتساقطت عن ذهنه الحكايات القديمة عن فتاة البادية والراعي، أن تحت هذا القصدير قلباً أو شهوة يمكن أن تستيقظ.. ولا يستطيع مهما اخشوشن أن يفتح باب منزله ويلقي به في الطريق، ولا كان يقدر على تخيل الرزينة مهرجان (جوا جوا) المتنوع، حرماً لواحد من تلك السلالة المرعبة.. لقد تغاضى هو (آدم نظر) عن حموضة اللهاث، وقصدير الجفون، وأشياء أخرى كانت ترافق ولد الحُور لأنه أحبه كذلك، وصادقه كذلك، ونضج تحت رعايته الغريبة، لكن الرزينة لن تغاضى.. ابق يا جبروتي.. لقد بقيت.. عطر النضارة..

لها.. للرزينة.. لعبة الاستقصاء العنيدة كل يوم.. إذن كان وراء ولد الحُور ما وراءه.. خطأ إلى قربة الماء المعلقة في الحائط، شربها كلها، وإلى عصيدة التمر المصنفة حلوى للضيوف، أكلها كلها، اختفى ساعتين داخل البيت وعاد ليواجه ولد الحُور:

أنا أوافق لكن لا بد أن تقبل الرزينة.

وهل ستقبل؟

لا أعتقد ذلك.

• اضغط عليها يا أدوم.. اضغط عليها من أجلي..

لا أستطيع.

أربعة أيام مضت بعد ذلك ثم خرجت (الرزينة) من الداخل المخفي لتواجه خطيب الهلع بغتة. كانت متأققة بثوب أزرق من حرير القوافل الجديدة الذي بدأ يستشري في (جوا جوا) بألوانه المتعددة، وملمسه الطري، وذلك الإحساس المرهف الذي يمنحه، شعرها مخنوق بالعقيق السلطاني، جلدها مشع ونظيف، ومن عنقها وأذنيها تتدلى سبائك من الذهب من نقش (عامير) اليهودي صائغ حريم القصر. لم تكن غاضبة أبداً، وبدت امرأة ناضجة، ربما أنضج كثيراً من عمرها العشريني..

- حسنا يا جبروتي هل تريد الزواج مني؟

نعم.

قالها بتلعثم ومسكنة في الجبال الصوتية، وإذلال لا يشبه تلك الغطرسة التي حاول أن يلغي بها فوارق الصبغة من قبل.. كان ممتحناً، وعلى وشك السقوط من شجرة ضخمة للهجليج.. تسلقها دون أي خيار.. أحس بعيني الرزينة وأحس بتنفسها واتكأ على ركيزة في منتصف الغرفة..

- إذن اعطني مهلة للتفكير.

- ومتى ترددين؟

- عندما انتهني من التفكير.

خرجت من الغرفة في اتجاه الداخل المخفي ساحبة نظرات على حواف الغيوبة كانت تخرج من عيني القصدير مرهقة.. كان آدم موجوداً، وأخبرته حركة في حواجب أخته كان يعرفها منذ الصغر، أن الرزينة قد قضت على صديقه.. طلبت مهلة للتفكير وكان يعرف أن تفكيرها ربما استغرق العمر كله.. لأنها ببساطة لن تفكر أبداً.. ستتزين بالعقيق والذهب دائماً، وستحمل الفوانيس الملونة في مناسبات (أنسابة) الوطنية، ستغني وترقص، وتتبادل الحكى والنكات في بيوت حي الرديم، وربما ذهبت لتقتني عطوراً مختلفة من أي متجر آخر غير متجر (يسر ولا تعسر)، أو ربما تزوجت في النهاية من لص أو ثعلب أو عتال في سوق الفخاريات، لكنها لن تفكر في أمر جبروتي ولد الحُور أبداً.. وضع يده على كتف صديقه، أخرجه من البيت في محاولة لنهب هواجسه، وفوجئ بأن الصديق ابتهج فجأة، ابتداءً يصفر بلحن ما.. كانت مهلة التفكير في رأيه خيطاً أبيض جديراً باتباعه حتى ولو طال.

-4-

أريد أن أصبح أباً شيخاً.. أرروك.. أريد أن أصبح أباً شيخاً.. أرروك...
أريد أن أصبح أباً شيخاً..

لم يكن هرجا في مجلس (الكوراك) السلطاني، ولا جاء من رعونة
مراهقة، أو طيش شبابي، أو تنفس بأكسجين ضحل. كانت مسافة واسعة
من التخلي عن كل حلم آخر والتزود من حلم الجليل المهاب على
فرسه الرمادية المخططة، وبين أيدي عبيده الخارقين، ثم بحذاء جلد
النمر المغاربي وتحت مظلة الدهشة والهتاف وفوحان المسك، يخطو
إلى القصر في تلك الجمعة البعيدة، وتلك الجمع المتعددة التي أعقبت
ذلك.. الجليل المهاب في موكب ذكرى الجلوس، والجليل المهاب
الذي يقيم في القلب.. المشهد الذي يلصق بكساء الذهن.. بجلد
الذهن.. بمصارينه، المشهد الذي أعيدت كتابته عشرات المرات ليخرج
من حي (الرديم) المرهق، إلى ذلك الشموخ البعيد.. الأب الشيخ (آدم
نظر).. أرروك.. أرروك...

كانت ثمة خطوات لا بد من مشيها، تذكارات لا بد من التقاطها،
وآلام لأضرار العقل لا بد من تذوقها.. ذلك النهار الصيفي اللزج،
بشمسه وحره، واحتمال غيبوته، سار عشرات الكيلومترات حتى وصل
إلى بيت قارئة الكف وضاربة الرمل (درة).. والتي كانت درة المنجمات
وقارئات الكف في (جوا جوا) وأعلاهن أجرا، هي التي كانت تقرأ كف
(حنفي الساحوري) تاجر القوافل الكبير، كلما وضع قرشا في صفقة أو
ألقي بفاولة محملة بالسلع في سوق (جوا جوا)، تقرأ كف (دوباجي) كبير
ممارس الطب في (أنسابة)، كلما لمح نظرة عتاب في عيني السلطان بعد

استخدام فاشل لإكسير النشاط الفوار، وكف (تمانم) المغنية الذي مدته
مئات المرات حتى وصلت إلى مجلس الجدات الفخم في استثناء لم
يحدث قبل ذلك في (أنسابة).. وكان يمكن أن تقرأ كف السلطان نفسه
لولا أنها خافت بطش ذلك الكف.

وجدها أمام بيتها النظيف في حي (خلوة) العالي المستوى قريباً
من بيوت أمراء (أنسابة)، وقادة جندها. كان وجهها عجوزاً لكنه مرتّب،
وجلدتها يابسا لكنه يلمع في الشمس، ومن عينيها يشع بريق الخطر
الرهيب. كانت ترتدي قميصا من الكستور الأبيض، وكانت تنتظره،
وأسمعته سيرته منذ أن ولد وحتى بدأ يحلم، وأمسكت بيده القوية التي
بدأ ينال منها الخوف:

ستكبر يا آدم.. تكبر بشدة، وسط خلق لهم عيون كثيرة، وأياد كثيرة
وأفراح وأتراح.. لكن.. آخ.. مال ظهرك قد انحني ولامس الأرض..
وشيء مبارك قد سقط منك.. وبصقت المرأة الكبيرة على وجهك..
آخ..

ثم صمتت.. جففت عرقاً مالحاً انساب غزيراً، بكم ثوبها، وامتدت
يدها إليه تسأل عن الأجر..

- زيديني يا درة؟ زيديني أرجوك..

صرخ الحالم.. قام وقعد، وأمسك برقبته، لكن الفارثة كانت قد
انتهت.. عيناها ثابتتان في عينيها، ويدها تمتد لم تراجع أبداً.

(رسول الأفغاني) كان منجماً آخر، قارئ فنجان وكف استوردته
قوافل السفر لا يدري أحد من أين، لكنها استوردته.. كان طويلاً، ويابساً،
وله عمامة ضخمة من دمور مخيف.. وكانت عيناه كأنهما عينا صقر
قال: أنا أفغاني من (تورا بورا)، ودق خيمة من قماش أسود كانت ترافقه
في أرض (جوا جوا) وفي تعطشها لاجتلاب المستقبل. كانت تنبؤاته
بشأن الحرب والمطر، وزواج الفتيات، والريح والخسارة، تلاك بغزارة

في نهارات (جوا جوا) ولياليها، ويقسم الكثيرون أنها صدقت بالفعل..
كانوا يصرخون..

تنبأ بغزو الجراد لمزرعتي وحدث بالفعل..
تنبأ بمرض أمي بحمى القصب ومرضت.
تنبأ بزواجي من تاجر، وتزوجت تاجراً.
تنبأ بحصول (كركب) على عقد الذهب الذي ترتديه.
ويهمسون:

تنبأ بطلاق السلطان من إحدى زوجاته.
تنبأ بالعجز الذي أصاب الحكيم دوياجي.
وفي اللحظة التي أوشك فيها السلطان (رغد الرشيد) على اصطفاائه
وضمه إلى عقد منجميه المخضرمين أمثال (التيجاني) و(وقّة) و(ولد
رقاق)، تنبأ بتحركات كردمالية مكثفة على الحدود، يستخدم فيها العدو
سلاحاً جديداً، ويموت فيها جنود (أنسابة) كلهم. لكن تلك التحركات
لم تحدث، ولا ظهرت آثار أسلحة جديدة على الحدود، وكانت
بالعكس من ذلك هدنة مفرحة بين العدوين، زار فيها الأب الشيخ
(الكردمالي)، (جوا جوا).. حاملاً رسالة تفاهم من سلطان كردمال،
وشاهده أبناء شعب (أنسابة) يضحك في موكبه الذي طاف بالعاصمة.
فألغى السلطان مرسوم تعيينه وهو موقع، واعتبره واحداً من صعاليك
السفر غير الجديرين بقراءة فناجين السلاطين. وجده (آدم نظر) جالساً
عند باب بيته، كان كبيراً وخامداً، قهوته مرة الطعم، وعيناه اللتان تقرأن..
كانتا ترتعشان بين حين وآخر:

أرى شاباً يكبر.. وامرأة تحب.. وشيئاً رائعاً يسقط.. شيئاً رائعاً يسقط..
ولكن ما لي أرى هذا الظهر ينحني..

لم تكن ثمة إضافة أخرى ولكن اليد الممتلئة بالعروق والرعدة،
تمتد سائلة عن الأجر. ومن (رسول الأفغاني) إلى (عائشة المصلاتية)..
63

إلى آخرين كانت مسافة الحلم تزدهر وموعد الصباح يقترب أكثر..
كان جبروتي ولد الحُور مقيماً في كل تلك الطقوس ومباركا لها،
ومرافقاً ل(آدم نظر) في كل تحركاته، ومخترعاً لعطور متعددة كلها
تطوير لعطر السطوة، تلك السطوة التي كان يحلم بها صهر المستقبل.
كان الآن مقيماً في جحر من جحور حي (الرديم) المسكين، ليس لصيقاً
بمنبع العطر كما كان سابقاً، ولكن قريباً جداً بحيث لا تخطئه لفته من
التفات (الرزينة) ولا رمشة من أهداب عينيها.. وكان مثيراً ب(مهلة
التفكير) بالكامل.. قميصه من خطوط مهلة التفكير، سرواله من نسج
مهلة التفكير، وحذاءه من جلد أملس من جلود مهلة التفكير، وكان حين
ينعس للنوم، ينعس بمهدئات مهلة التفكير، وحين يصحو في الصباح،
يهب بمنشطات نفس المهلة.. وفي واحدة من تلك الليالي الاكتئابية
الممتدة، أقام له أبناء السلالة حفلين متناقضين.. وذلك كبروفة لابد منها
لحين انتهاء مهلة التفكير كان الحفل الأول ضاحكاً.. رقص فيه أولاد
الحُور، وغنوا، وشربوا المرطبات وعرق (الهجليج)، وأدخلوا لأول
مرة إلى بيوت اكتئابهم، راقصة فقيرة، كانوا ينقطون لها بثمار الدوم
وهم يصيحون.. يا عريس مبروك.. يا عريس مبروك.. وكان الحفل
الثاني تافهاً للغاية. بكوا فيه بالدموع القصدية، تبادلوا التعازي، والبن
المر، وتبغ (الدردار) المقيى، وعلقوا جبروتي بحبل في سقف إحدى
الغرف في انتحار صوري انتهى بعد عدة دقائق. وتأكيداً لكل التوقعات
في حي الرديم وغيره، وبعيداً عن مهلة التفكير تلك، نشأ للرزينة
عالمها الداخلي الخاص.. وعُيِّت طاهرة من طاهرات (أنساب) اللاني
كن يقمن بوظائف متعددة كان أهمها إطفاء الحرائق الشيطانية التي لم
تكن تنطفئ إلا بمعانقة ثياب الطاهرات.. أيضاً كن يشتغلن في تدريس
بنات القصر الصغيرات منهجا هاما عن علم الجمال وعلم الغطرسية.
وكانت علاقتها ب(السحابة) جدة السلطان الآن مزدهرة.. تطلبها إلى

القصر بين حين وآخر، وتجدد نظافة جلدها أو تمدّها بنقشات اليهودي (عامير) الجديدة، وكان أن اهتزت بشدة حين أخبرتها (السحابة) في أحد الأيام، أن مهرجان الجلوس القادم للسلطان (رغد الرشيد) سيكون تحت إشرافها هي دون طاهرات (أنسابة) الأخريات.. هي القائدة.. هي المتأنقة جداً، وهي منظمة المسيرة. صرخت.. لماذا أنا؟، وعادت إلى بيتها لتغني، وتنشئ مساءً ملوناً وصاحباً، وغير ملتفت إلى مهلة التفكير الرهيبة التي يقيم بداخلها (جبروتي) ولد الحُور.

كان المهاجر (عبد الرب) في تلك الأثناء، قد سمع بأحلام تلميذه القديم (آدم نظر)، سمع بها من تلاميذ أمينين وفتانين كانوا ما يزالون يواظبون على دروس مدرسته ويمارسون الشم واللمس والتنصت في أوقات الفراغ. كان مقرباً سابقاً للسلطان، وسائراً سابقاً في عدد من دهاليز القصور المعتمة، وسامعاً حاد السمع للشائعات وغيرها، وشيخاً، ونحويّاً، والداً للصبيان مهما تشبّتا.. كان دخوله إلى حي (الرديم) في ذلك اليوم مفاجئاً، ووقوفه أمام تلميذه القديم.. مفاجئاً أيضاً وذلك الصوت الذي خرج منه، هو الصوت التربوي الذي كان لا بد أن يخرج. عند مهاجر كعبد الرب لم تكن ثمة مجالات للأحلام التي لن تتحقق، وما هاجر إلا عن دراية ولأنه قد يؤسس أجيالاً جديدة ينتفع الناس بعلمها:

- عد إلى المدرسة يا (آدم نظر).. واقلع عن هذا العبط.
- ليس عبطاً يا شيخ.
- بل عبط.. هل تظن أنك ستصبح أباً شيخاً لمجرد أن (يوسف كرا) أعجبك؟ المسألة أكبر من ذلك بكثير أيها الصبي.

- إذن في المرة القادمة.. احلم بالسلطان رغد نفسه.. واحلم ب(لاليا البرناوي) ولا بأس أن تحلم بالسلطانة (مسك النساء) أيضاً.

قالها المهاجر وانصرف متوعداً، تاركاً تلميذه في لحظة العناد المسرفة.. أنا الأب الشيخ القادم.. الأب الشيخ (آدم نظر).. لن يلغي حلمه أحد حتى لو كان مهاجراً صبوراً محامياً أخلاقه ذات يوم، وحين يركب تلك الفرس الرمادية، يهبط على أيدي العبيد الخارقين، ويخطو إلى مجلس (الكوراك) بحذاء جلد النمر المغاري، سيعرف المهاجر وتعرف (أنسابه) كلها أن (آدم نظر) حباب لم يكن يحلم، ولكن كان يرصف مستقبله بجهد.

ذلك المساء ذهب إلى (جبروتي) في جحره.. وجده مستيقظاً يتعلم شيئاً من التدبير المنزلي وذلك لإحساسه بقرب انتهاء (مهلة التفكير) التي وضعته فيها الرزينة، وإنه قد يجد نفسه يوماً فجأة أمام زوجة دلوعة وكسولة تطلب منه كوباً من الشاي، أو غسيل الأطباق أو حتى أن يضفر لها شعرها. استقبل صديقه في فتور، وكاد أن يسأله عن أخبار مهلة التفكير، لكن الصديق كان في عالمه.. تعيشاً معاً، واكتأباً معاً.. وانصرف (آدم نظر) تاركاً الصديق الذي عاد إلى تضييق حباله المعلقة على الحائط وخنقها بالخرز.

تجمع لدى الحالم أكثر من عشرين تقريراً من قراء كف وفنجان وضاربي رمل وودع، تحدث أغلبها عن الظهر المحني حتى الأرض، والمرأة التي تبصق وتهرس، والشاب الذي يكبر ويكبر.. لم يقل أحد شيئاً عن الفرس الرمادية، أو الجبة الخضراء والعمامة الضبابية، وقال (نقسنا الفلاشي) الذي كان ينحدر في الأصل من يهود الحبشة، وعرف بتفاهة التنبؤات وأنه ما قرأ نبوءة صحيحة في حياته إلا مرة واحدة، حين نظر إلى إحدى القوافل التي كانت تستعد للسفر إلى الحجاز وقال.. هذه القافلة ستتهو.. قال الفلاشي وهو يرتعش.. حظك رائع.. رائع جداً يا صبي.. ولم تكن تلك (الرائع) مفصلة أو ذات معنى محدد.. ولكن سيمضي.. رائع أم محني الظهر أم مبصوقاً على وجهه.. لن يتراجع:

أريد أن أصبح أباً شيخاً.. أرروك.. أريد أن أصبح أباً شيخاً.. مولاي
السلطان، نصّبني أباً شيخاً.. أرروك.

كانت الجمعة الكبيرة في (أنسابه) أو (جمعة القدر) كما كانوا
يلقبونها منذ أن عرفت، والتي كانت تأتي مرة واحدة في العام بحسابات
لا يعرفها أحد، ولكن يخمنها المنجمون وتشمها الأنوف.. ويتجمع
الناس بناء على ذلك التخمين والشم، والذي كان يصدق حيناً، ويخيب
في معظم الأحيان. كانت جمعة الظليلة، يمتد مجلس (كوراكها) من بعد
العصر حتى منتصف الليل، يحضرها الوجهاء كلهم، وملوك الأرياف
كلهم، وقادة الجيوش كلهم، ويبدو مزاج السلطان فيها رائقاً بحيث
يمكن أن تمر الحاجات إلى أذنه، وتجاب دون تعقيد، وكانت كثير من
الكماليات تعرض في تلك الجمعة بعد التأكد من أنها الظليلة أو (جمعة
القدر) وذلك كطلب بيت أو منصب أو حقل مزروع أو التوسط لخطبة
فتاة متمرده وقيل أنها الجمعة التي أهديت فيها لحلحلوك المجنون
تلك الجارية الضامرة، والجمعة التي صيرت (صبابي) كبيراً للتجار في
(أنسابه)، والجمعة التي رسم زحامها اليوناني (برداس) في لوحة رهيبة
لم تحدث من قبل، وعلفت في أرقى متاحف العالم.. ذلك حين مر
بالبلاد في سنة من السنوات.

لم يكن (آدم نظر) يعرف أنها الجمعة الظليلة حين وصل برفقة
جبروتي إلى تجمع الصائحين.. كان الزحام فذاً، والكتوف تتصارع،
وأشجار (الهجليج) ضيقة الظل، وأزيار الفخار الموزعة في المكان،
والتي لا ينضب ماؤها أبداً، الآن ناضبة.. وحلحلوك المجنون واقفاً
وقفته القديمة ونافخا لجنونه القديم ومتحدثا عن تسعة عذراوات من
بنات (أنسابه) العريقات، يتصارعن على قلبه ويمزقن ثيابهن، لكن أحداً
لا يستمع. وكانت ثمة قائمة كبيرة صفراء تتدلى من يد الحاجب وتحوى
أسماء الصائحين لذلك اليوم والذين لا يعرف عددهم أحد. أسرع (آدم

نظر) بتسجيل اسمه في تلك اللائحة الصفراء، وعاد إلى الظل مستغرباً
ليسأل جبروتي..

ما هذا الزحام كله؟

إنها الجمعة الكبيرة كما أظن.. قال جبروتي.

من قال ذلك.

الجميع.. إنهم يشمون ذلك.

ابتسم الحالم بأسنان الشباب البيضاء الخالية من جير العمر،
ومضاعفات تبغ (الدردار) المقيئ.. الحظ يبدو معه.. يسنده، وما دامت
الجمعة الكبيرة فلن يخرج منها بلا شيء.

كانت مفاجأة ل(آدم نظر) وصاحبه حين لمحا شخصاً يعرفانه..
يزحف باتجاه نقطة الغليان، إنه الجد (سند حسيب) أحد أعمدة التنجر،
والذي كان موجوداً في عزاء صانع الطبول عريساً مفترضاً لأمه، وعاد
إلى بلاده غاضباً.. نعم لقد كان الجد سند.. بنفس هيكله القديم، وظهره
المقوس باتجاهات عدة، وعمامة السلطان (نفر المقدم) التي تغطي
رأسه.. اقتربا منه بحذر وسمعاه يردد.. لن أعود إلى بيتي دون عمامة
جديدة.

وصل الجليل المهاب في موعده الذي توقعته لهفة الحالم تماماً،
فرسه هذه المرة قصر بلون البن، جبته حمراء مزركشة بأخضر لامع،
عمامته سوداء ليست من حرير القوافل المتداول، ولكن من حرير
آخر لم يشاهده (آدم نظر) من قبل.. هبط هبوط الرشاقة على أيدي
العبيد الخارقين، ومشى مشية النمر المغاربي إلى داخل القصر. وقف
المتصايحون كلهم، وهتف الهتافون كلهم، وزغردت النساء كلهن،
وصرخ الحاجب بالصوت المنبعث من أقصى غياهب الحلق، وكاد
(آدم نظر) أن يهرس يد ولد الحُور الذي كان يرافق أحلامه. وبرغم ذلك
الزحام، وتلك السرعة الكبيرة التي كان يتحرك بها الجليل المهاب إلا أن

(آدم نظر) استطاع أن يلتقط له الرسم العاشر ويضيفه إلى تلك الرسوم المختزنة في ذهنه والتي التقطها من تروده على مجالس (الكوراك).. ذلك الوجه الأملس بلا شارب، العيون الكبيرة الصافية كأنها سماوات.. الأنف الملوكي المنتصب، الحواجب المستديرة، ورائحة مسك السلاطين التي نَزَّت من جلده وهو يعبر.. يقولون إن (يوسف كرا) من أصل فقير، ولد في حي شبيه بالرديم ونشأ نشأة أشبه بنشأة سكانه، لكنه اختفى عن الفقر أعواماً طويلة، لا يعرف أحد أين انقضت وكيف، وظهر في سماء السلطنة جليلاً مهاباً، وأباً شيخاً، ووزيراً كبيراً للسلطان (رغد الرشيد) يستشير في كل شيء. وفي تتبعه لسيرته الذي حاول أن يجعله تتبعاً هامساً بقدر المستطاع، سمع الحالم بأن قدوته بلا امرأة، ولا عيال، وسمع أشياء أخرى أراد لها ألا تستقر في ذهنه أبداً.. لن يطفئوا حلمه بنزيف السخافات، ولن يهبطوا بإعجابه للجليل المهاب أبداً.. تحسس عمامته شبه الضبابية التي اقتناها بعد غربة مضنية لسوق (جوا جوا).. ومهبط القوافل الجديدة.. إنها البداية.. إنها البداية.

السلطان في مجلسه ويتلقى الصباح.

كان أول الصائحين واحد من أهل (كردمال) العدو، وكان قد تسرب إلى (أنسابة) فرارا في إحدى الليالي. لم يكن ملكاً، ولا زعيماً، ولا واحداً من قادة الجيش الكردمالي، ولكن ناقلاً عادياً للبريد قال أن مشكلته ابتدأت حين عينه أحد أمراء (كردمال) ناقلاً خاصاً لبريد الحب الذي يخصه.. وكانت جولات مجنونة في أحاسيس الغيد والعدراوات لجمع الرسائل التي كانت تزيد الأمير جوعاً. وتفتح مصارين اشتهاه أكثر.. كان الكردمالي ببساطة يطلب حق اللجوء إلى (أنسابة). مشى صياحه في السلسلة السباعية كالمعتاد، وعاد رداً فخماً مرصعاً بالجواهر، فقد أمر السلطان (رغد) بإيوائه، وتزويجه ومنحه وسام (السلوان) الرفيع المستوى، وتعيينه ناقلاً للبريد السلطاني الخاص.

صرخ (حلحلوك) المجنون:

أريد جارية داكنة السواد بلا حلمتي ثدي، وبيتاً من أربعمائة
حجرة ليس في الأرض، وعربة من فضة تجرها خيول سوداء وخضراء
ورمادية.

وسقط صياحه الشيخ عند ذيل السلسلة لم يتعدّه.

وجاء (شونة المنقاري) الذي كان ملكاً لمنطقة (أم كراميس)
البعيدة، وأقيل من منصبه حديثاً وذلك لتغاضيه عن ثلاثة من صيادي
منطقته، اقتنصوا ثعلباً برياً سموه (رغد) وطافوا به في الطرق مربوطاً
بحبل وهم يتصارخون.. كان المنقاري متشنجاً، وجاء يحمل أدلة قاطعة
بأن الثعلب الذي اصطيد كان اسمه (رغت) لكن الوشاة هم الذين
حرفوه.. ووصلوا بذلك التحريف إلى أذني السلطان.

وكان الرد السلطاني.. عشرين جلدة إضافية للمنقاري، لأن (رغت)
الرشيدة بنت نفر المقدم كانت أختاً مخبأة للسلطان لم يعلن عنها إلا
في ذلك اليوم.

أيضاً جاء (نقولا) النصراني الذي كان تاجراً للأخشاب في سوق
الفخاريات، وواحداً من عشرة نصارى ظلوا باقين في (جوا جوا)، بعد
تلك الهجرات المكثفة التي قام بها أبناء جنسهم، فراراً من شائعة سرت
وتضخمت، وكانت تقول إن جماعة من السلفيين ذوي اللحي والأثواب
القصيرة، يستعدون لتنظيف البلاد، والقضاء على أي نصراني يعيش فيها.
فروا بلا زاد ولا رؤوس أموال، وهرب نقولا عائلته إلى صعيد مصر.
لكن الشائعة انطفأت وضحك مطلقوها.. وكان النصراني مكتئباً:

- مولاي السلطان.. اقضوا على الشائعات.. مولاي السلطان خسرت
تجارتنا.. عائلتنا لن تعود.. اقضوا على الشائعات.. أرروك..
أرروك.

خرجت (تمائم) المغنية.. خرجت لتصيح صياحها المنغم، معززة

مكاتها كمساعدة للسحابة جدة السلطان في مجلس الجدات.. لم تكن هي نفسها تمائم القديمة، ولا المستحدثة، ولكن (تمائم) أخرى بزي آخر، وصوت آخر، ومديح غلبت عليه صوفية الجدة في آخر العمر:

السلطان خير برّه.

سيد الحب والمسرة.

في موكب زيناته مرة.

خلى التوهان استقره.

السلطان يا وليدي.

ولد أولادي وحفيدي.

بالأقراط حلّى جيدي.

وبغويشات زين إيدي.

وكانت هديتها غوايش ليست لتزيين اليدين فقط، ولكن لتزيين المفاصل كلها.

انحدرت الشمس إلى مغيب صاخب.. بدأ الإرهاق والتعب، وبدأ تصلب المفاصل، لكن قائمة الصائحين لم تقلص، كانت تزداد طولاً، وأنوف الشم تأتي بالكثيرين الذين أرادوا عطايا القدر في (جمعة القدر).. لم يكن من المستبعد أن يسقط أحد أو يموت أحد، أو تلعب شياطين البذاءة في جسد أحد..

آدم نظر حباب.. ابن المرحوم راعي الأغنام نظر حباب.. آدم نظر حباب ابن المرحوم راعي الأغنام نظر حباب.

ابن المرحوم صانع الطبول يا إبراهيم.. ابن المرحوم صانع الطبول يا إبراهيم..

كان الحاجب ما زال جاراً لأسرة صانع الطبول.. شارك في دفن نظر حباب، وفي عزائه وأكل عصائد الدخن والحميض التي صنعت في

ذلك العزاء، ووصف طبلا من طبوله كان يصدر أزيزا حين يلمس، بأنه معجزة، وحين أعاد آدم افتتاح محل والده، جاءه الحاجب عدة مرات، كان يفكر في إنشاء فرقة للاحتفالات، وبرك يتفحص الطبول كلها.. ابن المرحوم راعي الأغنام.. لا يهم.. والعبيط.. لا يهم.. وصديق ولد الحُور، والحالم.. لا يهم.. استلم مكانه أمام ذيل السلسلة، تفقد الذيل برهة من رأسه إلى رجله، وجده صبيّاً لم يتعد الرابعة عشرة من عمره، نحيفاً وفي وجهه جرح، وخمن أنه لابد ابن أخت تافه للسلطان جاء به إلى ذلك المنصب الرفيع..

أريد أن أصبح أباً شيخاً.. أرروك.

كانوا يصيحون في شتى متاريس الحياة، قالوا عن بيوتهم، عن بيوت جيرانهم، وعن شهواتهم، وطالبوا بتغيير زعيم أو محاسبة ملك، سألوا عن الحج.. عن الطواف.. سألوا عن العمرة، عن الكساء والخبز والنظرة العطوفة، وقدموا عذراوات كالمصاييح هدايا لولاتهم السلاطين.. مدحوا ومدحوا، وتشنجوا وتشنجوا، لكن أحداً لم يصح مطالباً بمنصب الأب الشيخ أبداً.. لا في عهد (رغد الرشيد) ولا نفر المقدم، ولا حتى في عهد (يوسف ضو) مؤسس سلطنة (أنساب).. لم يكونوا يعرفون حتى كيف يشغل ذلك المنصب، ولا فكر أحد في لحظات الانبهار التي تواكب هبوط الجليل المهاب عن فرسه على أيدي العبيد الخارقين، أن يمتص أو يحلم أو يستعيد أو يستشير منجماً وقارئاً للكف. ترك الجميع حلوقهم متورمة، وحاجاتهم راكدة في القلوب، وتزاحموا حول الصبي ابن الثامنة عشرة الذي قد يكون ميئاً قبل أن يقوم السلطان من مجلسه. كان جبروتي ولد الحُور، وبرغم مرافقته للصبي الحالم ودعّمه حتى لحظة مخاض الحلق، إلا أنه تفاجأ كالآخرين.. بحث عن مهلة التفكير التي أضاعها تشته، وحين عثر عليها.. امتص منها عدة جرعات أعادته للتماسك. لم تكن خمس دقائق معتدلات، ولا عشر أقرب إلى الاعتدال

ولا حتى عشرين دقيقة مكسوة بالقلق، ولكن ساعة كاملة في واحد من أهم التوترات التي أصابت أهل (أنسابه) طوال تاريخهم الطويل.. سُمع صوت طبل نحاسي يضرب، صوت نسوة ناثحات، صوت حرب وخيول، وصوت باب من خشب الزان يفتح ويغلق.. سقطت عمامة، وانخلع شارب، وتفرقت رزمة من عناقيد الخرز كأن جبروتي بكى، وكأن ذيل السلسلة دلق على نفسه، وكأن ستة من زملاء مدرسة (عبد الرب) القدامى قدموا تعزية ما لشخص ما.. ثم ذيل السلسلة يصرخ.

يرفع مجلس (الكوراك) لهذه الجمعة.. أمر مولانا السلطان.. يرفع مجلس (الكوراك) لهذه الجمعة.. الجميع ينصرفون.. الجميع ينصرفون.

تفرقوا ببطء وبلا مروءة، وتحسر الذين شموا الجمعة الكبيرة وجاءوا على هدى حواس شمهم، على حظهم البذيء حين أعاقهم ابن صانع للطبول أراد كرسي الوزارة.. لم تكن ضغينة كبيرة تلك التي أضرموها لآدم نظر، ولا حتى ضغينة صغيرة، فقط تحسر وتحسر على بذاءة حظ.. وجد الحالم مئآت منهم يسألونه.. مئآت يتحسسون رأسه، ومئآت يسألون جبروتي عن وصف بيت صديقه حتى إذا أرادوا تقديم واجب ما.. عرفوه. سار برفقة ولد الحُور وقد أحس بالنشوة تمسك بمزاجه، حتى لو طاشت الرمية، وخضع حلمه المعجون للنسف وهو ما سيحدث، فإن الناس في (أنسابه)، لن ينسوا أبداً ولداً لصانع طبول فقير رفع مجلس (الكوراك) السلطاني قبل مواعده. وصلا إلى البيت حيث كانت الرزينة مزينة، وأمها قلقة، وأهل الجوار الذين كانوا هناك، والذين لم يكونوا، كلهم في فزع ينتظرون. نظر إليهم الحالم بتكبر، خاطبهم بتكبر واستغرب من كل ذلك الفرع الذي كانوا يرسمونه.. لقد صاح وانتهى.. ولم تكن ثمة ثمار قد قطفت.. لا خير ولا شر.

أسبوع مضى، عقدت جمعة ((الكوراك)) في روتينها.. أظل هجليج

الشوارع كما كان دائماً يظل، سقت أزيار الفخار كما كانت تسقي دائماً، جاء الناس بالحلوق المتفتحة، جاءوا من (جوا جوا) وغير (جوا جوا)، جاء (حلحلوك) المجنون، وجاءت صياحاته الشيخة، وهبط الجليل المهاب عن فرسه الرمادي على أيدي عبيده الخارقين، وجاء (آدم نظر) وجبروتي أيضاً، كانت نشوة الحالم ما تزال متقدة، ورعشة الصديق ما تزال متقدة أيضاً، وكان ثمة همس، وحسد، وعيون كثيرة تتبع الحالم في وقفة النشوة تلك.. السلطان في مجلسه.. السلطان يتلقى الصباح.. فلان بن فلان.. فلانة بنت فلان.. أريد مولاي.. أريد مولاي.. زوجي مولاي.. ملك القبيلة ظلمني.. يرفع المجلس.. ينصرف الجميع.

وفي عصر السبت تماماً.. وحين اختتمت القيلولة، وانزوى الحر، وبدا أهل الطريق في طريقهم، وأهل البيوت في بيوتهم، والأطفال في تخبط طفولتهم، وصلت كتيبة (الرعاع) القوية، والمكلفة بمهام سلطانية جلييلة إلى (حي الرديم).. كانوا على خيول، وعلى نوق وكانوا مشاة، كانوا يصرخون، وكانوا يهمسون، وكانوا موغلين في الصمت، كانوا شرهين للعداوة، وكانوا أصدقاء بلا ضغينة. وكان على رأسهم الأمير (مساعد).. مؤسسههم، ومروضهم. دخلوا حي (الرديم) المسكين دون أن ينهروا أحداً أو يقهروا أحداً، أو حتى أن يرفعوا عينا إلى وجه أحد. مروا بأبواب كثيرة، ونوافذ كثيرة، ومروا بباب صانع الطبول دون أن يطرقوه، أو يقتلعوا مصراعه، ودون أن يسألوا (جبروتي) القريب من منبع عطره، والمدثر بمهلة التفكير، والذي هب من جحره فزعا على أصوات خيلهم ونوقهم وحناجرهم.. وحين تجرأ واحد من فقراء الحي، واقترب من الأمير مساعد سائلا عن سبب ذلك التشريف، وعارضا خدماته إذا لزم الأمر، رماه الأمير بنظرة الصقور المهووسة التي اشتهر بها، ولكز على بطن دابته التي لم تكن حصانا ولا ناقة ولا حمرا، ولكن واحداً من أفراد ذات الكتيبة.. خرجوا مسؤرين بالشك، ومطرزين بالنظرات، وتارकिन

علامات استفهام الدنيا كلها وعلامات تعجب الدنيا كلها، تراكض في
حي الرديم.. تدخل هنا وتخرج من هناك..
لو أرادوا (آدم نظر) لأخذه..
لو أرادوا ولد الحُور لأخذه..
لو كانوا خاطبين للرزينة لخطبوها..
لو كانوا معزين في (نظر حبايب) بعد ثلاث سنوات من موته،
لعزوا..

لو أرادوا مفتوقاً أو أعور أو أطرش أو صاحب لسان ركيك
لبعثة الحج السلطانية، لعثروا على المئات.. لو كانوا كذا لكذا.. وكان
في الحي خصي اسمه (نَجّام) سكن حديثاً وقبل أشهر معدودة.. كان
من قبيلة (البيقو) عديمة الجدوى، وعمل في ما مضى خادماً في قصر
(المسك)، ثم طاهيا لحساء الطيور الجارحة عند الأمير مساعد في
مستنقع الرعاع. إلا أن الأمير أبعده فجأة ولسبب غير معروف.. قال
(نَجّام) وهو يرفع ثوبه إلى مستوى سرته، ويلقي برقبته إلى اليسار في
تلك الحركة (الخصيانية) المعروفة ساعة الانفعال.. - - مولاي الأمير
يحب حساء الطيور الجارحة الذي كنت أعده له.. لعله جاء لاستعادتي
للخدمة بعد أن شعر بالفرق.

وكانت (النسيم) المرأة العجوز، وأم الرديم كما كانوا يلقبونها، هي
التي رمت بالحكمة.. لا من أفواه المجانين ولكن من فم أشد حكمة..
رسمت بعكازها على الأرض دوائر ومربعات وخطوط متعرجة، وقالت..
إنهم يريدون ولد صانع الطبول الذي أفسد مجلس السلطان في جمعته
الظليلة.. لكنهم أوقدوا له النار.. ولا بد سيأخذونه حين ينضج.

وعلى مدى شهر كامل كانت كتية الرعاع نصلاً جارحاً لقيولة
(حي الرديم)، حتى أصبحت جزءاً من لحمه وعروق دمه.. أصبح
أفرادها كأنهم أبناء الحي أنفسهم، خيولها ونوقها وحميرها، كأنها نشأت

في الحي ورعت في قمامته، وثمر (اللалوب) الذي يمصه أفرادها كأنه من شجر الحي العتيق، والأمير مساعد.. كأنه (عيسى الزهوي) بائع مرطبات (القضيم) أو (دريسة) العتال في سوق (جوا جوا).. وفي اليوم الحادي والثلاثين طرّقوا على باب (أم الرديم) وسلموا عليها.. أخذوا شاة من الطريق وذبحوها، وضربوا بعصي (الخيزران) حلاقاً للحمير لم يسمع حتى بالأب الشيخ من قبل.. وفي اليوم التالي مباشرة، وفي لحظة انتهاك القيلولة الروتيني.. وقبل أن يشتد الصياح أو الصمت، وقبل أن يمشي المشاة، وتحفر الحوافر، وتتناثر نظرات الصقور المهووسة، خرج (آدم نظر) من مخبئه.. كان ناضجاً بشدة وسلمهم يديه.

تجمعت دلائل الحسرة كلها في حي الرديم في ذلك اليوم، لم يستطع جبروتي ولد الحُور أن ينسى، أنهم سرقوا من أمامه صهراً مستقبلياً، وجسداً هاماً لتذوق عطور (السطوة) التي لا بد سيتوقف إنتاجها منذ تلك اللحظة.. لم ينس الخصي (نَجّام) أنه لن يعود ثانية لطبخ حساء الصقور الجارحة لأمر يتمنى خصيان السلطنة كلهم أن يطبخوا حساءه، وفي غرف الدلال الفقيرة المبتكرة بإحساس سلطانات فقيرات، لم ترفع مقامهن حتى أشرطة العقيق، وأقراط ذهب اليهودي عامير، بكت (الرزينة).. بكت بنفس دموع المساء القديمة التي أعقت وفاة والدها.. كانت قد سمعت عن كتيبة الرعاع كثيراً.. عن بيوتها التعيسة، وتغذبتها المرّة، وأخلاق مجنديها التي لا تشبه الأخلاق، شاهدت معاقين كانوا من صنعها، ورجالاً خصتهم الشدة في كهوفها الغامضة، ورأت الأمير (مساعد) مراراً، لكن نظرات الصقور المهووسة لم تمسها أبداً.. ولا حتى حامت حول وجهها السحري.. نظرات غير مغرمة بالجمال.. ولا تقدرة.. نظرات من حنظل.. كان موقعها في قلب (السحابة) جدة السلطان، الآن موقعاً سلساً.. موقعها في كوكبة الطاهرات المطلوبات في أعمال جليلة، سلساً أيضاً، وموقعها في القصور ذات الحكايات

والغوامض، لم يرسخ بعد، ولم تكن تعتقد أبداً أن أحداً سيمد عطفه إليها، لا السحابة، ولا المطر، ولا أية مفردات أخرى، ولا حتى السلطان نفسه، لو استطاعت أن تقف بين يديه.. كانت كتيبة الرعاع غليانا آخر لا يطفئه أحد.. الحل الأخير للعقد المتشابكة، وأقراص نوم السلطان التي ينام بفعلها حين لا ينعم.

في الشوارع الملتوية، وترية المطر، وتلال القمامة التي يغص بها الحي الفقير، كانت ثمة دلائل أخرى، هي الصمت.. هي الركود، هي انشغال الكبار بالقبيلة، وانشغال الصغار بتوافه الصغر وانصراف النسوة لتضفير شعر مضفر. والدة آدم حنطوها في تصور مخترع، نابع من الحلم نفسه.. قالوا.. ثمة أب شيخ سيخرج من حيناً، ومن بيتك أنت بالذات.. والآن يتم إعداده في مكان بعيد. ضحكتم.. ربما.. زغردت.. ربما.. بكتم.. بالتأكيد، لأن غياب الأبناء في المهام المفرحة.. هو ذاته غيابهم في المهام المفجعة.. غياب قد يطول، وقد لا ينتهي.

(أم الرديم) المرأة التي عاشت في عهد وعهد، وربما تعيش في عهد جديد، وشهدت أجزاء كبرى من سلطنة (أنسابة) غابات حنظل و(هجليج) ورأت كثيراً من أمرائها في ريالات أشداقهم، وسراويل نومهم، وربما مبلولين.. نهضت إلى مياه نقية، غسلت يديها من سلام أحست به سلام خناجر، ووجهها من مطالعة أحست بها مطالعة ذئاب.. صلت كثيراً واستغفرت كثيراً، واضطرت إلى استقبال مئات من أبناء حيه، محت في أيديهم آثار ذلك السلام.. قالوا لجبروتي ولد الحُور.. أنت أضعت صاحبك بشدة.. حين اخترعت له عطر السطوة أيام كان بلا حلق يصيح، وبلا سطوة حتى على دجاجة، وقالوا للمهاجر (عبد الرب) الذي جاء بناء على طلب من إحساسه الداخلي تجاه تلميذ تلمذ على يديه مرة: أنت لم تقيد يا شيخ، ولم تضربه بالعصا كما كان يفعل شيوخ العلم.

وحين لموا الليل شديد السواد، ناموا به أو سهروا على أرقه، كان

الجميع على يقين بأن صانع الطبول.. ابن صانع الطبول.. لن يظهر في
حي الرديم مرة ثانية..

لا يدري أحد كيف سمعت قبيلة التنجر في أصقاعها البعيدة بتلك
المسألة التي لم يمض على حدوثها الكثير.. فلا رسالة أرسلت، ولا
ريفني متجول في العاصمة سافر، ولا كانت لجبروتي صلة بالريف منذ
عشق، والتصق بمنابع عطره في (مهلة التفكير) تلك، لدرجة أن رائحة
أمه التي جاء بها وكان يستنشقها من حين لآخر منعاً للعقوق أن يتسرب
إلى قلبه، كانت قد تبخرت ولم يسع أبداً إلى تجديدها.. وصلت من
هناك رسالة مواساة أولى، ورسالة مواساة ثانية، وثالثة وخامسة وأربعين،
ووجدت الرزينة نفسها تغطس في مئات من المشاعر.. والدموع،
وعبارات الفداء بالدم.. ويا ليتني كنت، ولو أستطيع، وما بعد الشدة إلا
الفرج.. وتماسكي تماسكي.. كانت تصدق بعضها وتشم في البعض
روائح خادعة.. تحملها إلى (جبروتي) سائلة عن مرسلها.. وسيرهم..
وهوية مشاعرهم كان ولد الحُور يجيئها بتأن، ووقت أطول ويكاد
يتجاوز السياق العام للهلح المحيط بالأسرة، ويسأل عن أخبار مهلة
التفكير التي كان يعيش بداخلها. وفي أغلب الليالي التي تلت بعد ذلك
وبالرغم من نعاساتها القليلة جداً، استطاعت (الرزينة) أن تلتقي بوالدها
صانع الطبول الراحل، التقت به مرة في حج ومرة في عمرة، ومرة وسط
شقراوات فانات في مشفى كبير وبعيد، كن يخرجن من بطنه إبليساً
أسود، وغواش تشبه غواش اليهودي عامير، واستطاعت أن تسأله ذلك
السؤال الذي تبادر إلى ذهنها لأول مرة وهي طفلة لم تعد العاشرة..
لماذا كان اسمي الرزينة ولم يكن ست الحسن؟ ولماذا آدم اسمه آدم،
وليس حمار الوحش؟

-5-

تلك الجمعة حين صب رأس السلسلة صياحات الصبي (آدم نظر) في أذن السلطان (رغد الرشيد)، وبحضور جماعته وأقربائه من أعضاء مجلس (الكوراك)، توقع الحاضرون أن تنفتح شفتا (رغد الرشيد) أولاً، تلمع أسنانه البيضاء جنباً إلى جنب مع تلك المؤطرة بالذهب، ثم تخرج قهقهة الإحراج تلك التي خرجت مراراً في مجالس سابقة كان بعض صائحيها سذجاً وعبطاً وطالبوا بمطبات وحاجات لا يمكن لأي سلطان تليتها. إعادة الرجولة لشيخ يحتضر، زراعة غرة الصلاة في جبهة فاجرة، وتحويل ثور عديم الجدوى إلى بقرة حلوبة، تسري قهقهة الإحراج تلك عبر سلسلة المقربين السباعية، لتجرح أذني الصبي المتصايح، وتجرح شماتة الحاضرين، وينتهي الأمر. لكن ذلك لم يحدث أبداً.. لا شفة مفتوحة ولا ذهب في الأسنان يلمع، ولا إحراج.. استمع السلطان للصياح الغريب بتأن وخبرة، وإحساس عال من يقظة حاكم، يكاد أن يعرف عدد السيوف التي تستل في السر لجز عنقه، وعدد الرماح المجهزة لنفخ صدره، وعدد القناني المعبأة سماً لاصطياد أمعائه إضافة إلى تلك الذبائح، والسكتات الدماغية التي قد تقضي عليه واقفاً.. هو عادل.. ربما.. هو ظالم.. ربما.. لكنه في النهاية حاكم الجميع الذي لا يرضى بحكمه الجميع. انحنى إلى الأمام نافخاً شيئاً من حر.. وماسحاً قليلاً من عرق، وطلب المزيد من إكسير ضبط النفس الذي كان الحكيم (دوباجي) يحتفظ به كضرورة في مجلس (الكوراك).. وعندما أحس بأن عمامته الضبابية قد ارتخت قليلاً، أعاد بنائها على رأسه.. ردد:

- اقرأ علينا لائحة (الكوراك) يا مساعد.. اقرأ..

لم يهضم الأمير، ولا هضم الحاضرون بمن فيهم الجليل المهاب (يوسف كرا)، سر تلك الهلوسة، وذلك التوتر، واحتقان الجفنين الذي لمحوه مؤطرا في سلوك سلطانهم، وسحته.. تمردوا على جلسة الاسترخاء قليلاً، وكاد بعضهم أن ينطق أو يضع تمباكا على شفته.. وارتبك الأمير مساعد:

أي بند يا مولاي؟

ذلك المختص بحماية السلطان وكبار رجال دولته.

حسناً.. حسناً..

كان بندا طويلاً وعريضاً، وصارم التقاطيع، لم يولد هكذا في عهد السلطان (يوسف ضو) مؤسس سلطنة (أنسابه) ومبتدع مجلس (كوراكاها) لكن سنوات عجافا، وأياما متمردة ومحملة بالخطر، قد قوت من شكيمة وأوصلته إلى عهد السلطان رغد، بهذه التقاطيع.. كان يحرم بذاة الألسنة، والتشبه بالكبار، واتخاذ الألقاب الرئاسية بتخبط ودون حذر، والصباح في المجالس السلطانية بثياب مرقعة.. وحمل السيوف والخناجر إضافة إلى أشياء أخرى متجهمة لا سبيل لإضحاكها. حتى الجلوس تحت ظل (الهجليج) كانت له نظمه، والشرب من أزار الفخار كانت له نظمه، ومخلفات الدواب المرافقة كانت ترفع في نفس اليوم بعد انصراف الصائحين، وكان ثمة استثناء وحيد أضيف في عهد (نفر المقدم).. كان خاصاً بتصرفات (حلحلوك) المجنون ومن هم على شاكلته ما لم يأتوا إلى المجلس عرايا. لم يكن ثمة بند صريح يمنع الوهم، أو يدين متصايحا طالب بوظيفة الأب الشيخ دون أن يحمل سلاحاً..

رعونة مراهق.. رعونة مراهق.. لا تكدر نفسك يا مولاي..

تحدث الأب الشيخ لأول مرة، كان صوته كرنفالياً وناعماً، ويخرج من كيانه المهيب كسريان ماء.. لم يكن صوت الهيبة المتوقع أبداً..

وكان كأنه صوت آخر استوردته الهيئة حتى لا يخافها الآخرون.. صياح
ولد غبي.. ولد غبي.. لا تفسد جمعتك الظليلة يا مولاي..

الآن سريان الماء المنحدر من قمة الهيئة عند السلطان رغد، لكنه
لا يشرب.. لا يشرب..

- لا لا ليته كان كذلك..

إذن ما الأمر؟

يتقطع لهاث الماء عند الرشيد.. لكنه لا يشرب..
بذاءة الألسنة.. نعم.. بذاءة الألسنة.. أن تطالب بشوب أهلك.. هذا
حقك.. أن تطالب بشعر جدتك الأسيب.. هذا حقك.. أن تمدحنا
أو تناقشنا بالقصائد.. هذا حقك.. أن تكون مجنوناً كحلحلوك..
هذا قدرك.. أن تطالب بغرة للصلاة.. أو رجولة ضائعة.. هذا عبط
سيضحكننا.. أن تطالب بمنصب رجلنا الكبير.. أو حتى قطعة من
قماش عمامته هذه بذاءة.. بذاءة الألسنة.. نعم.

كانت أطروحة السلطان واضحة وشديدة التوهج، فلو قهقهه ردّاً على
صياح ابن صانع طبول فقير في الجمعة الظليلة التي كان نصف سكان
سلطنته يحضرها ونصفهم الآخر يتطلع إلى حضورها، لما وجد في فمه
ضحك يضحك به بعد ذلك على آلاف من الصياحات في مجلسه أو
في شوارع (جوا جوا)، ربما تنادي بإزاحته عن كرسي السلطنة وتنصيب
حمار مكانه.. ظالم.. ربما.. عادل.. ربما.. مبذر ربما.. متزوج من أربع،
وعاشق لأضعافهن.. نعم.. لكن كان ثمة عشرات من المدن، ومئات من
القرى، وحدود وملايين البشر.. وسلطان وحيد.. بذاءة الألسنة.. بذاءة
الألسنة.. وهو كذلك..

هل تفهم يا مساعد؟ هل تفهم كيف يقوم اللسان البذيء؟

نعم يا مولاي.. عندي في الكتيبة.

دارت عينا الصقر المهووس في قاعة المجلس كلها.. تجاوزت عن

أخطاء في الزينة، وألوان في الصبغ، وبعض الشعيرات الضالة التي تخرج من بين فتحات العمام، حطت على رسومات الخيل ذات الحوافر، والسيوف ذات النصال، والخناجر المستقيمة والملتوية، وتباطأت قليلاً على وجه جارية فاتنة كانت من رسم الفرنسي (جيني جيان).. أبدعها منذ ثمانية عشر عاماً بناء على طلب السلطان (نفر المقدم) فقد كانت جاريته المفضلة.. عندي.. في كتيبي..

كان الجليل المهاب قد تزعزع، ألهمته أطروحة السلطان ذات الألوان الداكنة بتذكارات قديمة أيام كان مشتتا في ريف (أنسابة) يدفن حلماً ويقتلع آخر، ويحمل في قلبه يقيناً ملعوناً بأن جفته ذات الرقع الكثيرة، ستخضر في يوم من الأيام.. وجهها لوجه أمام صبي يصيح.. ظهراً لوجه أمام امرأة كانت توده في يوم من الأيام.. ووجهها لظهر طارده مراراً واستحلفه أن يسرق منه شيئاً عزيزاً.. أخرج مسبحة الكهرمان (الأغادييري) التي ما كان يستخدمها إلا حين يشتد حر النفس ويظهر ذلك الخفقان العنيد.. ولم تظهر في لوحات الصبي الحالم التي التقطها للأب الشيخ واستعادها مئات المرات، لأنها لم تشارك أبداً في طقس الدخول المهيب وسط أولئك الخوارق. بذاءة الألسنة.. وقود الأحلام الفاسدة، نواة الصياحات لخطوب أشد وطأة.. هكذا إذن.. انتبه على صوت (رغد الرشيد) منهكاً لكنه واقف على ذات حباله القوية:

- اتبعوا إحساسكم يا مساعد.. اتبعوه.. لا أريد صائحين ينامون وأنا مستيقظ.. ولا أريد مستيقظين يحفرون قبري وأنا نائم.

لم يأت السلطان على ذكر صانع طبول قديم، كان مفتوقاً، وحالماً، ومات من حسرة كبيرة، عُدلت بعدها قوانين الحج حتى كادت أن ترسل باليهود والصليبيين إلى ذلك المؤتمر الجليل.. لم يأت على ذكر ولد حور عاشق ربما لعب دوراً هاماً في تعكير المزاج، ولا تذكر تلك الرزينة حاملة الفانوس الملون في موكبه، والتي سحرت عاصمته كلها..

اكتفى ببذر بذرة حرق الدم في ذلك المساء الملعون أباًؤه.. واستند على
وسادته واضعاً يده اليسرى ذات الخاتميين الفضيين على رأسه..
اتبعوا إحساسكم.. اتبعوه..

كانت تباريح (كردمال) تكفي، وتذمرات قبائل الجبال تكفي..
وأنصار والده الذي رحل منذ ثمانية عشر سنة مازالوا يرتدون ثياباً سوداء
لم يغيروها.. والباب الذي تأتي منه الرياح.. اغلقه واستريح.. كانت هذه
طريقة (رغد الرشيد).. ليست الأبواب المشرعة فقط هي التي تدخل
الرياح، ولكن حتى المواردية منها وأحياناً كانت الرياح تأتي حتى من
شقوق الأبواب المغلقة.

- وبقيّة ساعات الجمعة الظليلة يا مولاي؟

كان صوت الهية الرقراق يسأل..

ارفعوها حالا لا أريد أن أقضي في صياحات الناس وأنا سخيّف..
اعدوا مائدتنا.. وتسامروا.. ولا بأس من جلب (جديلة) المغنية..
صوتها قد يعيد التوازن.. أريد التوازن.. أريده بشدة.. سأخرج من هنا
إلى مسك النساء.. أريد أن ألتقيها سلطاناً.. لا رجل بيت.

نفذت مشيئة السلطان على الفور.. ورصت على ذلك البساط
الملون بألوان الطيف كلها، مائدة الجمعة المميزة بلحومها وشحومها،
وطيورها وحساءاتها، وعسل نحلها الذي يجلب من الجبال.. إضافة
إلى قوالب الحلوى العديدة والرائقة المذاق، وحين جاءت (جديلة)
المغنية.. عزفت على (مندلين) السحر وغنت أغنيها (سلام إلى رغد)،
بدا أن شيئاً قد مضى وأن شيئاً قد رجع، وأن السلطان ما عاد في حاجة
إلى (أكاسير) دوباجي ليهدأ أو ينشط أو يؤدي واجباته الحياتية.. أتموا
الجمعة الظليلة حتى قعرها، ولحسوا قليلاً من حساء السبت الذي تلى..
ولولا ثقل في الأجفان واهتزاز في الرؤوس، لكان السبت كله منحوراً
على مائدتهم.. كان الجليل المهاب مبعثراً قليلاً.. (صباي) التاجر، خبيراً

ونافر العينين، وهو يتفحص وجه المغنية ويقيم عقدها اللماع، وأقراط أذنيها التي اندلقت على العنق، لاليا البرناوي، مفتي ديار (أنساب)، تصدر المائدة عند الأكل، لكنه تأخر إلى أقصى ركن حين ابتدأ الغناء، ومصمم الأزياء الكردي (كردم كردمان) بدا وكأنه استوحى زياً جديداً، والعم أحمد برم كان صامتاً إلى أقصى حد. وكان ملوك الأرياف، وشيوخ القبائل قد صرفوا باكراً، وقبل أن تتغير سحنة السلطان بالكامل.. لم يكونوا من الخاصة ليعرفوا بالدواخل، ولا كانوا شديدي العمومية ليحرموا من الجلوس السلطاني.. اتبعوا إحساسكم.. اتبعوه..

لم يكن خطبا جللا بمقاييس الخطوب التي تعرفها السلطنة.. أن يصرخ صبي في جمعة حتى لو مس صراخه شخصية جلييلة.. ليس كتحرشات (الكردمالين) ولا كتذمرات رجال الجبال.. أو تهريب نبات (البانجو) المخدر إلى مزاج (أنساب).. لتنظم من أجله طواير الصباح، وتزاد وجبات الغذاء الروتينية، ويمنح جنود شارات كانوا يتمنونها.. وتسبب السيوف والخناجر في مسن عملاق كان مغروسا في أحد مقار كتيبة (الرعاع) القوية..

هل يحتاج الأمر إلى كل ذلك مولاي الأمير؟

نعم.. نحن نتبع إحساسنا.. ليس من أجل صباح فقير.. ولكن من أجل سلام (أنساب).. من أجل وحدتها.. من أجل رفاهية شعبها..

كل تلك الأحصنة.. كل تلك التوق.. كل أولئك المشاة الذين لو مشوا إلى حصن لدكوه ولو مشوا على صخر لتأرجح؟ نتبع إحساسنا.. حين أسس (مساعد) كتيبته، وتولى إدارة الأمن في السلطنة، لم يخرج لسان إلا انقطع، وما ارتفع حاجب إلا هوى.. ولا صرخت مظلومة في مجلس (الكوراك) وا رغداه.. وا رغداه.. إلا كان عند مساعد الرد.. منذ عامين قضوا على تمرد مفترض كاد يفترضه بعض متقاعدي الجند حين دقوا النحاس ولبسوا دروع الحرب وتنزهوا في شوارع (جوا جوا)..

ومنذ عام أخرجوا عدداً مهولاً من سحرة قبائل (اليقو) من جحورهم وجلدوهم، لمجرد الشك أنهم قد يطبخون شاة يسمونها (رغت) وكانت العظمة كلها في اعتقالهم لعباد الله المعاقين والمفتوقين والعمي والطرشان وحاملي ميكروب ركافة اللسان، وحشوهم في تلك القوافل الفخمة حتى حجوا واستغفروا وتنسكوا وعادوا إلى (أنسابه) ذلك العود الحميد..

- مولاي الأمير نحن على أبواب حي الريم من الجهة الشرقية، أمامنا أكوام للزبالة، وترع من الماء ونساء يتنزهن.. هل ندخل الآن؟ ادخلوا..

هل نمص ثمار اللالوب كما تعودنا أن نمصها في كل حملة؟
نعم مصوها..

- مولاي الأمير.. هل نقبض على أحد من سكان الحي؟ هل نلقى تهمة؟
لا

ولد الحُور صديق الصبي (آدم نظر) ورفيقه في مشاويره يقترب منا..
هل نمسك به؟ هل نسأله عن شيء؟
لا

مولاي الأمير هل نهب محل؟.. هل نأخذ بروش السعف تلك؟ هل نطرق على باب؟ هل نقتلع نافذة؟
لا

هل نعزي في صانع الطبول الذي مات منذ عدة أعوام؟
لا

طباخك القديم.. الخصي (نجّام)، يسكن هنا في واحد من تلك البيوت.. هل تريده لصنع حساء الطيور الجارحة المفضل لديكم؟

لا

- ولد الحُور داخل مهلة للتفكير وضعته فيها الرزينة، والرزينة لاهية في أمور أخرى لا علاقة لها بولد الحُور.. هل نعقد قران أحد على أحد؟

لا نتبع إحساسنا..

وظل ذلك الإحساس الغريب يتبع لثلاثين يوماً كاملة في قيلولات حي الرديم وصبره المذهول.. تردد الكتيبة ويردد الأمير نفعل؟ لا نفعل.. لا إلى أن توقف الإحساس المتبوع يوماً ونشر الأمير صوته الجارح..

اضربوا واحداً من سكان الحي.. أي واحد.. انحروا شاة.. ادخلوا على أم الرديم وسلموا.. لا تؤذوا عينيها الكليلتين.. ولا تغضبوها.. مولاي.. خرج (آدم نظر).. ماذا نفعل؟
- اعطوه قيده.. لقد جاء ليربطه بنفسه.

-6-

حين ولد الأمير (مساعدة) في بيت والده (رغد الرشيد) الذي كان نائباً في سلطنة أبيه في ذلك الوقت، ومتزوجاً لثلاث من النساء النظيفات بينهن والدة الأمير، و(مسك النساء)، وعاشقاً لعدد آخر لا يقل نظافة، لاحظ الكثيرون ممن شهدوا انبعاث سرته، وطول حلمتي أذنيه، وذلك النمش الأبيض في لسانه، وعصارة بطنه التي كانت خضراء داكنة، واستغرقت يوماً كاملاً لتجف، أن الأمير رغد آنذاك، أمسك بالمولود من رأسه، ثم من بطنه ورجليه، خبط على ظهره مراراً، وأداره في الهواء عدة دورات واحتضنه.. سماه مساعداً على الفور، ربما لأنه تذكر أحداً وربما لا أذن في أذنه بنفسه، حرم على المنجمين أن يقرءوه، ولصق علي جبهته ديناراً من ذهب.. وأقسم على جدته (السحابة) أن تحرض جدات مجلسها على الحضور للثمة، وإدراجه في طقس احتفالي خاص، بالرغم من أن ذلك لم يكن من اختصاص مجلس الجدات، وقال وهو يقوم إلى مهام السلطنة التي بدأ يغازلها في ذلك الوقت ويسحبها رويداً رويداً من تحت والده:

- هو ذا رجل أمتكم إن شاء الله.. فاحفظوه.

لم يكن مضطراً لقول ذلك لحفنة من خاصة القصر وخصيانه وجواريه، شهدوا ميلاد ولد قد يكبر وقد لا يكبر، وقد يحكم وقد لا يحكم، وقد يموت من سل أو طاعون أو نزلة معوية، وقد يموت شيخاً على فراشه.. ولم يكن مضطراً لأن مساعداً الصغير، ومساعداً الصبي ومساعداً الرجل بعد ذلك، استطاع أن يحافظ على أسنانه فلم تسقط لنية ولا دائمة، واستطاع أن يحافظ على قلبه فلم يسقط في شرك العشق

أبدأ، وعلى شعيرات شاربه السوداء، فلم تبيض أو تحمر.. وكان حافظاً لمئات الأحاييل، وأناشيد مجد (أنسابة)، ومتقدماً على غيره من الأمراء وأبناء ملوك الأرياف، أنه لم يرضع من ثدي جارية، ولم يسقط عن فرس، وما مارس عادة السر إلا حين أراد أن يعرف مدى إيلاها للحواس، ولم تؤلم حواسه.. كان موشوماً في يده، ومجروحاً من عراكه الذاتي لذاته، وصبوراً، وقليل الأحاديث وتكلف مشاق الانضباط غير المعهود في الكبار حين انضبط.. وتكبد مشاق القبح وتوعك السيرة، حين تقابح، ووعك سيرته ولكن من أجل (أنسابة) و(أنسابة) فقط.. لم يكن الأمير (مساعداً) أخطبوطاً عادياً يمكن تقطيع أذرعه، ولا شجرة هجليج تمنح الظل لله في الله.. ولا الخور الضحل الذي يخوضه كل من هب ودب.. ولا المطر ولا أية أنفلونزا عابرة تصيب بالقيء لأيام وتبعد.. ومثلما قال (رغد الرشيد) جهراً.. هذا رجل أمنكم.. قالت الناس سراً.. هذا رجل بلائكم.. ومثلما قال كبير ممارسي الطب (دوباجي) حين ولد.. ما أشد وسامته.. قالت الناس ما أشنع وجهه.. ومثلما أصدر (لاليا البرناوي) فتوى تبيح أكل الطيور الجارحة.. أصدر الناس فتواهم في تحريم تهجين فرس بحمار لم تكن نظرات الصقور المهووسة عادة واكتسبها، لكنها ولدت فيه، ولعلها الدليل الذي استوحاه والده حين ردد.. هذا رجل أمنكم.. فحافظوا عليه.. كانوا يختلطون في الأعراس ومناسبات الوطن.. فحافظ مساعد على عدة أمتار بعيدة.. يتنافسون في مسابقات الجري، فيجري مسابقاً رجليه.. هو.. وكان معلموه الذين عينهم والده بعد اختبارات وتكنيكات قاسية قد أخفقوا في تعليمه الحفظ، والخط والتفاخر، وشؤون البروتوكول السلطاني، ونجح هو في الشم واللمس، وتبع الإحساس.. تتبعه في طائر مغرد، وحمامة جريجة، وحمار ينهق، وأسنان تضحك، ومخزن لروث البهائم.. تتبعه في عسر هضم وتبعه في فهم خاص للرجس اخترعه هو وبهضمه هو.. في سن الثالثة عشرة وفي

حفل كبير أقيم بتلك المناسبة، منحه أبوه الذي كان قد تسلطن بالفعل، جبة السلطان (يوسف ضو) مؤسس (أنسابه) ذات التواشيح والأوسمة، تقديراً لجهوده في ضبط عدد من الحراس في حدود (كردمال)، متلبسين بالخوف والرعدة، في سن الخامسة عشرة أوفده إلى جنوب مصر ممثلاً لجلالته في اجتماع غير عادي لرؤساء الدول الفقيرة، وفي سن الثامنة عشرة ناداه إلى قصر (رملة) الذي كان بعيداً، وخالياً، ويمتاز بمعماره الرجولي، وحيطانه الخرساء بالكامل، لا تسمع ولا تتحدث..

كم عدد خونتي وخونتك في رأيك يا مساعد؟
لا أدري يا مولاي.

عد شعر رأسك.. عد ذرات الرمل في حذائك.. عد قطرات الطيب في أجساد الجواري.. وان استطعت أن تعد المسافة من هنا إلى مخدع (هاشم درب) سلطان كردمال.. عدها.. هل تفهم يا مساعد؟
أفهم يا مولاي.

إذن اتبع إحساسك.. اتبعه يا مساعد.

قالها السلطان وانصرف هادئاً، وسمعها الأمير وبقي هادئاً، ذلك الهدوء الذي بدأ يضحج رويداً رويداً.. بميلاد كتيبة الرعاع.

لم تكن كتيبة الرعاع فصيلاً عادياً لحفظ الأمن من نوع تلك الفصائل المتعارف عليها في الدول، كانت بناء معقداً ابتكره الأمير متتبعا لذلك الإحساس.. وفي قصر (رملة) الأخرس ذاته جاء بطاولة كبيرة من خشب أملس لا يعرف أحد من أين جاء به، رسم عليها، وبحس فني رفيع، سلطنة (أنسابه) كلها كما يتصورها، رسم قصورها وحدائقها، وطرقها وبؤر فقرها، ومطابخ خيرها وشرها، ووساوس مواطنيها، وحتى قبور موتاه.. كأنتمشنجاً وهو يرسم.. وهو يعيد.. وهو يمحو.. وتوصل إلى مشروعه الكبير.. أمن القصور في ردع بؤر الفقر.. وردع بؤر الفقر في ابتكار عقار من جنسه.. وفي عدة أعوام فقط خرجت من ذلك الرسم

الخشبي تلك الكتيبة التي لم تكن مجرد جنود، ومقرات وبيوت ترهيب فقط، ولكن روائح يمكن شمها، وكائنات يمكن لمسها، وهواء يمكن استنشاقه، تعيش في كل شبر.. تظهر من أي منحني.. وتخرج من دم أي جرح.. كلها راع.. قابلين للطبي والفرد.. ومد الخد الأيسر وكلها ثمار مرة يأكلها الأمير باستمتاع.. أخذت كثيراً من سلطة الجيش، وأكلت سلطة الخيالة والمعممين التي كانت مسؤولة عن الأمن فيما مضى بالكامل.. وكانت في داخلها فصائل عديدة بمهام مختلفة.. منها فصيل الركوب الذي كان مكوناً من أشداء من مختلف القبائل، يركب على ظهورهم الأمير في تنقلاته في (جوا جوا) أو خارجها، وفصيل (الأشد حماقة) المكلفين بالكي والخصي وتعليق البائسين من أرجلهم، وفصيل (تلك النظرات) الذين ما كانت تفوتهم حتى نظرة العطف التي تعطفها أم على ابنها.. وقد وفر الأمير ومن مورد خاص في السلطنة ابتكره أيضاً وسماه (ضرائب النخوة) وتجبى في أي وقت ودون أي أياضاً وحتى من متسول على باب الله، تغذية جبارة لتلك الكتيبة.. كانت مكونة من اللحم بأنواعه، ومن الدخن أيضاً.. كان يقول.. اللحم للبناء عندنا.. والدخن للهدم عند أعداء السلطنة..

وصل (آدم نظر) إلى واحد من مقر كتيبة الرعاع في العاصمة (جوا جوا).. كان مقيداً بحديد صدئ، وكان متألماً وكان خائفاً، وكانت فكرته عن (الأبوة الشيخة) الآن، نفس فكرته عن الجرب والطاعون.. ومرض (الهبوب) الذي يترز الآدمية.. أدخلوه إلى أحد الأكواخ الصغيرة المنتشرة في المكان، والتي كان فيها أفراد آخرون.. نظروا إليه لبرهة ثم تفرقت نظراتهم، وعلى الفور استلمه مختصون في شتى فروع صياغة الرعاع.. وبدأوا تفصيله وخياطته.. ليتم ارتدائه فيما بعد في تلك المهام الجليلة.. لكي تكون مريحاً، وخالياً من التواءات، ولا تسبب الدمامل أو الشد العضلي حين يمتطي مولانا الأمير ظهرك، يجب أن نبنيك من جديد..

نبنيك أولاً كحمار، وثانياً كفرس، وفي النهاية نبنيك ناقة..

كان مستغرباً بشدة، وما تخيل كيفية البناء تلك، وكيف يحول
ظهر إنس مهما أذله الزمن، لن يحمله أكثر من كيس ذرة أو دخن في
سوق المحاصيل، إلى ظهر دابة.. تملكته رعشة جارقة، وبدأ في عد
الخسارة التي كلفه إياها الجليل المهاب.. حين امتصه واستعاده،
وامتصه واستعاده وتخله يخرج من حي (الرديم) ليس (يوسف كرا)،
ولكن (آدم نظر).. الآن بعيد عن ذلك الحلم مسافة تكفي لدفن الحلم
نفسه، بعيد عن جبروتي ولد الحُور.. ويشتهي حموضة لهائه وحكاياته
عن شماس متجول اسمه (عبود) وفتاة بادية خارقة الجمال، وراع للأغنام
اسمه (الدليل كرشو) يتعارك بالعصا ويفسد كل شيء، وليته مات عند
نقطة تجمع القوافل أمام بيت مال (أنسابة) كما فعل والده صانع الطبول
حين عذبه الفتاق الإبليسي.. الفرق واضح بلا شك.. والده حلم بالحج
والطواف، وهو حلم بالدنيا والمخازي، ولو مات ما أظن أحداً من قبيلة
التنجر البعيدة سيأتي ضمن وفد في عزائه.. كان خائفاً جداً.. ومرتبكاً جداً
وقال لمتخصصي فن الرعاع وهم متوغلون في فحصه.. أعيدوني إلى
مجلس مولاي (رغد الرشيد) سأصبح مطالباً بغرة للصلاة، وسيضحك
السلطان وتضحك السلسلة السباعية، وأنصرف مطرقاً، وينتهي الأمر
لكن أحداً لم يتسم، وأحداً لم يضحك، وأحداً لم يغير حتى من مسار
نظراته التي كانت تركز على ظهره بشدة.. نبنيك حماراً.. نبنيك فرساً..
نبنيك ناقة لحمل الوزر.. فكر للحظة في أخته (الرزينة)، كانت مهرجان
(جوا جوا) سلطنة بمقاييس نفسها.. مكحلة بكحل فقرها، ولم تسع
لاحتلال قلب كبير في قصر كبير بالرغم من تردها على تلك القصور..
وحملها للفوانيس الملونة.. يعرف علاقتها بالدهاليز، ويشق في قدرتها
على إخراجه من ذلك الحب.. الرزينة لن تبكي وتسكت، لكنها ستبكي
وتسعى.. تبكي وتسعى.. وأمه، كيف استقبلت نبأ اصطياده؟.. لا بد نبت

في وجهها أخدود، ولا بد ستسعى هي أيضاً إلى ردم ذلك الأخدود.
ابتسم.. وكانت ابتسامة مخبول يخوض ناراً.. جاء الأمير مساعد إلى
كوخه الصغير بغتة.. لم يمسه بنظرات الصقور المهووسة أبداً، سلم
على عدد من زملائه في الكوخ سلام صديق لأصدقاء، وقال لأحدهم..
اقرأ طالعي يا زين.. وحين قال له.. طالعك في السماء كما هو لم يتغير
مولاي الأمير انصرف.. وكانت فرصة لآدم نظر لتخيل وجهه تحت
اللثام.. لا بد أنه وجه عاق وغزير البهاق.. كلنا أنسابيون.. وما يمسننا
عقوق في حق (أنسابه).. كانت فرصة لتأمل ظهره ومشيته.. هذا ظهر
أسد، وتلك مشية ذئب في وسط قطيع من النعاج.

كان من ضمن زملاء (آدم نظر) في ذلك الكوخ الصغير، صبي
جامد التقاطيع قدم نفسه بأنه الفرس المفضل للأمير.. قال أنا كنت
أحمله حين كنا ندخل (حي الرديم) في كل قيلولة.. وحين ضبطنا سحرة
(البيقو) المشبوهين وحين أغرنا على المطلوبين للحج، وأرسلناهم في
القوافل.. وحين علقنا الجنود المتقاعدين من أرجلهم نهار تمردهم. كان
اسمه (شبرق).. وكان من قبيلة (الشباريق) التي تقيم بعيداً في الجبال
بعيدة عن مناخات (جوا جوا)، لا تدخلها إلا للضرورة أو الصياح في
مجالس (الكوراك).. لم يزر (جوا جوا) أبداً إلا حين صنف رعاعياً..
وكان الأمير قد اقتنصه أثناء زيارة لقريتهم كان يبحث فيها عن رعاع..
شاهده في لعبة جر الحبل الخبيثة يجزر القرية كلها والقرية تنجر، صفق له
بغزارة، وقال: هذا حصاني الذي كنت أبحث عنه منذ سنوات.. ولم يكن
في حاجة إلى إضافة لكي تقوم كتييته بالمهمة.. حمل (شبرق) الأمير في
أسفار عدة، وغارات عدة، وكان يتلقى باستمرار علاجا مكثفا من دمايل
الظهر التي كانت من نتاج رياح البطن التي تتكدس في شبع الأمير.
أنا كنت مبنيا من الأساس كفرس.. ولم يبنوني كحمار أبداً..

- وناق؟

لن أكون ناقة أبداً.

- وهل تعجبك هذه الوظيفة؟ فرس الأمير المفضلة؟

همس المرتعش في أذن زميله، وكان قبلها قد تلفت حتى أيقن أن مختصي فن الرعاع قد انصرفوا تماماً..

لا تعجبني إذا كنت أملك الخيار.. أما الآن فكما ترى. كلنا بلا خيارات.. أنا كنت أحلم بالبقاء مزارعاً وجاراً للجبل في المناسبات.. وأنت حلمت بمنصب نائب السلطان، وغيرنا هنا كثيرون كانوا يحلمون ربما بأكل لقمة من حميض.. كلنا بلا خيارات.. اسكت.

قال شبرق وبرك على قوائمه الأربعة، وعلى الفور لاحظ المرتعش أن ظهره واسع جداً، وأن في عنقه سوادا يشبه سواد الخيول الأصيلة.

وفي ركن منزو من نفس الكوخ الصغير الذي حشر فيه (آدم نظر)، كان يوجد شاب ثلاثيني واسع الفم، وأحمر الشفتين، في عينيه نعاس ما، وفي صدره بروز وقح، ومن عنقه تتدلى قلادة رقيقة تنتهي بقطعة من سن الفيل. لم يكن يبدو حماراً، ولا فرساً ولا ناقة، ولا أعطى نعاس عينيه فرصة لضمه إلى فصيل (تلك النظرات).. وجاء إلى عند المرتعش ماشياً مشية غزال. عانق (آدم نظر) بفجاجة، وابتسامة، ورشه بعطر نفاذ أدار رأسه.. وحين عاد إلى ركنه كانت ضفירתان من شعر أسود ناعم تتلاعبان على ظهره.

- هذه هي المرحلة الأخيرة أبي الشيخ..

نطق الفرس (شبرق) من بين الحوافر.. كان لسانه مزرقاً، رأسه ممتلئ ببقع داكنة، وعينه كأنهما لا تبصران.

المرحلة الأخيرة أبي الشيخ.. حمار.. فرس.. ناقة.. غوامض

أخرى.. ثم هذا الفتى.. ما اسمه؟

- اسمه قلب الأسد..

رددت الحوافر.

رنت ضحكة العطر، والصفائر من ركنها المتزوي.

قلب الأسد.. قلوب.. اسمان واسعان وفارهان لرجل وضده،
هذان اللذان يسكنان ذلك المعطر، والمضفر وناعس العينين.. ترى
كيف صار ذلك كذلك؟ وأي مهام جليلة يمكن إنجازها بضدين قلب
الأسد وقلوب؟ مؤكد ليسا للحرب.. ليسا لمداهمة ساحر أو خائن..
ولا حمل السلاح في حملة تستهدف المفتوقين والعمي والطرشان
المطلوبين للسفر.. هما للنواح على الموتى المهمين.. للضحك في
مجالس المسرة، وربما لحراسة نساء متمرعات يخشى عليهن من حراس
هم قلوب للأسود ولكن بلا ضد.. مؤكد ذلك.. غغم (آدم نظر)..
مؤكد.. الآن جاء درس (الهبرات) القديم والذي لم يستوعبه في حينه
ولا استوعبه تلميذ آخر في مدرسة المهاجر (عبد الرب)، راكضاً.. كان
الأمير (الهبراتي) متفخاً جداً في ذلك اليوم، وكان يشرح فقرة أسماها
(التبرع بالملك)، وكانت عن كيفية الاستغناء عن متعتك الخاصة لتحرس
متع الآخرين.. أعطى نماذج من التاريخ القديم، ونماذج من تراث
(أنسابة)، واصطحب معه في يوم الدرس أخوين شقيقين، كانا خصيين،
رجلين وضدهما، فيهما رجولة وفيهما أنوثة.. فيهما نظرات أسد
وضحكات عذراء.. قال.. هذان يحرسان متعتي في البيت فحيوهما..
فضجت قاعة الدرس بالتصفيق.. حمل (آدم نظر) ما التقطه من ذلك
الدرس إلى حي الرديم.. مرره على الكثيرين ممن يعرفهم، ولم يجد
تضحية هنا أو هناك.. وحين شاهد (نجّام) مواطن قبيلة (البيقو) الذي
انتقل إلى الحي مؤخراً، وكان يتحدث عن حساء للطيور الجارحة،
وألّبسه فقرة الدرس.. وجدها تطابقه تماماً.

مرحلتك الأخيرة أبي الشيخ، ولكن ماذا بعدها؟.. هل هو كرسي
الجليل المهاب فوق الفرس المخطط.. وسط العبيد الخوارق وبخذاء

النمر المغاربي كما يقول الحلم؟ هل كوة في باب تتمرد خلفه امرأة..
أم صانع لحساء الطيور الجارحة كما كان (نَجَام)؟ وقلب الأسد..
قلوب الضفائر.. الضد وال ضد من أين جاء وماذا حلم القلب قبل أن
يتبعثر قلوبا؟

لم أكن أحلم..

من الركن المنزوي، ومن بين العطر والصفائر يأتي الصوت الرقراق
راكضاً..

لم أكن أحلم.. وحدها (حرة المسلاطية) هي التي غيرت حياتي.
- حرة المسلاطية؟

امراتي.. لقد صاحت في مجلس (الكوراك) بعيوبي كلها. حتى تلك
التي لم أكن أعرفها.. لقد أرادتني آخر.. وصرت..
إذن هذا هو.. هو سارق الفئران العادي.. ودالق الطبخ العادي في
بيت امرأة صاحت. لابد لم تكن تعرف.. ولابد يوماً ستعرف.. ولكن
ماذا سيكون حاله هو الأب الشيخ.. سارق الهيبة وبذئ اللسان ومعتل
المزاج السلطاني في جمعته الظليلة؟
المرحلة الأخيرة أبي الشيخ..

كان خائفاً جداً ومرتبكاً جداً، وسعى عدة مرات إلى لشم رأس
الأمير مساعد حين كان يمر بكوخهم لقراءة الطالع، أو يقف كصقر
مهورس لمتابعة عملية بناء المجندين إلى دواب. وفي يوم محدد حددته
ظروف كثيرة، كخفقان الرعد، وبشارة المطر، والتواء في أحد حوافر
الفرس (شبرق)، وعودة جبة (ضريبة النخوة) في الأقاليم بحصاد وفير،
وأبناء عن قرب اكتمال السرداب الآمن.. مشروع السلطان رغد، والذي
كانت تعمل فيه كتبية الرعاع بجانب خبراء أوروبيين، نادوه إلى صومعة
إدارة الرعاع، كان هادئاً جداً، ومتأقلماً جداً، ظهره متسع بعض الشيء،
ومن أذنيه تشع بوادر عالم الحمير.. الذي صاغه متخصصو فن الرعاع.

لم يكن يتذكر أن ضرسه انخلع، وواحدة من عينيه بها قرحة، وأن سوائل الرجل قد اختفت تماماً من صباح سراويله. كان الأمير هناك.. أمامه طاولات عدة من ذلك الخشب الأملس.. يرسم ويمحو ويضيف.. كانت عمامته من حرير سوقي.. لثامه كأنه خرقة من خرق (أم الرديم) وحذاء الذي كان خارج الرجلين كأنه حذاء متسول.. وقف (آدم نظر) أمام متبوع الإحساس وقفة جامدة.. لم يرمش ولم يبلع الريق، واستمر هكذا يوماً كاملاً إلى أن رفع الأمير نظراته في النهاية.. ألقاها عليه ثم عاد إلى رسومه الغريبة. وفي اليوم التالي كانت تجربة ظهر الحمار شاقة على الأمير لكنه تحملها ببسالة، لم تكن ثمة مهمة رسمية ولكن تجربة.. مجرد تجربة، طاف الحالم بالأمير في شوارع مقفرة، وحارات تتناثر في ضحالتها برك المطر، وحين عاد به في النهاية إلى المقر، كان ثمة دمل صغير قد بدأ بالبزوغ على ظهره.

في حي الرديم المسكين كانت ثمة تحركات وأمور معقدة، وبناء على ضغط هستيري من الرزينة وأمها، تسلل جبروتي ولد الحُور إلى ذلك الجحر الذي يسكنه الخصي (نَجَام). لم يكن ثمة أمر محدد لكن المفجوعتين أرادتا أن تعرفا شيئاً عن أي شيء.. لم يكن جبروتي يثق في فائدة نَجَام، ولا بدا له الطباخ المخلوع جديراً بالثقة.. اخترع له عطراً أنثوياً رخيصاً وطرق بابَه. الرجل وضده، شاربه لا يكاد يخرج من مكمنه، ثوبه مرفوع إلى مستوى السرة، وفي ضحكته ألوان غرف حمراء. اسأله عن الكتيبة.. اسأله عن التغذية.. عن ألحفة النوم الواقية من البرد.. عن أي شيء يا جبروتي.. الآن مزيد من الخيوط البيضاء تلوح في ظلام (مهلة التفكير).. اقتربت منه الرزينة.. اقتربت بالدرجة التي يمكن أن يفكر فيها في تعلم طهي صدور الدجاج التي تفضلها للحفاظ على الرشاقة..

لا أعرف شيئاً.. أنا طباخ سابق.. وهذا كل شيء..

حتى صوته الزاجر لم يكن صوته.. صوت الضد في تلك اللحظة..

ذهب جيروتى بلا معنى، وخرج بلا معنى.. وقال للرزينة..

إيأسي.. إيأسي أرجوك.. انهي التفكير.. انهي أرجوك..

في ذلك المساء المخلوق من طينة أخرى وربما طينة داكنة للغاية، كانت الرزينة على موعد كبير.. موعد مع (السحابة) جدة السلطان، طلبته بالدموع وباللهاث، وبوعود أخرى لم تكن أبداً واعية حين أبرمتها.. وفي مقر إدارتها لمجلس الجدات الذي كان نظيفاً ومرتباً ونقي الهواء، وفي قصرها الذي لا يبعد كثيراً عن قصر (المسك)، وقفت الرزينة.. خلعت ذهب اليهودي (عامير) من عنقها ومرفقيها وحلمتي أذنيها الشفافيتين، وحررت شعرها من قبضة أشرطة العقيق السلطانية، وضعت عتاد نضارتها على الطاولة.. وأخرجت رماداً داكناً من بين ثيابها، دهنت به جلدها ردعاً للنظافة التي كانت قد اجتهدت فيها واحدة من جوارى (السحابة).. طلبت إعفاءها من قيادة كرنفال الجلوس القادم كما كان مقرراً، إعفاءها من حمل الفوانيس الملونة، وعدم رغبتها في المشاركة في نشاطات طاهرات (أنسابة) التي تشمل إطفاء الحرائق ومهام أخرى داخل القصور.. لم تصدم السحابة حقيقة، ومنذ صاح الولد في ذلك اليوم.. أريد أن أصبح أباً شيخاً، والسحابة تحس بأنها لن تصدم أبداً.. كانت جدة السلطان فعلاً، ورئيسة مجلس الجدات فعلاً، لكن الدهاليز أكبر وحفرة الولد الصائح أعمق من قدرتها.. قالت.. لا أستطيع المساعدة في هذا الشأن.. هذه أمور سيادية.. وقالت لا أستطيع أن أمنعك من التمرد على خدمتنا.. فهذه دموعك.. وقالت.. عودي متى شئت، فنشاطاتنا تحت أمرك.

خرجت (الرزينة) وفي جنبها مغص، وثمة طعم مر يتناثر في حلقها.. كانت تعرف النتيجة، وتريد الآن أن تبدل قدراً..

جمعة (الكوراك) في يوم شتائي من أيام (أمشير) نافخة الرعاة، والمبيدة لمشاعر الدفء، كانت الريح صارة، والبرد حبل الربط قرب

النيران، وكان السلطان (رغد) قد غاب أكثر من عشر جمع وعاد لتوه من رحلة مؤلمة، تفقد فيها الجبال والسهول، وحدود سلطنته المتاخمة لكردمال، زرع في الجند روحاً.. وفي الفقر آمالاً وفي وجوه الأطفال الذين هتفوا بأبوتهم، سراب مستقبل.. قال لمنجمين أفرحوه وأطالوا من إشراقات عهده.. ويلكم لا تغرسوني كثيراً في الدنيا.. وقال لمملك تلك المناطق.. تتبعوا الإحساس.. تتبعوا الإحساس.. وكان الجليل المهاب غائباً أيضاً.. أرسله السلطان في رحلة عمل إلى بلاد قبيلة (الشريين) أعقل قبائل البدو المترحلة في (أنسابه).. كانوا يحتفلون بمولد جديد.. تغيير اسم القبيلة إلى (الميامين).

من بلاد (البرقد).. من (البقو).. من (التنجر).. من (الشباريق) من (البرقو) و(المساليط).. من مدينة (سن الرمح) الحدودية وواحة (العفراء) المزهرة وسط القفر.. شهوة ((الهجليج)) في الإيواء.. ليس من حرٍّ ولكن من صر الرياح.. شهوة أزيار الفخار في الإرواء.. ليس من ظمأ القيظ ولكن من ظمأ التوتر.. شهوة السحرة في الإبهار، وشهوة السياح في رسم الهرجلة التي تدر مبالغ عظيمة في أوروبا.. وفي نفس الوقت لابد من لوائح، ولوائح لا تقبل التهاون.. صرخ أب.. - ابني بلا قلب.. يرميني رمي الكلاب..

صرخ ابن..

أبي بلا قلب يرميني رمي الكلاب.

بكت أرملة.. والتاع مأزوم.. وصرخ حلحلوك المجنون:

أريد جارية نحاسية بلا وجه.. أريد بستاناً أخضر بلا زرع.. أريد فرساً مكسور الحوافر يلقيني على الأرض.. أرروك..

وقفت (الرزينة نظر).. مهرجان (جوا جوا).. وحاملة الفوانيس

القديمة، مطفأة.. كانت مرتها الأولى في مجلس الصياح، ومرتها الأولى ووجهها محتقن، ومرتها الأولى أمام كل تلك العيون. وكما كان متوقفاً

من رزينة بلا سند ولا ظهر، وفي مناسبة مرة كنتك، فقد احتفظت بمسافة شاسعة من العبوس بينها وبين جبروتي ولد الحُور الذي يرافق الآن أزمته.. ولا يستطيع أن يقفز بذهنه إلى أبعد من تلك الأزمة.. بمسافة العبوس اقتلعت من جحره، بمسافة العبوس اقتادته عبر احتقان الجمعة وتناقضاتها حتى قصر المسك.. عبست في وجهه ليسجلها في قوائم الصائحين، وعبست ليهش عنها نظرات الفجور التي أطلقها البعض وهم يعلمون يقينا أن هذه هي الأخت الهائمة لابن صانع الطبول الذي اتهم ببذاءة اللسان وتبنيه كتيبة الرعاع من جديد.

كانت الرزينة نظر حقيقة لقطة لا تتكرر في تلك المجالس أبداً، وسلطانات مثلها حتى لو كن معدمات أو عاريات من الزينة، لا يتوقع خروجهن في عصاري الجمع حاملات لصياح ما دون تفكير، لكن الأخت الهائمة فكرت.. وقدرت.. وتحتمي ب(الهجليج) من صر الرياح انتظاراً لدورها.

الرزينة نظر حباب.. ابنة المرحوم راعي الأغنام نظر حباب.. الرزينة نظر حباب.. ابنة المرحوم راعي الأغنام نظر حباب..

صانع الطبول يا إبراهيم.. صانع الطبول يا إبراهيم.. كان الحاجب ما يزال مقيماً في حي الرديم، وما يزال عاشقاً لطبول آل حباب التي أبدعوها.. وجاء إلى الرزينة شخصياً مقترحاً شراء محل الطبول بكامل عدته نظراً لموت والدها واختفاء أخيها.. زجرته الرزينة بشدة، كانت على قناعة بأن أخيها سيرجع، وحتى لو لم يحدث ذلك، فستقف هي وتشرف بنفسها على استمرار مجد أبيها.. راعي الأغنام.. لا يهم..

أخي ليس بذئ اللسان يا مولاي.. أخي مراهق يا مولاي.. أخي أرعن يا مولاي.. أريد أخي (آدم نظر).. أريد أخي (آدم نظر).. مولاي السلطان أنصفني.. أنا يتيمة يا مولاي.. أرروك.. أرروك..

كان واحداً من أرق الصياحات التي مرت على جمعة (الكوراك)

منذ أن ابتكرها (يوسف ضو) واعتمدها ركيزة من ركائز الحكم في السلطنة.. ليس الصباح الباكي كصياح الأرامل والمطلقات، ولا الضاحك.. كصياح الفاجرات.. ولا العابس ولا المبتسم ولا أي صياح آخر سمعه المتجمعون من قبل.. أحس جبروتي بأن الناس قد التهموا رزنيته من شعرها حتى ارتعاش رجليها، وشاهد بعينه أن السلسلة السباعية كانت تتراقص وهي تنقل الصباح.. تجمع الناس من حولها بجنون، وهنأها الكثيرون على انفراج المحنة التي تشوه جمالها مقدما، وحتى قبل أن يصل الصباح إلى أذني السلطان، كانوا يعرفون (رغد الرشيد) جيداً، ولم يتوقعوا أبداً أن رقة كهذه يمكن أن تصافحه ولا تدخل القلب.. وقد همس البعض بقصة (مسك النساء) زوجته الأخيرة ومسك قصره الذي لا ينضب.. كانت أرملة فقيرة لبائع متجول يبيع حلوى (الدرادم) اللزجة التي يأكلها الصغار بتشجيع، وصاحت في إحدى الجمع تشكو من ضيق ذات اليد بعد أن رحل زوجها.. وكان أن دخلت مزاج السلطان ومن ثم بيته.. هناوها باقتناع.. وقال بعض معارفها من حي الرديم.. ابشري يا رزينة.. ابشري يا سلطانة..

والواقع أن (رغد الرشيد) مولاها وسلطانهم، كان كما يعرفونه، وأيضاً أكثر مما يعرفونه، ولو كان ذلك الصياح المتوسل بشأن قاتل لرقبة أو سارق لجمل أو متخابر خائن لصالح سلطنة (كردمال) أو متجرد مدجج بدروع الحرب يمشي في شوارع (جوا جوا)، لكان لذلك الصوت الرزين وزنه، وتلك الرقة الرزينة وزنها، وربما خرجت تلك الفقيرة من إيواء ((الهجليج)) الشوارعي، إلى إيواء قصر.. لكن الأمر يختلف. أن تطالب بمقيص أبيض المهلهل.. هذا حقك.. أن تطالب برأس جدتك الأشيب.. هذا حقك.. أن تمدحنا أو تنافقنا بالقصائد.. هذا حقك.. أن تكون مجنوناً كحلحلوك.. هذا قدرك.. أن تطالب بمنصب الرجل الكبير في سلطنتنا.. هذه بذاءة السنة.. نعم بذاءة السنة. رف الصياح

محلّقاً بجانب الأذن.. مس حلمتها وطبقتها ونسيجها الداخلي، وأرقص
شمعاً متماسكاً.. مس مراكز التوازن في القاع.. خلخلها كلها.. ولكن
هل يعفى عن بذاءة الألسنة يا مساعد؟.. هل نلغي أعمالكم الجليلة يا
مساعد؟ هل نسمح باستخدام صياح الرجرجة كمقاليح لهدم عرشنا؟
لا لا يا مساعد.. اتبعوا إحساسكم.. اتبعوه إلى النهاية:
الرزينة نظر حباب.. ابنة المرحوم راعي الأغنام نظر حباب.. طلبك
مرفوض يا بنية.. صيحي بعد عام.

بعد عام؟

- بعد عام؟

- بعد عام؟

- بعد عام؟

لم تكن حشرات الرزينة، لأنها تحسرت حشرات كلها قبل أن
تأتي.

ولا حشرات جبروتي، لأن ولد الحُور تعود على نسيان الزمن.. منذ
أن فصل من (مهلة التفكير) حياته كلها.. وكانت سخرية ومرة وحنظل،
أن توضع الرزينة نفسها في مهلة للتفكير.. ليت مهلته كانت عاماً فقط..
لكان قد جهز كل شيء.

أيضاً لم تكن حشرات أهل الجوار في الرديم، الذين جاءوا أصلاً
ليتحسروا.. دون انتظار لحكم سلطاني.. ولكن (بعد عام؟) الدامعة تلك،
كانت من قبائل وقرى ومدن.. وحلوق ما ظنت أبداً أن في قلب السلطان
عصا يمكن أن تهش مثل تلك الرقة.. شديد.. ربما.. صارم.. ربما..
مستنشق كبير للرقعة.. نعم.. نعم.. وتحت إيواء (الهجليج) الذي كانت
الريح الآن تقهره، وتحيله إلى جذوع عارية.. كأن آذانا قد حُكَّت، وكأن
صمغاً قد خرج، وكأن عيوناً قد رنت إلى ذيل السلسلة سائلة عن الخطب.
أمسكها جبروتي من اليد المقهورة لأول مرة منذ أن دخلت قلبه

ولم تخرج. كان في قمة السعادة الخائنة، السعادة التي تلذذت بالرعشة، وبالخوف، وبإحساس فقدان طعم الأشياء الذي تحسه الآن.. وفي الطريق إلى البيت سألته عن طعم الملح كيف يبدو؟ وعن طعم عصيدة الدخن.. كيف يبدو؟، وعن طعم الدجاج المطبوخ بماء ثمر القضم.. هل سأحبه إذا أكلته؟.. لا أعرف الطعم يا جبروتي.. أحس في لساني غياب لم أعرفه من قبل..

وصلا إلى حي (الرديم) والريح هدأت قليلاً، والمقهورة الآن تذكرت الطعموم كلها حتى تلك التي لم تتذوقها من قبل، لكنها فقدت لياقة السلوك.. أرادت أن تشكره على كل ما قدمه من أجل أسرتها منذ أن عرفوه، فدعته إلى دخول البيت، وأرادت أن تصلح الغلطة وتطرده، فأحضرت له ملاءة ولحاف.. وأرادت أن تصلح الغلطة الأولى والثانية معاً.. تطرده، وتعيد الملاءة واللحاف إلى الداخل، فجلست بجانبه، وفي اللحظة التي كان جبروتي فيها متسارع الأنفاس ونهم الخلايا، يتوقع الغلطة الرابعة التي ستلقي به حتماً في تلك الأحضان الدافئة.. استعادت الرزينة لياقة السلوك، وانتهى أمر تلك الليلة.. انتهى نظيفاً في بيت نظر حبابب.. وحسرة كبيرة في جحر جبروتي ولد الحُور.. وعلى مدى عدة أشهر كانت الرزينة تفقد حاسة وتستعيد حاسة، تنسى شيئاً وتذكر شيئاً.. فقد رقصت وغنت في فرح مجاور فقير، ظانة نفسها (جديلة) المغنية.. عطف على الخصي (نَجَام) بشدة باعتباره طفلاً يتيماً، وعلى المرأة العجوز (أم الرديم) باعتبارها عنزة لا تدر اللبن.. غازلت فتاة في الحي باعتبار نفسها فتى مراهقاً، لبست درعاً، ودقت طبلاً من النحاس الأجوف في الشوارع باعتبار نفسها جندياً يستعد للحرب. كانوا يراقبوننا في الرديم ويشهقون.. يصيحون أخطاءها ويشهقون، وفكر جبروتي أن يصيح بشأنها في مجلس (الكوراك) السلطاني، طالبا أي معونة، وذهب بالفعل إلى إحدى الجمع، لكن خوفه من شيء منعه، وتوجسه من أشياء

أعاده إلى حي (الرديم) حلقة متفخا كما ذهب.. لكنه تمكن في تلك الأيام من إمساك يدها، وإسناد ظهرها في لحظات الدوار، وأيضاً رشها بقطرات من عطر (النضارة) المخزن وإعادة استنشاقه. وحين شفيت في النهاية بعد تلاوات، وبسملات، وأعشاب مرة.. وزيارات من حكماء غير موهوبين، لم تعد رزينة الحرير، وأشرطة الخرز الملونة، ولكن رزينة الحياة القاسية والمزججة الرياح.

مرحلتك الثانية أبي الشيخ..

في مستنقع صياغة الرعاع كانت نظرات الصقور المهووسة لا تهدأ، لسان المهام الجليلة يطرق على الحديد وهو ساخن.. وهو بارد. اضربوا هنا.. ساووا هنا.. شدوا على تلك الأذن.. رشوا على العيون غبار المغامرة.. ضعوا على الظهر المزيد.. فرقوا بين جنس وجنس.. أغبياء.. اسرعوا.. اسرعوا.. تتبع إحساسنا..

من كوخ إلى كوخ.. من ماء فاتر إلى صديد يغلي، من مطرقة إلى سوط من سياط جلد البقر.. من (أميا) إلى (بلهارسيا).. من جرب إلى طاعون.. كان الظهر قد اتسع فعلاً، حول العنق نبتت علامات الأصالة الفذة، وما عادت الحوافر تشتكي من رمل أو بقع من الطين أو حجارة من الزلط.. المؤخرة تضخ الدمامل لا بد.. وتجارب الغزو على أشدها.. وفي تلك الأيام استعاد بشدة ما رددته (درة) المنجمة، وما رددته (رسول الأفغاني)، وما رددته الآخرون أيام أن سعى إليهم مبتلعاً لذلك الحلم الأهوج..

(تكبر يا آدم نظر.. تكبر كثيراً.. الظهر ينحني، امرأة تبصق.. وشيء عزيز يضيح).

كان الآن يعرف.. ولم يكن يخشى من ضياع شيء.. فقد مات كل شيء.. حتى الجليل المهاب مات.. مات فرسه.. ماتت عمامة الضباب على رأسه.. ومات العبيد الخوارق الذين يحملون كيانه إلى الأرض. كانت الغوامض قد تكشف له بالتدريج، وفي ذلك المستنقع الغزير

التكوين والذي تضاف إلى بنيانه كل يوم معضلة يرسمها الأمير أولاً على طاولته الخشبية ثم على أرض الواقع، التقى بعلماء كانوا قد نسيوا في سياق الحياة في (أنسابة)، وعدد من أبناء حيه اندثروا في ظروف غير معروفة. شاهدتهم حميرا وخرافا ونعاجا تدر اللبن.. وشاهدتهم واسعي الأعين ويحملون نظرات جائرة، وشاهدتهم عيالا يصرخون في فوضى ونزق وكان بعضهم بالفعل رجالا وأضدادهم. وكان بعض العاملين في السرداب الآمن الذي طلبه السلطان رغد، قد عادوا بعد أن اكتملت مهمتهم وتسلم السلطان خريطة سردابه، لم يكونوا أحياء يمكن استضافتهم في حديث، أو إضحاكهم بنكتة أو إسكانهم تحت سقف وأغطية أو يتوقع صراخهم حين يقرصوا. ولكن أمواتا خرجوا من قبر إلى قبر.. التقى بالشيخ القرشي.. ذلك الفقيه الذي صاح في مجلس (الكوراك) ضد فقرة مساواة الخصيان بالرجال.. لم يكن هنا فقيها بأي حال من الأحوال.. كان في الواقع رجلاً وضده.. خصياً كاملاً، وكان مكلفاً بإعداد وجبة الصقور الجارحة للأمير مساعد. والتقى أيضاً بأحد زملائه في مدرسة المهاجر (عبد الرب) وكان قد اختفى منذ مدة طويلة.. كان حماراً يأبى التطور إلى أبعد من ذلك..

الفرس (شبرق).. ولد قبيلة (الشباريق) الذي شد القرية بحبل سخيف وفي يوم احتفالي تافه، ما عاد يأكل كثيراً، أو يتحدث كثيراً، وما عادت دمامل الظهر تكويه كما كانت.. كان ينام واقفاً.. يشخر في النوم بلذة معذب، ويصحو من النوم بإرهاق حارس لم ينم للحظة. وحين يخرج إلى واحدة من تلك المهام الجليلة حاملاً سيده، يخرج إليها بلا إحساس. كان (آدم نظير) قد أحبه.. أحس به صديقاً عاثر الحظ.. ليس مثله.. فهو الذي سعى إلى الرعاع بنفسه، ولكن مثل جبروتي ربما.. أحدهما كان يجر حبلاً سخيلاً وسقط.. والآخر كان ولداً للبحر يجر عشقا سخيلاً وسقط أيضاً.. لن تكون الرزينة أرحم على جبروتي كما لو

كان قد صنف راعياً..

جبروتي أين أنت؟

الخصمي (قلب الأسد - قلوب).. الرجل وضده، كان يتأسف كثيراً.. يتأسف من- فتران أكلها، وعيال آذاهم، ومسلاطية هدمها وهدمته.. أجاد فن الطهي، وفن غسيل الثياب، وفنون الحياكة والتطريز، وتسريح الشعر، وحراسة السلطانات المتمردات.. كان يبدو لامعاً بشكل دائم، ويبدو متخماً بالهرمونات، ويبدو كما لو كان سيستعيد شيئاً ما. وفي يوم خروجه الذي حدث بغتة، جاء إلى (آدم نظر) راكضاً..

- وداعاً أبي الشيخ.. الآن أذهب إلى قصر المسك.. عند السلطانة مسك النساء.. يريدونني هناك.. شكراً.. شكراً..

كان فرحاً بصورة لا تصدق.. ولن يعود أبداً إلى ديار (المسليط).. وإلى (حرّة) التي هدمته.. افتقده (آدم نظر) كثيراً.. افتقد لمسة الضد فيه، تلك التي كانت تشعرهم بدفء الأسرة..

للمرة الثانية في ذلك اليوم، جاء الأمير إلى كوخه، كانتا مرتين تافهتين، لأن الأمير لم يكن ملثماً ولا اهتم بإزالة مخاط كثيف من حواف أنفه، وبذلك الوجه وتلك التقاطيع وازرقاق في واحدة من الشفتين، احتاج (آدم نظر) إلى أكثر من نسيان لينسى وأكثر من حلق ليتلع ريقه.. مد يده إلى (آدم نظر).. اقرأ طالعي.. اقرأ طالعي أيها الفرس.. كانت يدا مجنونة بحق.. فيها عروق زرقاء وعروق سوداء، وفيها عرق يوشك أن انفجر.. وكانت خطوطها من التعرج بحيث لا يمكن قراءتها أبداً.. لم يكن (آدم نظر) يعرف شيئاً عن التنجيم أو قراءة الكف.. لكنه يعرف كيف يردد.. طالعك في السماء كما هو مولاي الأمير لم يتغير. لم يكن يعرف ما هو ذلك (الكما هو).. جملة سمعهم يرددونها وتعجب الأمير.. استعاد يده إليه.. تحدث إلى نفسه برهة، وحين استدار لينصرف.. مرت نظرات الصقور المهووسة على ظهر (آدم نظر) وسكنت.. إذن حانت

ساعة المهمة الجليلة على ظهرك أبي الشيخ..

ردد (آدم نظر) وانكمش مرتعشا في حوافره.

- مولاي الأمير نحن على أعتاب حي الرديم.. هل ندخل من الشرق أم الغرب أم الجنوب؟

- ادخلوا من الجهات كلها..

هل نمص ثمار اللالوب كما كنا نفعل في كل مرة؟
مُصوها..

دخلوا إلى الحي بالفعل، كانوا على أحصنة وعلى نوق، وكانوا مشاة، كانوا يصرخون، وكانوا يهمسون، وكانوا موغلين في الصمت.. لم ينهروا أحداً، ولم يقهروا أحداً وما رفعوا عينا محمرة إلى أحد. جاءتهم المياه النقية، فرفضوها.. جاءتهم أقذاح من عصائد (الحميض)، واللبن الرائب، فرفضوها، وجاءهم الخصي (نَجَّام) مؤملاً استعادة وظيفته، فما سألوه، وجيران الخصي نَجَّام، فما سألوهم، وشاهدوا (جبروتي) يخرج من جحره باتجاه مقر (الرزينة) فما استقر في أعينهم إلا برهة.. لم يطرقوا على باب ولا اقتلعوا نافذة، ولا سرقوا برشاً أو قلة من الفخار، ولا علّقوا على رداءة الكحل في أعين النساء أو ارتداء بعض الأطفال لسراويل آبائهم. كانوا عابرين بالحي.. وعابرين في غاية الكمال والتهديب، وكان الأمير يتوسطهم.. صقوره المهووسة ساكنة لا تطير، ودابته التي يركب على ظهرها تنهادى في عذوبة.. لم تكن فرساً ولا ناقة ولا حماراً وحشياً، ولكن ابن الرديم، الصبي الحالم (آدم نظر). خرجوا مطرزين بالشهقات.. ومتبعين بشهامة الذعر التي كانت مجرد غيظ ولكن بلا حراك.. ولم تكن هناك أية علامة للتعجب أو الاستفهام.. فقد كان المغزى مكتوباً ومكتوباً بخط واضح.. كتبه حوافر الدابة الفقيرة على الأرض، وهي تحمل رجل المهام الجليلة.

في البداية لم يكن أحد يعرف أبداً سر تلك العلاقة التي نشأت بين (الرزينة نظراً)، مهرجان (جوا جوا) السابق، والأخت الهائمة الجريحة الآن، وبين الخصي (نَجَام) طبّاخ الطيور الجارحة المستغنى عن خدماته من قبل الأمير (مساعدة)، خاصة إن تلك العلاقة قد نشأت في أعقاب ذلك الزحف الرعاعي على حي الرديم، وظهور ابن الحي دابة تحت ثقل الأمير وغازات بطنه. فلم يكن (نَجَام) ابناً خالصاً لحي الرديم.. لم يولد هناك، ولم يحبو هناك، ولم يؤخذ قسراً من الحي ويعاد هيكذا كما حدث لآخرين.. فقد وجدوه في الحي فجأة منذ عدة أعوام، حين كان الرجال منشغلين بأنباء تحرشات الحدود، واحتمال توزيع دروع الحرب، وأجولة السكر والدخن، والنساء منشغلات أيضاً بتعلم العيش بلا رجال في حال أن نشبت الحرب. كان ييني كوخاً من القش اليابس من ذلك النوع الذي تعافه حتى السكنى المعدمة.. ثم عدله إلى صفيح صدئ، ليشيده في النهاية طيناً مثل كل طين البيوت. وعرفوا من رقة في حواجه، واتساع في حوضه، ومهارة في إخفاء العمر، وذلك الثوب المرتفع إلى مستوى السرة، أن ساكن الحي الجديد امتحان عسير من تلك الامتحانات التي تعود الزمن أن يدلّقها تحت أرجل الفقراء.. في الأشهر الأولى تفهوه بشدة، كانوا يمرون من أمامه وهم يشتمون مرض (البهاق) الخصي ومرض (الهيضة) المخنث.. يمر من أمامهم، فيقولون: أتفه الحمير تلك التي بلا ذكورة.. تفهوه حين فتح بابه، وحين أغلقه، وحين تحدث وحين صمت، وحين صلى معهم، وحين لم يصل، وحين جاء شهر (رمضان) وحين مضى شهر (رمضان) وحين قال كل عام وأنتم

بخير في صباح العيد، وحين لم يقل. وفي اليوم المحدد، والذي حدده الحي كله، لطرده ودك بيت الطين على آثاره، بعد أن بدأت النساء في استعارة خزره، وأمشاطه، ومرارود كحله الشرس، صدرت تلك اللائحة المعدلة في الدستور بتوقيع السلطان (رغد) والتي تجيز مساواة خصيان السلطنة بالرجال، واستدعائهم للشهادة إن لزم الأمر.

كان محظوظا بلا شك.. محظوظا لأن أهله (البقرو) كانوا بلا جدوى حتى في مصائب أكبر من تلك.. ومحظوظا لأن قضايا كثيرة، ومتشابكة كانت في حاجة إلى شهادته، والأهم من ذلك كله.. ذلك التلويح الخفي أولا ثم العلني بعد ذلك، بعلاقته بالأمير مساعد.. وأنه طباحه الأثير لكن في إجازة مفتوحة سيعود بعدها حتما إلى العمل.. الأمير يحب حسائي ولن تمر أيام حتى يستعيدني..

تراجعوا إلى نقطة البدء بجدارة، ابتكروا تحرشات محلية ينشغلون بها عوضاً عن تحرشات الحدود التي هدأت.. وتركوا للنساء مطلق الخيار في أن يستلغن منه أو يسلفنه، يستخدمن كحله أو يمنحنه من كحلهن.. يضحكن عنده أو يضحكنه عندهن.. والواقع أن (نَجَام) لم يكن مؤذيا لمناخ الرديم، ولا ضارا بإرثه كثيراً، ولم يكن أشد قمامة من كثيرين، ولدوا في الحي واستنشقوا عاداته.. فهو لم يسرق، ولم يتعارك، ولم يرفع الثوب إلى مستوى السرة إلا في لحظات الانفعال الإنساني والتي كانت قليلة عنده، أيضاً لم يقل أبداً لأطفال الشقاوة الذين كانوا يردمونه بالحجارة أثناء مروره بالطريق.. لا تردموني، ولم يقل للألسنة التي كانت تسلفه حين تلمح مشيته أو قميصه الذي في مستوى السرة.. لا تسلفيني.. ولم يرد واحدة أرادت كحلاً أو مرطباً للوجه.. كان يزيل من عينيه ومن وجهه، ويعطيها. وبعد عدة أشهر تطور فهم الرديم لحالته وحالة أمثاله من الخصيان الذين كانوا ينتشرون في مجتمع (أنسابة) وتزداد أعدادهم باستمرار.. اعتبروهم ضحايا لا مضحين، ونعاج هشة لا

ذئاب ضارية، وثمار حميض أتلفتها الريح ولم تلتف بمحض اختيارها. لم يعطوه أذانهم ليحدثها، لكنهم لم يسحبوها حين تحدث، لم يدعوه إلى مجالسهم أو مآدب أفراحهم، لكنهم لم ينهروه حين جاء، ولم يطلبوا شهادته في نزاعاتهم المحلية، لكنهم لم يردوها حين أدلى بها.. وبعد أشهر أكثر ملاسة واحتكاكا، اكتشفوا فيه مزايا لم تكن توجد إلا عند القليلين، اكتشفوا يده الطاعمة التي كانت تحيل الدخن إلى شهد، وشراب «الهجليج» المر إلى حلوى وصوته الحاد جداً، والذي كان يحيل النواح على ميت فقير إلى نواح عالي المستوى.. نواح على واحد من السادة.. أيضاً اكتشفوا موهبته في إزالة الصدأ عن الأبواب.. وتدريب الحمام على العودة إلى أعشاشه، والتسرية عن المهمومين بسر قصص لم يسمع بها أحد من قبل.. نادى (أم الرديم) أمي ونادي (الرزينة) أختي، وتذوق (جبروتي) ولد الحُور، كما لو كان معتاداً على حموضة لهائه.. وفي طوافه المعتاد على بائعي الدخن والحميض واللحم المقدد وحتى بائعات الهوى المختبئات هنا وهناك، لم يقل لبائع إلا عمي، وما خاطب بائعة للهوى إلا بلقب الشريفة، وفي ذلك اليوم المنتهك بواسطة (الرعا) والذي بدا فيه ابن الرديم دابة تنهادى.. لم يستطع أحد أن يمحو دموع الرزينة، ودموع أمها التي أذابت جزءاً من الخد.. كانوا يسمعون، ويتحسرون ويمضون، حتى جبروتي لم يستطع ذلك.. اعتبرته الرزينة في ذلك اليوم بالذات عنكبوتا، وحاولت هرسه، واعتبرته أمها.. غرغرة من خلاصة (الهجليج) لعلاج حلقها الناشف، وحاولت تفرغره. وحده (نَجَّام) استطاع ذلك، وبصوت أخت وصوت أم وصوت جدة، وبثوب كستور فيه رائحة صندل، وبعيني حمامة مبتسمة، استطاع أن يعيد توازن الحزن إلى مساره في بيت المرحوم (نظر حباب). أعد غداء الحزن وعشاء الدموع، وغسل أطباق المأساة كلها.. وكان ماهراً لأن كحله لم يسقط، وحناء أصابعه بقيت متماسكة كما هي.. لا تلوموا نَجَّام

على شيء.. فهو مسكين.. كانت قناعة الرزينة المعلنة هكذا، وقناعتها غير المعلنة.. خوفاً لئتما أن تستلم أخاها من مستنقع الرعاع هكذا.. ليست الدابة التي ظهر بها مسيئة بقدر ظهوره في شكل (نَجَام) إن ظهر.. ساعتها لن تجد تربة لدفن وجهها، ولن تجد قماشاً صالحاً لتغطية عورة العائلة. نقبت في دفتر الحضور اليومي لسكان حي الرديم إلى بيتها.. ذلك الدفتر الذي تسجله في ذاكرتها.. كانت تبحث عن (رديمي) شهم أو (رديمي) له مواصفات دابة تحولت إلى خصي.. نقبت في دفتر الرسائل التي كانت تصلها متقطعة من أهلها التنجر في اختبائهم البعيد.. كانت تبحث عن ظهر ليس مشوهاً بجينات عدم الصبغة.. لم تثر على الشهم، ولم تثر على الظهر، وعثرت على الدابة التي تحولت إلى (نَجَام)، والتصقت بالخصي لمحاولة اكتشاف طرق الرعاع في إنهائهم لخيانة رجل.. لم تكن قد يئست تماماً حتى تلك اللحظة، وتوقعت أن تدعوها (السحابة) إلى قصرها في أي يوم من الأيام، لتخبرها بانتهاء المأساة، وتعينها قائدة لطاھرات (أنسابة) من جديد.. توقعت أن يباغتها اعتذار من السلطان رغد لسوء تعامله مع الرقة، وتوقعت أن يطوف مناد في (جوا جوا)، يعلن الحداد على أمير معتوه مات بالسم.. علمني طريقة طھوك لحساء الطيور الجارحة يا نَجَام.. علمني يا صديق..

احتضنها (نَجَام) احتضان أم ملتاعة.. لو نفع رجلاً لكانت ابنته، ولو نفع امرأة ربما كانت حفيدته.. الضد وضده.. لا ذكورة حقة، ولا أنوثة تشد الرجال.. أفلتها ليحتضنها مرة أخرى.. لن عملي عند الأمير مساعد.. ولا أظن أحداً شرب ذلك الحساء غيره.. لماذا تعلمين حفر الأرض وأنت لن تزرعي؟ لماذا تعلمين الخطأ وأنت لن تخطئي؟.. تعلمي سلق البيض.. تعلمي صناعة المديدة من نبات الحلبة.. تعلمي تطهير الجروح، وغسل الموتى، تعلمي

استخراج الغزل الرفيع من صدور الرجال.. تعلمي أن تلبسي على مهل..
وتضحكي على مهل، وتغتسلي بالأملاح المطهرة، ولا بأس إن تعلمت
أن تمشي دون أن يلحظ أحد إنك تمشين.

من صياح الديك، وقبل أن تتبه الحواري إلى صياح معاناتها كانت
تأتيه.. توقظه من النوم عيناً ملوثة وعيناً يتطاير منها التلوث.. ترتب له
كرنفال التهادي، ليتهادى، وتغرق في وسط لجة صوته التي كانت تغني
تتنحج.. أو ترسل الآهات التي لا يعرف إن كانت آهات معذب أم
آهات معذبة.. لم يحاول (نجّام) أن يبدو غيباً، فقد كان ترددها على بيته
غالياً، ارتماؤها في أحضانه حين يبدو أمّاً، غالياً، وعطر النضارة الذي
استلمته من اليد المرتعشة لخطيها ولد الحُور، وأهدته إياه بلا مناسبة،
غالياً أيضاً.. تحسس تماسكها أمامه، فوجده تماسكاً هشاً، تحسس
ضحكتها التي تضحك بها، فوجدها ضحكة غدير معكر، وتتبع نبضات
قلبها من داخل الصدر إلى العنق، فرآها نبضات مذبوح.. لكن لماذا حساء
الطيور الجارحة.. لماذا؟ كان يمكنها أن تسأل وكان يمكنه أن يفكر في
الإجابة.. لم يكن ثمة قانون موحد في مستنقع الرعاع.. ولم يكن بناء
الرعاعي ينتهي دائماً بإنهائه إلى خصي.. إلى رجل وضده.. حين كان
هناك.. كان معه آخرون وحين انتهى إلى الضد انتهى آخرون إلى نهايات
أخرى.. الفرس المكسر الحوافر.. الناقة التي بركت بلا قيام.. والحمار
الذي مات من سقطة باهظة.. ليس كلهم مثلي.. أراد أن يقنعها.. وأراد
أن يستخرج خوفها من العمق، ويحرقه دون فائدة.. إذن احضري الطيور
الجارحة.. احضري لوازم الطبخ.. احضري انتباهك.. وكوني صادقة..

علمها أن تطبخ حساء الطيور الجارحة، وحساء لحم الثعالب
الضالة، وكيف تصنع من النبق حلوى أسطورية، ومن بيضة واحدة وجبة
تكفي لعشرين شخصاً. يراها مرة ابنته المدللة، ومرة حفيدته التائهة بلا
جدوى، وحاول في مرات كثيرة أن يراها عشيقه الوله التي تتسلل إلى

أحضانها في الليالي العذبة، لكنه أخفق..

كيف كنت فيما مضى يا صديق؟.. تسأله..

كنت كأبيك.. كنت كجدك.. كنت كعشاقك الذين ربما لا تعرفينهم..

- ماذا حدث بالضبط؟

تلقي بالسؤال كما لو كانت تقول.. هل يحدث لآدم أخي ذلك؟
يتسم الخصي بسهولة.. يضحك بلا غباء.. لا يطمئننا لكنه يلكزها
لتسرع.. ليس ثمة قانون موحد ينتهي إليه المجنون.. وما دمت تسرعين
فقد يخف الضرر. كانت الرزينة تبكي.. استنفدت سعيها وبلا أمل..
أهملتها السحابة في مواكب الفوانيس، وذكرى تولي العرش تقترب..
لم يأت اعتذار السلطان عن سوء معاملته للرقّة أبداً، ولم ينح أي ناع
في (جوا جوا) أميرا معنوها مات من رشقة سهم أو غليان سم.. ماذا
ستفعل.. ماذا ستفعل؟ احفري في الخرس أكثر.. جربي جمعة أخرى..
وأخرى.. مضى العام الذي حدد لك.. اذهبي.. اذهبي..

تذهب إلى اضطراب الأيام.. تذهب إلى السهر تذهب إلى
الحمى.

كان (جبروتي) مستاء بشدة.. فمنذ تعلق بهواء الرزينة، والهواء يبدو
ثقيلاً على التنفس.. يحبها جداً.. ويقدر ظروف حياتها جداً.. وقد استعد
مراراً ليفديها، ولكن بعيداً عن التهلكة.. رفضت أن تشم عطره مراراً،
وأهدته إلى خصي، تملصت من عذابات يده، واستسلمت للجوع.. غريبة
هذه الرزينة، وغريب هو.. وغريبة علاقة ولد للحوور.. بطاهرة كان يمكن
أن تصير سلطنة.. وذلك (النجم) الذي يمشي متهادياً في أتراح روحه
المعنوية.. كلمه مرة.. وفوجئ به لا يرد.. يرفع ثوبه إلى مستوى السرة
وينصرف. كلمه مرتين وعشر، وفوجئ به لا يرد، يلقي برقبته إلى اليسار
وينصرف.. قالت له الرزينة.. لست ولياً لأمري.. أنا أفكر في عرضك
للزواج مني.. أنا أفكر.. لكنني لم أنتقل إلى بيتك. أغلقت باب نخوته

بالقفل المتين الذي كان أصلاً موجوداً ولكن يتزحزح بين حين وآخر
ساعتها تمنى جبروتي لو تاهت مرة أخرى وظنته فارساً من فرسان عهد
بعيد، لو فاجأها الدوار.. ولو سقطت على يده.. وفي ظروف كذلك، كان
يمكن أن يتمنى لو عاد مرة أخرى ريفياً في قرية (أم حراب) فيه رائحة
أمه، وفيه عذابات يمكن تذوقها، ويمر الشمامسة المتجولون، ويمر
السياح، فيلحسهم ويلحسونه.. لكن ولد الحُور لم يتمن ذلك أبداً.. على
العكس كان نادماً على وجوده المتأخر في (جوا جوا).. كانت تجارتها
في متجر (يسر ولا تعسر) قد تدهورت. دهورها هبوط المعنويات
إلى الصفر، وصعود نبض الوله إلى القمة.. لن يترك الرزينة حتى تنتهي
مهلة التفكير بالكامل.. نعم لن يتركها.. وعن طريق رعايين كانوا يأتون
ويذهبون وكان يعرفهم، استطاع إيصال رسالة إلى (آدم نظر).. لم تكن
أشواقاً، ولا سلاماً حاراً، ولا آمناً خالصة بالرجوع سليماً معافى من
ذلك المستنقع، ولكن بصاقاً غريب الشكل قال في طيه..

مرحباً أيها الصديق هذا جبروتي إدريس يكرر طلبه في الزواج من
أختكم الرزينة.. برغم تحولها إلى جبل.

كان الفرس (آدم) في تلك الأيام منشغلاً بذاته.. لم تكن في عينه
بؤرة صالحة لقراءة خطاب مسكين.. ولا كان يملك العصا الأسرية التي
قد تهش الرزينة إلى بيت طالبها.. وصلته الرسالة، والمستنقع يفور ويغلي
استعداداً للذكرى التاسعة عشر لتولي السلطان رغد مقاليد الحكم في
السلطنة.. تلك المناسبة التي يملؤها الرعاع صخباً يليق. كانوا يوزعون
على الرعاع دروعهم وأخلاقهم.. يوزعون عليهم أوامر الكبت ونظرات
الحماية في الشوارع، وألفاظ الخدش التي قد يستخدمونها عند اللزوم.
ووزعوا لدواب الأمير مساعد حوافر من جلد لماع وصلت إلى البلاد
حديثاً.. هذا العام لن يحمله شبرق في موكب السلطان، لأن شبرق قد
استهلك.. ولم يعد قوياً كما كان. دورك أنت أبي الشيخ.. كن صبوراً..

في المناسبات الجليلة يلتهم من الطيور الجارحة أكثرها شراسة.. كن صبوراً على غازاته.. وكان شبرق في الواقع قد تلف.. لم يعد ظهره متيناً كفاية، وسرت شائعة كبرى بقرب تحويله إلى ضد.. ارتعب (آدم نظر) لتلك الشائعة، كان حتى تلك اللحظة يحتمي تحت مظلة الفرس شبرق. يراه قديماً في الخدمة ولم يتم تحويله بعد، ولكن إن حدث ذلك.. فقد جاء دورك أبي الشيخ..

ألقى بالرسالة الحورية في تواطؤ النسيان الذي كان يحبه.. حين يتواطأ النسيان ويلغيك من شعورك لا بد أن تحبه.. بتلك الفلسفة نسي أباه، ونسي أمه. ونسي الرزينة.. ونسي جيروتي، وأوشك على نسيان أنفه لأن لا رائحة محددة يمكن شمها في ذلك المستنقع.. لم يكن الرعايون كلهم الأمير ولم يكونوا كلهم مساعدي الأمير.. كان فيهم أبناء وفيهم آباء، وفيهم دراويش حنطوا في ذلك المستنقع بلا إرادة.. الآن بالذات لن يعود إلى حي الرديم.. وحتى لو استقام ظهره مرة أخرى لن يعود.. من ينسى تلك الحوافر التي حفرت بجداره؟ من ينسى تلك العيون التي كانت أوتادا في الأرض؟ من ينسى دابة الأمير مساعد التي تهدأت؟ استسلم لمرارة إكسير النشاط الذي ألقوه في حلقه.. يكره ذلك الإكسير جداً.. وحين يسري في دمه يحس بأنه فرس حقيقي.. لا آدمي تنتهك آدميته.

رسالة جديدة من ولد الحور للفرس المعنوقة في مستنقع الرعاع، وفي حمى الاستعداد الكبير للذكرى التاسعة عشرة لتولي (رغد الرشيد) مقاليد الحكم في سلطنة (أنساب)، يحملها الرعايون الذين يذهبون ويعودون..

أيها الصديق.. أكرر طلبي بالتقدم إلى أختكم الرزينة بالرغم من أن بوزها قد التوى، وضمائرها قد تغبرت، ونبت في وجهها الكثير من النمش..

هل جن جبروتي؟ الطليق الحر في حي الرديم، يحب ويخطب، ويصنع العطور التافهة والركيكة؟ ويجد رعاعيين طيبي القلب يحملهم وزر قلبه.. لو كان فرساً يحمل المؤخرات والغازات.. لو كان ناقة تجتر ماء السفر لو كان حماراً، أو ضدّاً وضده؟ تكفي دمايل الظهر وحدها.. يكفي تكسر الحوافر على الحصى والرمل، ويكفي حساء الطيور الجارحة الذي تكلف صناعته ماء الوجه.

وفي يوم وصول الرسالة الثالثة التي قال فيها جبروتي.. إن الرزينة لم ترتعش لذكرى أبيها صانع الطبول العظيم، وعينت تافهاً في محله بعد أن افتتحته مجدداً، كان (آدم نظر) نفسه في تفاعه غير عادية، يأكل وجبة من النبق المر، ويشرب أكاسير للنشاط بلا حصر.. لم يكن يذكر شيئاً عن طبول أو محلات أو شوارع أو إشراقات عرس.. ويذكر فقط أن في ظهره دمايل وفي وجهه غرة أصيلة.. وثمة موعد للتحوير النهائي يقترب بجنون.

لم يظهر الأمير (مساعد) في المستنقع منذ عدة أيام.. لم يلحظ أحد أي نظرات مهووسة تتقصى أو تتابع البناء الفني للمجندين إلى رعاع.. لم تمتد يده إلى أحد طالبة قراءتها كما كان يحدث يومياً.. حتى دوارق الحساء الجارح كانت ممثلة لم تمس.. وتكونت شائعة مطلوبة بشدة، في فم الفرس (شبرق) كادت أن تغادر الفم وتسري لولا أن الفرس قمعها، وابتلع أضرارها قبل أن تضر الجميع.. هل مات بالسم؟ لا يمكن فحساء الطيور الجارحة سم لم يمته.. هل يعاني من المرض.. لا يمكن فنظرات الهوس التي يحملها هي المرض.. وضخ الغازات هو المرض.. ومد الكف للقراءة مرض أقوى وأمتن.. وفي اليوم الذي كان يفترض أن تمطر السماء ولم تفعل.. وأن يشلح البرق ولم يفعل، وأن يرتسم قوس قزح في الفراغ، ولم يفعل، ظهر الأمير مساعداً.. كان فخماً بطريقة لا تصدق، جبتة من حرير أخضر لماع، عمامته فارهة وبلون

الضباب، ومن لثامه الوردي تتدلى خيوط من الذهب.. مديده ل(آدم
نظر).. قال:

- اقرأ طالعي أيها الفرس..

ردد الفرس..

طالعك في السماء كما هو يا مولاي.. لم يتغير..

سحبها، ومدّها لشبرق، لآخرين.. رددوا كلهم..

- طالعك في السماء كما هو.. لم يتغير مولانا الأمير.

سحب الأمير يده بغتة.. مررها على الجميع في صفعات مؤذية

انهرست لها الأذان.. صرخ:

بل تغير إلى الأفضل.. إلى الأفضل أيها الأغبياء..

منذ ذلك اليوم تغيرت جملة قراءة الطالع المخصصة.. وكما لم
يعرف أحد ذلك (الكما هو) الذي كان سائدا في السابق. لم يعرف
أحد أيضاً.. ذلك (الأفضل) الذي تطور إليه طالع الأمير.. راقبوه وهو
ينصرف.. كانت مشيته مشية سارق للقطيع.. فيها هرولة وفيها حذر..
راقبوه وهو يحكم لثامه على الوجه.. كان إحكام متكرر في حفل دامي..
راقبوه وهو يجول بنظرات الطيور المهووسة.. كان تجواله عصياً إلى
أقصى حد. تغير إلى الأفضل.. تغير إلى الأفضل.. ظلوا يرددونها في
السر يضمنون الأفضل إلى صدورهم ويتمنون لو كانوا أصدقاءه.. نريد
صداقتك أيها الأفضل.. ولكن..

لم تكن الأنباء التي جاءت راکضة من بعيد، وشمتهأ أنوف (جوا) الحساسة، أنباء ملفقة أو مجرد طوب ألقى به المفرضون في الماء الراكد. كانوا حدوديين منهكين، ورعاة إبل وأبقار طاشت منهم قطعانهم، وكانوا جنودا بعثرت أزياء حربهم، وتخرمت الدروع على أجسادهم، وكنَّ نساء فقيرات سُرقَت من أعينهن النظرات ومن حلوقهن الزغاريد.. الكردماليون.. الكردماليون.. الكردماليون يغزون (أنسابة).. الكردماليون ينهبون.. يقتلون.. يغتصبون.. الكردماليون.. ذلك اليوم سقطت أدوار شاهقة في السلطنة، وسطعت أدوار جديدة كانت في ركود.. اندحرت القيلولات والنعاسات وأحاديث الملل والروتين، واستيقظ الحس الوطني كله، انعقدت مجالس الحرب والجداث والطاهرات، وما عادت تسمع في العاصمة سوى همهمات الذاهيين وهم يذهبون، والمودعين وهم يودعون، وطالبي الموت وهم يطلبونه.. أُجِّلَت مجالس (الكوراك) إلى أجل لم يسم.. وعلق الاحتفال الكبير بجلوس السلطان رغد على عرش السلطنة والذي كانت البلاد تترين له، في ذمة الغيب.. توقع الناس أن تتعثر القوافل، ويجوع السوق، ويدفن المزارعون غلالهم في الأرض.. توقعوا أن يرتفع سعر الدخن، والحميض، وتأخذ (اللويبا) الرخيصة مكانة غير متوقعة في التغذية.. الحرب.. الحرب.. لم تكن المرة الأولى التي يواجه فيها الأنسابيون خصمهم منتفشا على الحدود، ولن تكون الأخيرة بحسب تقديرات المعمرين والحكماء الذين قدروا للبغضاء عمرا يفوق عمر الكرة الأرضية.. ولأن سلاطين كردمال من (آل درب) هم في الأصل أنسابيون شرفاء شردهم دسائس ومؤامرات،

وأطماع في السابق، فلم يتوقع أحد أن تطير (أنسابة) من وعيهم أبداً.. وكانت محاقن البغضاء متوفرة، يحقنها جيل في دم جيل وإلى الأبد.. مئات التحرشات.. عشرات الهدن ووقف لعلعة السيوف ومرة أو مرتين، زيارات مبتسمة متبادلة.. لكن الدم هو الدم.. وسيلانه هو سيلانه.. الحرب.. الحرب.. خرج المنادون بالأوامر السلطانية إلى جميع أنحاء السلطنة.. من كان يقوى على القتال فليأت.. من كان يقوى على دق النحاس، فليأت، من كان يقدر على مد المحاريب بالزاد، فليمد.. من كانت تحفظ أشعار الحماسة وتغنيها.. فهي مطلوبة بشدة.. ومن كانت ذات صوت بكاء فهي مطلوبة بشدة.. كانوا متبوعين بفصائل كتيبة الرعاع ذات الحس المشوش في تلك التورات.. كانت تفسر (من يقوى) ب(يقوى) و(من يستطيع) ب(يستطيع)، و(من كانت تحفظ) ب(تحفظ).. لموا من القرى ومن المدن ما استطاعوا له.. وحصدوا مئات الأفدنة المزروعة ذرة ودخنا كزاد، كانوا رحماء بالكلاب لأنهم قتلوها، ورحماء بالقطط لأنهم أبادوها، ورحماء بالدجاج لأنهم سلقوا بيضه، وقساء على الحمير لأنهم خططوا لاستخدامها كدروع واقية حين تنشب الحرب.

كان حي (الرديم) من الأحياء التي شملتها تباريح احتمال الحرب.. اختفت سلعه القليلة من رفوف استهلاكها، وناوشه المنادون والرعاعيون.. من كان يقوى.. من كان يملك من كانت حماسية.. لا كلب.. لا قطة.. لا فأر.. ومئات الحمير التي ستستخدم كدروع.. أخذوا الأقوياء ليقاتلوا والضعفاء ليموتوا.. والزغاريد لتنوح.. أخذوا الخصي (نجم) لأن مهمة جليلة تنتظره، والمرأة العجوز (أم الرديم) لأن الحرب في حاجة إلى كبار يحتضنون البكاء.. لم يأخذوا (ولد الحور) لأن جلده غير المصبوغ شوشهم، ولم يعطهم تصنيفاً.. ولم يأخذوا (الرزينة) لأنها لم تكن تشبه نساء الحماسة الضاريات للدخوف.. ولا نساء البكاء

المطلوب على شهداء قد يستشهدوا.

في مستقع الرعاع كان الأمير متسخاً.. جبته من قماش شعبي رخيص.. لثامه كأنه لثام راع، وعمامته هي نفسها عمامة الحاجب الفقير الذي يحمل قائمة الصائحين في مجلس (الكوراك).. مد يده إلى الأحصنة والخصيان والنوق..

أقرأوا.. أقرأوا طالعي..

(طالعك في السماء تغير إلى الأفضل.. مولانا الأمير)..

رددوا.

جاءتهم الصفعات مؤلمة، ومغية للسمع..

كما هو لم يتغير أيها الخونة.

إنها معضلة الحظ.. وربما توتر الحرب.. لا أحد يستطيع التكهن.. كانوا مستعدين لتنخر ظهورهم، ومستعدين لنمو الدامل في سلاسلهم الفقارية.. ولم يكونوا أبداً مستعدين لمجابهة تلك اليد.. في السماء كما هو تغير إلى الأفضل..

لم يكن من المفترض أن يكون لأمن السلطنة ذلك الدور المتهور.. لكن الرعاع لم يكونوا أمناء.. ولم يكونوا غير أمن.. نشطت خلاياهم كلها.. وتوقفت أعمال الرصف والبناء والتحوير، وفوجئ المجندون بتقشف التغذية الذي طالهم.. وجدوا اللحم مجرد عظام، والدخن عصائد مهلهلة كأنها تقدم لطير

كانت (جوا جوا) الآن عاصمة نظيفة.. نظيفة من فضلات الشوارع، ونكد المراهقين، وإحراج التسول، وبرك ماء الاستحمام.. ذهبوا كلهم للحرب.. ذهب السلطان رغداً، وكبير ممارسي الطب دوياجي، والمفتي لاليا البرناوي، والترزي كردم كردمان الذي فصل للكبار أزياء حربهم على عجل، ذهب السيوف، وذهبت المدى والعكاكيز، وحتى المهاجر (عباد عبد الرب) الذي كان يأمل في دور تفاوضي يكسبه لقباً جديداً،

وتركوا الجليل المهاب (يوسف كرا) سلطاناً على سلطنة بلا حياة.. لم يذهب الأمير مساعد لأن مهامه الجليلة كانت تشده للداخل.. كانت نظراته تجول في العاصمة.. إحساسه في تتبع الخلل يتركز وعينه على نائب السلطان تمنعانه من الانتفاخ أو الزهو بكرسي لن يجلس عليه كثيراً.. وكان (آدم نظر) مستمتعاً ببعض الشيء وهو تحت ثقل الأمير في تجواله.. شاهد أناساً يعرفهم، ولمح جبروتي، واقترب كثيراً من خيال أخته الرزينة الذي كان يشاهده في الشوارع.. لم يعرف أبداً أن أمه زوجته في خيالها بواحدة من جميلات (جوا جوا)، واحتفت بعياله المتخيلين احتفاءً مراً، ولم يعرف أبداً أن أخته الرزينة كانت فنانة بحق وهي تصنع حساء الطيور الجارحة والماضغة للرميات، بشكل يومي وتدلّقه..

كانت أنباء الحرب تأتي بكثرة، تأتي نقية وأحياناً غارقة في الشوائب.. يرسلها التوتر البعيد، ويهضمها الانتظار الممل دون مضغ..

قتلنا منهم مائة..

استولينا على واحدة من قوافلهم..

قتلوا منا أربعة عشر فرداً في كمين..

السلطان رغد يسعى للوصول إلى عاصمتهم (دبيرا).

الشيخ عباد عبد الرب يقول إنه سيتوصل إلى هدنة.

اسمعوا هذه الأغنية الحماسية..

خيل أبوك هرشات.

في الدرب طاشات.

راح نذك بلدك..

بي ولاد وبنات.

هاشم الملعون..

لا عنه رب الكون.

احنا أسيادك..

للبلد ما نخون.

وكانت أكثر الأنبياء استدراراً للعباب الفضول، تلك التي تحدثت عن شقراوات مشفى العناية الألهمية اللائي كن يقمن في (كردمال) بعد فرارهن الليلي والمتعجل من فتوى (لاليا البرناوي) التي صدرت في حقهن، قالوا وجدوهن نشطات وكثيرات الثثرة، ينهبن من الرعاة والمزارعين إيمانهم، يتغلغلن في وجدان ربات البيوت بحيل وحيل، ويطعمن الصغار من حلوى ملوثة، فقطعوا ألسنتهن. وقيل وجدوهن خيرات، ونقيات، ويعالجن البسطاء في نكران ذات، فأثوا عليهن، وقيل لم يجدوهن أصلاً، لأن الحرب كانت ضارية، ولم يكن بالإمكان العثور على غريب أو حتى قريب في وسط ذلك السعر.. وفيما بعد حين عاد العائدون وتحدثوا، لم يقل أحد شيئاً عن شقراوات.. وحتى أولئك الجرحى كانوا معالجين بأسلوب العلاج المتوارث.. الخياطة التقليدية.. لبخات (القرض) ومراهم النباتات التي كانت توقف النزف. وقد تزامن اشتعال الحرب مع تلك العصابات التي نظمها ذئاب البراري بعد أن أحست بالأمن في غيبة الأقوياء، كانت عصابات منظمة، وتستهدف الدجاج، وما تبقى من الغنم، وتسلطن على كثير من القرى، وترتب على ذلك أن قويت شوكة النساء الملولات وعاشقات الانتظار، فالتقطن نخوة غريبة عالجن بها الأمر.

وفي تلك الأيام أيضاً نشطت الخيالات الوسخة عن جمال (الكردماليات).. عن شعورهن التي كالليل، ووجوهن التي كالقمر، وعن أجسادهن التي تستعمر الشهوة وتشد للعباب، السبايا.. السبايا.. كان الرجال يرددون.. اللعنة للعنة.. كانت الأنسابات يهتفن.

ثم جاء الخبر الثقيل بغتة يتراكم من منبع الحرب بعد ستة أشهر من اندلاعها.. فقد استولى الأنسابيون على سلطنة (كردمال) بالفعل..

وصلوا حتى عاصمتها (ديبرا)، وفر سلطانها (هاشم درب) إلى جهة غير معلومة ربما كانت ممالك الوسط.. كانت أخباراً مؤكدة لأن كثيراً من المقاتلين عادوا، عادوا وبرفتهم تذكارات كردمالية جلبوها من هناك، وعادوا وبرفتهم جروح لم تندمل بعد، وأثار هلع نفسي كبيرة.. وفي ساحة (أنسابه) الكبيرة التي كانت مخصصة للفرح ومخصصة للحزن، ومخصصة لأشياء أخرى عديدة، تجمع أهل (جوا جوا).. وأهل الجوار وأهل تلك الجبال البعيدة الذين قدموا على عجل واسعي الأذان.. كانوا على موعد مع الأب الشيخ (يوسف كرا) نائب السلطان في خطاب مفسر للأمر.. كان خطاباً كبيراً بالفعل ألقاه صوت الهيئة الرقراق في بطء وفي تفاؤل.. وصف الذين تحملوا وزر الحرب بالمجاهدين والذين ماتوا بالشهداء والذين عادوا إلى البلاد بالأبطال العائدين.. وصف السلطان رغد بالقائد والكبير.. ودخوله (ديبرا) عاصمة التمرد بدخول النور المشع إلى أرض الظلام، ولم ينس أن يلمع فقرة خاصة يدهن بها سيرة الأمير مساعد، عين الوطن التي ما نامت منذ وجدت ولن تنام ما بقيت..

وحين سئل عن حقيقة الجرح الذي أصيب به السلطان في كتفه من سهم أثناء مطاردته للخونة في أحراش (كردمال)، وضع صوت الهيئة الرقراق بأنها شائعة ربما بثها الخونة أنفسهم إحداثاً للبلبل، ومولانا السلطان في أتم صحة وعافية.

ونظت واحدة من جيل (أنسابه) الجديد الذي غير كثيراً من زي المرأة وصوتها، وطريقة تفكيرها، إلى خلق الهيئة الرقراق..

ما موقعنا في خطة التعمير الجديدة، نحن الفتيات الأنسابيات.. أبي الشيخ؟ هل سنعمل ونعمر أم نظل قعيدات البيوت؟

كان سؤالاً مباغتاً هز في الشيخ المهاب كيانه الهرموني، لم يكن من سلطة نائب السلطان أن يقترح وأن يحل، وأن يربط، وأن يواكب الطموح المتمرد، ولم يكن في ذهنه خط واضح يسير به خلف واحدة

تحررية إلى النهاية.. تنحني واضطرب، وبانت قواطع ذهبية مخبأة بين شفتيه، قال..

حين يعود مولاي.. حين يعود مولاي..

سئل عن مكافأة الأبطال.. حين يعود مولاي.. عن دعم أسر الشهداء.. عن خفض أسعار السلع، عن دعم السلطنة للبرسيم.. عن الغلال الغائرة في الأرض وجشع المزارعين.. حين يعود مولاي.. حين يعود مولاي..

كان جبروتي والرزينة يستمعان بتأن.. ولم يكن ثمة تخيل محدد لبطل قاتل أو شهيد استشهد، ولم يكن ثمة احترام خاص لعائد عاد.. كان مجرد استماع عادي من مواطنين عاديين لنائب سلطان رقيق الحس يلقي خطاباً.. وكانت الرزينة مستغربة بشدة، ونقلت استغرابها إلى مرافقها ولد الحُور في لحظة دفته بقربها، ما الذي أعجب (آدم نظري) في هذا الأب الهرموني حتى ليموت من أجله؟ ما الذي أعجبه؟.. على العكس لم يعجبها صوته أبداً، ولا تخيلته في ذهنها المتوَعك، غير خصي عادي ربما يتجول الآن في قصر المسك طابخاً أو حارساً أو عاجناً للحميض.. فقط كان الفرق في نظافة الكبار وعمامة الضباب الفخمة. وفي الأيام التالية تحدثوا كثيراً عن عودة السلطان رغد.. قالوا هو الآن في دبير النظيف ينشر نوره، ويتلقى بيعة الكردماليين.. وقد وضع على حكمها سلطاناً جديداً.. يخضع لسلطين (أنسابه) بالولاء، ولا يمت بصلة لعائلة (درب) المنحدر.. سيعود (رغد الرشيد) قريباً.. وستعود جمع الصباح بعودته. وكانت الأيام التالية أيضاً.. سوقاً متشعبة لمعاينة العائدين.. واحتضانهم، ومعاينة غير العائدين وبكائهم.. وقد بكى حي (الرديم) كله عندما لم تعد أمه العجوز (النسيم).. والتي قيل أنها ماتت في السفر، ولم تبلغ الحدود، وقيل دفنت في العراء، ولن يعرف قبرها أبداً.. وقد أقام لها الحي جنازتها المبهجة كما لو كانت قد ماتت بداخله.. كانوا

يدفنون خرقها القديمة، يدفنون أكواب شايها، ومواقد صناعة بنها،
وكانوا يقرءون القرآن، ويتلقون العزاء.. وقد لطمت في ذلك الشأن
مئات الخدود، شقت مئات الجيوب، وهطلت من أعين الرجال دموع
الفقد. وقد كان ثمة اقتراح نفذ على الفور، وهو تحويل بيتها الفقير إلى
مزار.. يذرف بداخله الدمع كلما اشتد اكتئاب الحي أو تأزمت أنفاسه.
(نَجَّام) الخصي عاد.. كان مغبراً، وبلا ضفائر، ولا لمعة هرمونية.. كان
طَبَّاحاً مرافقاً.. وناطحاً مترهل الصوت ومساعداً لنساء الحماسة في
مهمتهن الشاقة والجليلة. ومن بين دموع ناداها من قاعه، وفي حضرة
أهل الرديم الذين تجمعوا من كل جحر لمواساته.. حكى عن الحرب
كأشنع ما تكون الحكايات.. قال الحرب رمة.. الحرب ليست بنت
ناس.. الحرب كادت تقتلني.. وكما توقعت الخيالات الوسخة، فقد جاء
بعض العائدين بالسبايا.. كن كردماليات مسكينات، كن فتيات لم يبلغن،
وأرامل بلغن، وتزوجن وفقدن، وكن أمهات مكسرات الشعور، وأقرب
للخدم منهن إلى مدرات الشهوة.. تنفست الأنسابيات بارتياح، وسكنت
الخيالات لا تتحرك. وحين عرضن في ساحة (أنسابة) الكبيرة بعد مدة
من تلك الحرب، كن يعرضن كعذابات إنسانية أوجدتها حرب الطمع
وحرب الخسارة.

-9-

جمعة الصياحات المفتقدة بعد غيبة طويلة فرضتها تعاسة الحرب، ازدانت أشجار (الهجليج) التي تمنح الظل والمأوى بأعلام (أنسابة) الخضراء والوردية، دهنت حوائط قصر (المسك) بأبيض لماع استورد من خارج السلطنة على عجل، دهنت نوافذه بالأخضر الزرعي، وباب المهوقني الذي يتوسطه، بأزرق شفاف كان يمنحه البريق.. ملئت أزيار الفخار المكلفة بالسقاية حتى أعناقها.. طيرت في السماء حمامات بيضاء للسلام، وبركت في الطرق التي تؤدي إلى قصر الصياحات، ماث الدواب التي حملت الأعلام الخضراء والوردية أيضاً. كانت السلسلة السباعية في زي جديد، وكان الحاجب نفسه في زي جديد والخصيان الذين يحرسون ويروحون ويجيئون بأزياء جديدة أيضاً. جاء أهل (أنسابة) كما لم يجيئوا أبداً من قبل وحتى في الجمعة الظليلة، جاءوا من رأسها الفاحل ورأسها الممتلئ ضجة.. من بطنها الممتلئ عزة، من أكتافها التي تحملت الوزر، ومن ساقها اللتين لن تنفرجا أبداً لمفتر كان كرنفلاً نابضاً حياً.. أحيته أنامل الجدات في عزفها على الطبول الصفراء، وتحريك الأرجل المنغمة بالسكك والخرز، وفي صوت الجدة (تمائم شريف) وهي تغني قصائد العودة المرتجلة. وطهارة الطاهرات التي كانت وجوها غضة، وفوانيس ملونة، وضافتر شديدة السواد يخفقها العقيق. طفن على الجموع بمباخر مزركشة تضخ عطر الصندل، وقناني بنية اللون فيها هذيان مسك.. وحين أمر السلطان شخصياً بترطيب الحلوق بشراب القضم المنقح بماء الورد، صفق الناس حماساً ورهبة. حضر ملوك الأرياف كلهم.. حضروا بالبسة المناسبات المطرزة، وعمائم

الضباب الفخمة، وعلى أحصنة أصيلة لم تكن تستخدم إلا نادراً. حضرت أرامل الشهداء، ونساء العائدين، حضر أطفال اليتيم، وكأن أرواح الموتى نفسها رفرت بابتهاج في تلك الجمعة الجديدة الطعم. وقف (حلحلوك) المجنون تحت شجرة هجليج ظليلة.. في يده علم أخضر يرفرف.. في رجله عناقيد خرز قديم.. في عينيه لمعان قنديل متوهج، ومن فمه تساقط حكايات المجانين التي كانت في طيها حكم..

(قابلت الخائن (هاشم درب) في صحراء (أم حلق) اليابسة.. نعم قابلته.. ارتمى فوقي وقال عضني يا حلحلوك.. عضني أرجوك.. فهربت منه.. هل أعض خائناً.. بذمتكم هل أعض خائناً؟

لم يكن الناس يضحكون، ولا كانوا يكون، فقد بدا أنهم استنفدوا الضحك واستنفدوا البكاء، وما عادت سوى مشاعر موحدة تجاه (أنسابة) العظيمة..

هبط الجليل المهاب عن فرسه الأسود المخطط، على أيدي عبيده الخارقين، ثبت عمامة الضباب السوداء على رأسه، وخطا بحذاء جلد النمر المغاربي إلى داخل القصر.. هبت رائحة مسك.. مد الجميع أعناقهم. هتف هتاف، وزغردت مزغردة، وصرخ الحاجب الذي عند الباب..

- الأب الشيخ (يوسف كرا).

دخل الحكيم دوباجي مبجلاً.. والمفتي لاليا البرناوي منتفشا، والترزي كردمان مرتدياً لواحد من أزياء السلم الجديدة والمفضلة بعناية.. وكان هناك العشرات من رسامي المناسبات من داخل السلطنة وخارجها، ينتشرون بأقلامهم، وقماش فنههم.. يلتقطون.. ويوثقون.

كان (نجم) الآن ممتلكاً للرزينة نظر بالكامل بعد أن تركت بيتها تماماً وأقامت في بيته. كان توهانها معضلة، وعدم توهانها معضلة، وإصرارها على النكش الدائم لشعرها، وبعثرة أضرار الفساتين، أعباء

أخرى تضاف إلى أعبائه. وحين كان في مهمته الجبلية في الحرب، كانت تغذى بالنبق، وتأكل الحميض نيئاً بلا طبخ، وأجلت حتى سواك أسنانها وترتق الثقوب في فساتينها انتظاراً لعودته.. لم تكن تجدي عتابات أمها المكثفة، ولا اعتبرت جبروتي سوى أبكم وأصم، لا يسمع ولا يستطيع التعبير اضطر نَجَام أن يستأجر حماراً لنقلها إلى زحام الجمعة، اضطر أن يمشي معتدلاً، وبلا ثوب مرتفع إلى مستوى السرة ولا ضحكة مجلجلة حتى لا يلفت النظر، أنزلها من الحمار برفق، وأجلسها في ظل إحدى أشجار (الهجليج)، وسجل اسمها في قائمة الصائحين الطويلة في ذلك اليوم. كان قد مضى عام ونصف على صياحها الأول.. وكانت يائسة ولا تملك فرصة الحل، لكنها تملك فرصة الصياح.. قال السلطان.. صيحي بعد عام.. وجاءت الحرب لتضيف إلى ذلك العام ستة أشهر بغیضة.. هي تعرف الآن أين أخوها، وتعرف كيف يحيا، وتستطيع أن تقسم أن ظهره يؤلمه بشدة، وأن روحه المعنوية في الحضيض.. وأن عشرين دمل على الأقل ماثلة في جسده.. تعرف أنه لو عاد لن يعود أخاها.. وهي تريده.. تريده حتى لو كان فرساً مستهلكة تريده، لو كان ناقة عابرة للتخوم.. تريده.. وخلال رعاية نَجَام لتوهانها، عرفت أن ثمة فرصة لتلحقها قبل أن يتحول أخوها إلى خصي.. رجل وضده.. لا تريده كذلك. لا تريده كذلك. كانت قد كتبت وقبل انتقالها إلى بيت (نَجَام)، رسالة إلى جبروتي ولد الحُور، وبخط التائهاات اللائي تعلمن الكتابة في سن مستهتر، قالت له فيها..

(إن كنت ما تزال تنتظر ردي.. انتظر.. وإن كنت مللت الانتظار.. لا تنتظر يمكنك أن تأتي لتأكل وتشرب وتنام أيضاً.. فقط لا تنظر إلى وجهي.. لا تنظر إليه أرجوك..).

وفاجأها جبروتي بأن جاء متعطراً بعطره الجديد.. عطر الانتظار.. طلب أن يأكل الحميض، ويشرب (القنقليز)، ويسترخي قليلاً على

وسادة، ولم يرفع عينه إلى وجهها أبداً.. وكتبت إلى أخيها آدم رسالة
ومزقتها.. قالت..

يمكنك أن تنهق كحمار.. وتطن كبعوضة، و(تبرطع) كناق، وتأكل
القصب والبرسيم، وتحمل سفاسف الأمور على ظهرك بلا نهاية، لكن
لا تعد بلا ذكورة.. لا تعد بلا ذكورة أرجوك.

كتبت إلى نفسها.. أفيقي يا رزينة أو موتي.. أفيقي أو موتي..
الإفاقة تعني حياتك، والموت يعني فشلك في الاستفاقة. وحين التقت
بالمهاجر (عبد الرب) بعد عودته من الحرب بلا لقب جديد يضاف إلى
سلسلة ألقابه كما كان يأمل.. قالت له.. هل يجوز البكاء على موت
النخوة يا شيخ؟ هل يجوز الحداد؟

عاملها المهاجر كأثنى عارية برزت فجأة في طريق تدينه، أشاح
بوجهه بعيداً.. وبث الخطى مبتعداً عن عريها وهو يرتعش.. ليست سوى
(نعيمة) أخرى جاءت لنسف ألقابه من جديد.. تعمدت أن تصادف (لاليا
البرناوي) مفتي ديار (أنساب) خلال تسوقه الذي كان يحرسه العبيد
بضراوة.. أراحتهم بقليل من الرقة، وكثير من التشنج وسألت البرناوي..
هل يجوز البكاء على موت النخوة يا شيخ؟ هل يجوز الحداد؟
أفتني أرجوك..

لم يفتها البرناوي أبداً.. اعتبرها النموذج المتمرد للمرأة الأنسابية
الذي كان قليلاً لحسن الحظ لكنه بدأ يبرز إلى السطح في تلك الأيام..
قال..

عودي إلى الله.. عودي إلى الله يا بنية.
ولكن بطن دابته ليمضي.. جربت أن تلتقي الأمير (مساعد) نفسه..
أعدت حساء فاخراً من طيور جرحت كثيراً.. وأكلت من الرميات أكثر..
حملته في الشوارع التي فيها خلل.. والبيوت التي ظنت أن الأمير
يغشاها.. فتشت عن الرعاع بالعين التي كانت تميز الرعاع.. وعن آثارهم

بالعين التي اعتادت آثارهم، وحين وجدت الأمير أخيراً.. وسلمته الحساء الذي كان كثيراً وفاخراً، وفيه حبهان، وقرقة، لم يقل الأمير شكراً.. ولم يعطها أذناً لتثرثر أو تشكو أو تسأل عن أخيها.. وأمر رعاه أن يعودوا بتلك المرأة السخيفة إلى بيتها وأن يستروها.. وكان مفهومهم للمستتر شعراً مقصوصاً، وفما مكهما. جربت أن تسأل أباه في قبره، وأن تعاتبه في قبره ولم يكن أبوها سوى ميت ولم يكن القبر سوى قبر السلطان في مجلسه ويتلقى الصباح.

كانت الصياحات في أغلبها تشنجاً فرحاً بالنصر الكبير الذي حدث لشعب (أنسابه)، وحماً للسلامة بالعودة الظافرة، وترديداً لمقولة النور المشع الذي أضاء ظلام كردمال والتي ردها الأب الشيخ (يوسف كرا) في خطابه التنويري.. صاح الكبار وصاح الصغار.. وصرخت امرأة من إحدى قبائل جنوب (أنسابه):

مولاي السلطان.. أريد زوجاً شريفاً.. أريد بطلاً عائداً من النصر
أريد أن أتعلم الشرف وألد أولاداً شرفاء.. أرووك.. أرووك.
وجاءها الرد قائمة بأسماء أبطال عادوا ربما تفيدها في الاختيار.
وصاح واحد من المعمرين.

مولاي السلطان.. أريد أن أحتفل بالنصر.. أريد مجلساً للأجداد
مشابهاً لمجلس الجدات.. أريد طبولا أريد خرزا ملونا. أرووك..
أرووك.

وكان الرد تحية سلطانية خالصة ووعداً بالنظر في الدستور.
صرخ حلحلولك المجنون في هياج مستمد من تداعيات الحدث:
أريد جارية كردمالية بلا وجه.. وقصراً في (دبيرا) وليس على أرضها..
وحماراً أسود اسمه هاشم درب.
وسقطت نداءاته عند ذيل السلسلة لم تتعده.

وكان في قائمة الصياحات أبطال عادوا، لم يكونوا طالين لحوائج، ولا هاتفين متشجنين، فقط أبطالاً عادوا، وأرادوا أن يصيحوا في تلك الجمعة. وكان أكثر الصياحات شدا للانتباه، ذلك الذي صدر من رسامة فرنسية قدمت من بعيد، وكانت توثق لذلك النصر الكبير صاحت بلغة لم يفهمها أحد، ولا نقلتها السلسلة، ولا كان ثمة رد.

الرزينة نظر حباب.. ابنة راعي الأغنام نظر حباب.. الرزينة نظر حباب..

صانع الطبول يا إبراهيم.. صانع الطبول يا إبراهيم.. لا يهم. وقفت عند ذيل السلسلة مستندة على أمومة نَجَامِ المبهرة، ومتابعة بحرص من عيني ولد الحُور الذي تبع توهانها وحمارها حتى مجلس (الكوراك).. ليست واثقة من النتيجة، ولكن واثقة من حلقتها:

أريد أخي (آدم نظر) يا مولاي.. أريد أخي يا مولاي.. أنا يتيمة يا مولاي.. أنا وحيدة يا مولاي.. أروك. أروك..

نفس التفاعل البشري حيال رقة مسكينة.. نفس الهمسات.. يا كبدي.. وكثير من التوقعات بأن السلطان في نشوته العظيمة تلك، لا بد سيسجيب.. عاشق الرقة كيف يحرص الرقة للمرة الثانية؟ وتكهّنات هامة.. لا بد أنه أحب صوتها وأراد أن يسمعه يعطر مجالس (الكوراك) باستمرار.. وتكهّنات هامة أكثر.. لا بد أن لمسك النساء دخل في الأمر والرزينة خائفة، والرزينة واثقة بأن لا نتيجة، ونَجَامِ أمها وأختها.. وجبروتي يحس بالعطش، وأم الرديم ماتت، والتنجر بعيدون.. والفرس في خطر.. والأمير بالداخل وعشرون دقيقة انقضت..

الرزينة نظر حباب ابنة راعي الأغنام نظر حباب.. طلبك مرفوض يا بنية.. لا تصيحي في هذا الشأن مرة أخرى..

طلبها مرفوض؟

- لا تصيحي مرة أخرى؟

لابد أن السلطان قد كبر أو لابد أن أذنيه ما عادتا تذوقان كما
في السابق.. في المرة الأولى تعاطفوا بجسارة، وفي هذه المرة يتعاطفون
بجسارة أشد.. من أجل ماذا كل هذا؟ ولد صغير صاح عن جهل..
وولد صغير كان يمكن أن يزجر وفئاة رقيقة تتلوى، وفئاة رقيقة تستحق
حرير القصر.. من أجل ماذا كل هذا؟ حوروه إلى حمار، وإلى فرس
وغداً قد يحور إلى سلالة نجّام. فكر الكثيرون أن يصيحوا تعاطفاً،
وفكر الكثيرون ألا يصيحوا إلا تعاطفاً.. وبدت جمعة النشوة كأنها
جمعة تعاطف جماعي.. حملت الرزينة إلى الحمار المتهالك.. حملت
بأيد أرادت أن تحمل الرقة، وأيد أرادت أن تحمل المسكنة، وأيد أرادت
أن تحس بأنها أيد في الوطن ومن الوطن.. كان نجّام الآن أمها الحانية
أكثر، لم يترك دموعها تسرح إلى أبعد من المنابع، لم يترك صفائرها
تجف من زيت (كركارها) العنيف، ولم يترك للحمار فرصة للشقاوة،
وأن يلقيها عن ظهره.. كانت في الهيام كامل المواصفات.. ذلك الذي
يصطنع الألغاز ويحلها.. يتساءل عن شجر ((الهجليج)) المبتوث في
الشوارع.. هل هذه نوق جائعة؟ أم قوافل محملة؟ أم جبال؟ عن حفر
الشوارع.. هل هذه آبار مالحة؟ أم أشلاء ناس؟ عن ألوان عصافير (ود
أبرق) الملونة.. هل هذه أقواس قزح التي تأتي مع المطر؟، وعن الأمومة
الكاملة للخصي نجّام.. هل هذه وسادة قطن؟ أو ملحمة صوف؟
أرادت أن ترى أباه بأي ثمن.. وأن تصافح (أم الرديم) بأي ثمن، وما
قبلت أن تسمي العقارب والثعابين المتوفرة بغزارة في الحي إلا الأطفال
الصغار.. والمساكين.. وكان أصعب ما واجهه (نجّام) أثناء تهدئتها هو تلك
المقارنة التي كانت خارج النص، وأدخلتها الرزينة إلى النص قسراً..
اعطني مرآتي.. اعطني قلم الكحل.. اعطني مرطب الوجه.. اعطني.. ثم
بعد ساعة حين صرخت:

- من هي الأجل.. أنا أم مسك النساء؟ قل يا نجّام.. من هي الأجل

أنا أم مسك النساء؟

كان الخصي قد عمل في قصر السلطنة (مسك النساء) كجزء من تدرج الوظيفة حين حور إلى ضد.. وقبل أن يستعيده الأمير لطهي حسائه.. شاهد السلطنة كاملة وغير كاملة، وشاهدها في لحظات الهيام المحموم، والثورة الطاحنة، والغيرة العمياء وحتى حين كانت تصرخ في وجه (رغد الرشيد).. وهو يسترضيها.. قارنها بالرزينة على الفور ووجد في الرزينة بقعا من السكر لم يشاهدها هناك.. وشاهد هناك بقعا من سكر مختلف لم يشاهدها هنا.. كان الطرح في حد ذاته خطرا.. ويده التي امتدت لتسد حنك الخطر كانت قوية لأول مرة.. اسكتي..

لن أسكت..

اسكتي..

لن أسكت..

أنت أجمل.. صديقي.. كان يهمس ويده التي قويت ما عادت قادرة على كبث الصراخ.. أنت أجمل.. إذن لماذا أحتقر؟

لم يحتقرك أحد.. كل شيء نصيب..

نعم كل شيء نصيب.. التي نبتت في بؤر الفقر نبتت من نصيب، والتي مات أبوها من نية الحج، مات من نصيب، والتي كانت زوجة لبائع حلوى (الدرادم) اللزجة وتسلطنت، تسلطنت من نصيب.. والذي بترت رجولته في مستنقع الرعاع، بترت من نصيب.. و(آدم نظر) صاح.. صاح بالنصيب.. وأنت يا نجّام.. أمي وأختي.. هذا نصيبك.. هدأت في النهاية.. طلبت شراباً مرطّباً.. وأمسكت بيده التي كانت قد عادت إلى رقتها، أدخلتها بين طيّات شعرها المزيّت.

سار (نجّام) في حي الرديم الذي بدأ ينام في تلك اللحظة، متجهما، ضفائره النامية من جديد بعد أن عاد من الحرب، تتأرجح من

هواء مؤرجح، وقميصه الذي ارتفع إلى مستوى السرة، ارتفع عن انفعال إنساني.. كان قدره عجباً بالفعل.. ليس الذي اصطفاه ليكون واحداً من أبناء قبيلة (البيقو) عديمة الجدوى، ثم من الرعاع، ولا الذي أحاله إلى رجل وضده وهو في عنفوان الصبا، ولا ذلك الذي صيره طبّاخاً للرميات التي لا يمكن أن يتقبلها فم.. ولكن ذلك الذي قربه من الفتاة الجريحة وفي كمال جرحها.. في البداية كان يعتبرها مجرد فضولية دخلت إلى حياته من مدخل مشفر، هو مدخل أخيها ومدخل الحساء الجارح. وحين اقتربت واقترب أحس بأنه مسؤول حتى عن دموعها.. وسهاد عينيها. كان يود لو أنصفها.. لو كانت له سلطة الأخذ باليد ليأخذ بيدها، يسلمها للسلطان ويستريح.. لو كان يملك أن ينظر في عيني الأمير، لنظر فيهما.. وبث في ظلامهما المريع مأساة الرزينة التي تستوجب إعادة النظر هو لا يعرف أخاها.. ولا يعرف مقدار وزنه في تلك العائلة المأزومة.. لكن لا بد أن له ذلك الوزن الذي يجعل أخته تموت وتموت. لقد فكر كثيراً أن يستجدي.. يستجدي الأمير لإعادته إلى الخدمة، لا ليفلت من قدره في التصاق الرزينة، ولكن ليرتكب هفوة العمر التي قد تخرج المنادي السلطاني.. يصرخ في شوارع (جوا جوا)، ناعياً أميراً ضالاً مات بالسم.. فكر كثيراً.. وتسحب في أيام عدة من التصاق الرزينة لبشم التغيرات، ويرسل إلى الأمير، وينتظر الرد، ولكن إعادته إلى الخدمة لم تكن واردة أبداً.. لقد أغلق الأمير ملفك.. يا سفيه.. أغلقه إلى الأبد.. هكذا خبره الرعايون، وهكذا أجهضوا أحلامه في إنهاء تأزم الرزينة.. لا يستطيع.. لا يستطيع.. يبكى في شوارع الحي كلها.. وبكى حين خرج من الحي وسار في أحياء أخرى.. ملفك مغلق.. مغلق.. ولن تستطيع شيئاً سوى تجفيف الدمع. كان (جبروتي) حلاً آخر تبادر إلى ذهنه.. لماذا لا يسعى إلى تزويجها من ذلك القصديري العاشق، ويحملة مصيرها؟ لماذا لا يسعى؟.. لكن الرزينة تفكر.. هكذا أخبرته، وهكذا أخبره ولد الحُور..

تفكر إلى متى؟ فقط تفكر

جلسا هو وجبروتي في أحد الأيام يستعرضان التوافه كلها.. كان مغتما وولد الحُور يرصعه بنظرات المغص.. ويكاد أن يسأله عن تفاصيل الرزينة التي لم يقو على قراءتها إلا في أحلام التفاهة المتعمدة.. خلاصا إلى نتيجة واحدة.. خلصت إليها الرزينة قبلهما.. وتكاد أن تكون السلطنة كلها قد خلصت إليها.. (آدم نظر) لن يعود (آدم نظر) أبداً.. والرزينة لن تعود الرزينة أبداً.. وجبروتي لن يصنع العطور إلا مضطراً.. ونجّام لن يفقد أمومته المكتسبة أبداً، ونقطة البدء المعتمة.. هي نفسها نقطة النهاية المعتمة.. عاد إلى بيته بعد تلك الجولة المتجهمة.. وجد الفتاة نائمة.. وجهها فيه نمش لكنه وجه ساحرة.. شعرها مدلولق على الوسادة لكنها دلقة مفاتن، وفي فمها ابتسامة الأطفال حين يتسمون وخمن نجّام.. لا بد أنها في الحلم الرائع الذي يعيدها فتاة في سن سلس لم تسمع بالرعاع ولا غليان الرعاع أبداً.. غلفها بغطاء مهلهل يملكه، ورش عليها القليل من ماء الورد.. قال في نفسه.. هذا ينعش الحلم أكثر.. والواقع أن الرزينة كانت تحلم بالفعل لكن حلمها كان مختلفاً تماماً.. ليس حلم الصغار السذج، ولا حلم الفقراء القانعين، ولكن حلماً آخر.. كانت الآن في قصر (الرزانة) الذي شيد من رخام ومرمر وعلى رقعة خضراء يخترقها نهر.. كانت سلطنة في الثياب، وسلطنة في العطور وفي كثافة الجوّاري والعبيد الذين كانوا يقومون ويقعدون، وينفذون، وكانت بين يدي (رغد الرشيد) الذي قلدها قلادة من ماس ومد يده لثنايا شعرها الحريري.. والمخنوق بشرائط من ذهب.. فجأة شحبت شموع المكان.. ارتعد الضوء في الفوانيس ودخلت عاصفة كان وراءها (جبروتي) ولد الحُور على دابة بشعة المنظر، هي أخيها (آدم نظر).. استل جبروتي خنجراً، أغمدته في صدر عاشقها (رغد الرشيد)، الذي تناثر دمه على الأبسطة كلها، وعلى الجدران كلها، وحتى في الحداثق المحيطة بالقصر.. ثم شدها إلى صدره

بقوة، وحقن في فمها بصاقاً مرّاً.. كانت ثمة وحوش بحوافر وأنياب
ترعى في المكان، وامرأة بقرون من نحاس تضحك بجنون. استيقظت
مرتبكة وغارقة في العرق، وتحس بوخز غريب بين ضلوعها، وألم في
أسفل البطن.. جلست تستعيد الحلم.. تحاول تجميله بالخيال الواعي..
أرادت أن توقف الهلوسة عند عقد الماس ويد السلطان التي تنتزه بين
ثنايا شعرها.. أرادت أن تحذف الخنجر والدم، والدابة الأخوية، وبصاق
ولد الحُور المر.. لم يكن الأمر سهلاً.. ولم تستطع أبداً أن تتغاضى
عما فعله جبروتي، حتى لو كان ذلك داخل هلوسة. اعتدلت في جلستها
ونادت على (نجم) الذي كان متوفراً بقربها وساهراً، وهاضماً لنعاسها
منذ كانت تبسم وحتى لهت وتشنجت، وقامت تسبح في العرق.

- نعم يا رائعة.

ناداها بلقب طالما تمنّت أن تمتلكه، وكأنه كان يقرأ أمنياتها..
يا رائعة.. يا رائعة.. تمنّت أن يولد ذلك اللقب في صغرها، حين كان
الصغير رائعا بالفعل. تمنّت أن يولد في ميعة الصبا.. والتي لم تكن أبداً
غير ميعة فقيرة.. وتمنّت أن يولد حين صاححت في الجمع، وحين بكت..
وحين حملها التعاطف الكبير في الأيدي.. يا رائعة.. يا رائعة..
جنني بجبروتي ولد الحُور فوراً.

- لماذا؟

لقد انتهيت من التفكير.

قالتها وألقت برأسها إلى الوراء في حركة غامضة.. إذن فقد
دخل جبروتي إلى عالم الرزينة الحقيقي بقوة، أو خرج من ذلك العالم
بقوة.. كان الليل في أشد ساعاته ظلاماً، وفي أكثر أيام الشهر انعداماً
للرؤية، التفاصيل غير المكتملة.. الظلال.. كلاب الفقر تنبح بعصبية..
قططه تموء بتخاذل.. ولا بد من ثعابين وعقارب.. ومصابئ لا تعد ولا
تحصى.. كان جبروتي في الحي نفسه. ولكن الحي موحش، والرزينة

تريد جبروتي، ولن تسكت حتى يجيء..

الصباح رباح يا رائعة

لا

الناس نائمون يا رائعة..

لا

لا يوجد قمر يضيء.. لا توجد رؤية.

لا

استعان (نَجَّام) بفانوس شاحب وناضب الوقود تقريباً.. كان يمشي ويلتفت، ويقف ويلتفت، يشم عواء في الظلال، ويرى بعيني الخوف المفتوحتين شجرة تتحرك، أو كلبا يسعى إلى العض.. تجربة أمومة الرزينة.. لماذا تجربته هو دون سائر خصيان السلطنة؟ ولماذا تجيء تلك التجربة بالذات وفي هذه الظروف؟ نصيب.. لا بد أنه نصيب.. وصل إلى جحر جبروتي والمشقة ليست حوله ولكنها ترتديه.. كان الباب مواربا وكان الدخول ملاذاً، وكان جبروتي ساهراً وعلى ضوء فانوس هزيل.. لعله ييكي أو لعله يصنع عطراً مسمماً.. ولأول مرة لاحظ (نَجَّام) أن ولد الحُور كان نحيلاً جداً.. وجهه فكأن بلا كساء.. وهيكله مجرد هيكل عظمي.. وكان متأنقا في ثوب رمادي، وسروال أبيض، وعمامة أولاد العاصمة غالية الثمن. لم تكن هيئة رجل نام واستيقظ، ولا هيئة رجل نعس، ولكنها هيئة رجل لن ينام ولن ينعس. لم يكن متفاجئاً بزيارة الخصي، بل على العكس كأنه كان ينتظرها. ثمة بن يعد في موقد.. وثمة أكواب مزركشة، وترحيب أنيق هب من وسط الدمع..

اجلس يا نَجَّام.. اجلس.

جلس على الأريكة الخشبية الوحيدة في وسط جحر لم تكن فيه سوى طاولة ومقعدين وأريكة خشبية.. كان في حاجة إلى وخز البن،

فلم يرفضه.. وفي حاجة إلى التقاط الأنفاس، فالتقط أنفاسه:

الرزينة تريدك يا جبروتي.

لم يكن متفاجئاً أيضاً.. وحاول أن يشم أي رائحة ربما تنبعث من زيارة الخصي نجّام.. رائحة الفرح يتوقعها، ورائحة الحزن يتوقعها أيضاً، وأن يكون صرصوراً واجب الدهس تحت قدمي الرزينة، يتوقعه أيضاً.. بالأمس كان أولاد الحُور الاكثائيون عنده.. سألوه عن أخبار مهلة التفكير التي طال أمدها وحولته إلى شجرة (سيسبان) مهلهلة، وحاولوا أن يجروه إلى النهاية التي كانوا يتوقعونها، وربما هو أيضاً كان يتوقعها لكنه.. أراد توقعا أفضل.. هل تظنها تقبل؟ انسأها يا حبيبتنا.. انسأها.. ثلاث سنوات تكاد أن تكون قد انقضت منذ أن اهتز ولم يثبت بعد ذلك أبداً، يوم وداع الوفد العزائي كان يوماً تافهاً.. أدخله إلى سجن الرزينة دون عطف.. ليته ركب ناقته وانصرف.. ليته اهتز ثم سافر كما فعل الآخرون.. في قرية (أم حراب) كانت النزوات عادية وقابلة للزوال.. توعدك الأعصاب يأتي ثم يرحم، لكن نزوته في الرزينة هي النزوة الخالدة. وتوعدك الأعصاب فيها هو التوعدك الذي بلا شفاء.

هل قالت لماذا؟

لا

إذن هيا.

دخلا في الليل.. في الخوف.. في الظلال.. في السمر الذي قد يجيء، وفي الثعابين التي قد تهجر الشقوق.. لم تكن ثمة كلمة متبادلة.. نجّام بالثوب حتى مستوى السرة، والهـم حتى مستوى القلب.. وولد الحُور حزينا.. وخائفاً.. وخطط لمستقبل غامض في ريفه البعيد.. قد أفتح متجري في (أم حراب).. قد تعفو عني أُمي الغالية حين ألثم رأسها.. قد يقبلوني مزارعاً أو حطاباً أو غاسلاً للموتى.. قد أتزوج.. قد أنجب.. وعندما وصلا إلى بيت نجّام.. كانت (قد أموت) هي الفكرة

الأخيرة التي تولدت في ذهن ولد الحُور.. قد أموت.. نعم.. قد أموت..
كانت المرة الثانية التي يدخل فيها بيت (نَجّام) برغم لقاءات المغص
بينهما والتي كانت تتم غالباً في الطريق.. يكرهه لأنه سلب الرزينة من
عينه.. ومن نطاق مراقبته، ويحبه لأنه أبقاها في صدر أم لا في صدر
رجل يشتهي.. تناقشا كثيراً بالألسن.. وتطاولا على بعضهما، وسبا قبائل
البiquo والتنجر والمساليط والبراquid سباباً بلا حصر.. لكن المحصلة
واحدة.. الرزينة عند نَجّام.. والرزينة في قلب ولد الحُور.. ولا بد من
تفاهم.. فكرته عن الخصيان كانت مشوشة، وكانت هي نفسها فكرة
الخصيان عن أولاد الحُور.. الشياطين التي تتبع.. الخبث والوسواس..
ولعنة الدنيا والآخرة.

كان بيت نَجّام مرتباً.. المقعد يبدو مقعداً، والسرير سريراً، وأدوات
الطبخ لا تقل اكتمالاً عن أي أدوات طبخ في مطبخ نسائي.. يقول أنه
تخصص في حساء الطيور الجارحة، ويقول مطبخه أن تخصص في كل
شيء.

جئت به يا رائعة..

مجدداً يا رائعة.. ومجدداً ارتعاش الغرور في الجسد الهائم.. أين
كنت في طفولتي.. نَجّام.. أين كنت في صباي، ولماذا يا رائعة بعد أن
تمزقت الرائعة.

نعم يا رزينة..

لم يقل يا رائعة.. جيروتي ليس أنيقاً في الكلام.. ولا بارعا في
المواساة كالخصي نَجّام، ولا تهمة من كل تلك الدراما المتشابكة منذ
أن اختفى أخوها، إلا رعشة الحب.. حسناً أحببتني.. وصنعت العطور
من أجلي.. وهجرت الريف لتظل قربي.. وتقدمت للزواج مني..
ووضعتك في مهلة قاسية.. وأنت تنتظر.. وأنا لا أحبك.. وأنا لم أفكر
وأنت مسكين.. دمعتي ستنحدر..

- جبروتي هل ما زلت تنتظر ردي؟

- نعم أنتظر.

بالمسكنة نفسها.. بالإذلال الذي ما استرد أبداً كرامة.. شماعة الظروف.. شماعة الفتاة الجريحة.. اليتيمة والتائهة والتي تنتظر أخا في ذمة الرعاع..

- أنا آسفة يا جبروتي لن أتزوجك ولن أتزوج أي رجل آخر.

- لماذا؟ لماذا يا رزينة؟ لماذا يا رائعة؟

يا رائعة دون قصد.. في لحظة الصدمة يتكسر اللسان.. وينشف الريق.. وبرغم توقعه للنهاية، وبرغم أنه حزم أغراضه الهزيلة بالفعل وصفى تجارة العطر، وراسل أهله في الريف يشهرهم باقتراب العودة، وبرغم أنه باع سراويل غالية كانت مدخرة للعرس، واعتذر لمدعوين يعرفهم ووضعهم داخل مهلة التفكير نفسها، وبرغم أن الرد جاء، وأن الريف هو الريف وما يزال فاتحاً ذراعيه.. إلا أنه صدم.. تراجع إلى السوراء.. تقدم للأمام.. بكى بأبيض العين وأسوده والرموش كلها.. ولم ينصرف لأن قدميه كانتا مشلولتين.. ولم يبق لأن البقاء ذل.. والتصق بباب الخروج ولم يخرج..

سامحني أرجوك.. سامحني..

يأتيه صوتها التائه ولا يأتيه، ويشاهد دموعها، ولا يبصرها.. وتسند يد خصية.. لا تبك يا أخي.. والصبح يصبح، وفقراء الرديم يتوافدون.. لا تبك يا أخي.. وأولاد الحُور الاكتتابيون عادوا.. حملوا السم والمشنقة، ولوازم الخصى كلها من سكاكين وخيوط، وزيت حار لكي العورة وإيقاف النزف.. لا تبك يا أخي.. وأم الرزينة معتلة، وتنهدت بارتياح، لا تبك يا أخي، وناقة محملة بالخزي والجروح، وعابرة للتخوم.. وجبروتي إلى الريف بلا ذكريات تروى في أمسيات قاحلة تشوق إلى الذكريات.. لا تبك يا أخي..

وفي مستنقع الرعاع.. وصلت رسالة لم يقرأها أحد، لأن لا أحداً كان معنياً بالأمر، ولا أحداً كان يملك عيناً لقراءة المشاعر، أو مسامير الحب الناخرة في العظم.. تكفي قراءة الظلام والكابوس، وتكفي قراءة الطالع البذيئة لأمير يتغير طالعه إلى الأفضل، أو يبقى كما هو..

(أنا جبروتي إدريس جبروتي.. مواطن أنسابي عريق، وتنجري من قبيلة راسخة وذات جذور.. لم يكن ذنبي أن ولدت بلا صبغة وأنني ولد حور.. أنا حيوي وحيوي حتى النخاع لا ينقصني شيء ولا أشكو من شيء.. أنا فنان وشممت عطري بنفسك.. هل تذكر عطر السطوة الذي حرك مشاعرك؟ وصنعت عطورا للنضارة لم يصنعها أحد.. أتحدى.. هل تدري لقد كنت أبلها للغاية.. أبلها حين بقيت والناس يستعدون للسفر وحين أحبيت ورضيت بالعذاب في مهلة ظالمة.. وحين تركت أمي.. وإخوتي وبنات الريف اللاتي لم يعشقنني لكنهن لم يقذفنني بالحصى. هل تدري أنت أيضاً كنت أبلها.. أبلها حين استضفتني وحين أكرمتني وحين ذهبت إلى الهلاك بقدملك.. وحين لم تغط وجه أختك وهي بهذا الجمال، وحين لم تسكت صورتها وهي بهذه الرقة.. وحين قبلت أنت بي وهي لم تقبل.. الرزينة أيضاً بلهاء.. وتافهة وتستحق أن تجلد بمائة عصا خيزران.. هل تعلم لماذا؟ لأنها تبكي والسلطان لا يكي.. لأنها تخلت عن مجلس الطاهرات.. وهي تعلم بأنك لن تعود.. ولأنها تنام في صدر خصي، ولأن فرصتها الآن في أي شيء.. هي بالضبط فرصتي أنا في شيء.. أنا الآن في قرية (أم حراب) الصدر الدافئ الذي لن يلقي بي للصقيع.. قد أعاد تجارتني.. وقد أصنع عطوري.. وقد أعمل في الزراعة أو الرعي.. وقد أموت.. قد أموت.. وكانت الجملة الأخيرة معضوضاً عليها بشدة، كأنها خيار أول، ولكن رحلته الظروف إلى آخر الرسالة.

وصلت الرسالة، وتمزقت.. وانقطع توافد الرسائل.. لكن الأمر

لم ينته، ففي تلك القرية الثانية في بلاد (التنجر)، كانت ثمة مهلة أخرى وضع ولد الحُور نفسه داخلها.. إنها مهلة تفكيره هو.. تفكيره في أن يوماً ما ستشرق الشمس.. من أي منحى.. لا يدري.. ولكنه يفكر

ظهرت (السحابة) جدة السلطان مجدداً في حياة (الرزينة) وبعد غيبة قاحلة ظنت فيها الأخيرة أن لا سحابة ستمطر في عمرها أبداً.. لم تظهر في هيئة الجارية التي ستكلف بتبييض الجلد من فقره، ولا سبائك من الذهب من نقش اليهودي (عامير) تتدلى من عنق أو أذنين، ولا عطور مسك سلطانية ترسل في الخفاء إلى حي الرديم، ولكن في هيئتها المبهجة.. السحابة جدة السلطان رغد، ورئيسة مجلس الجدات صاحب الرأي والحكمة، كان دخولها إلى حي (الرديم) ترفاً لم يستطع الحي احتمالها، اضطروا إلى نحر شاة عجفاء، وردم برك العفونة في الشوارع العرجاء، وتزيين مدخل ومخرج لابد سيقعان في نطاق رؤيتها.. السحابة ليست كالرعاع الذين لا يحبون أصلاً أن يُستقبلوا أو يُودعوا، وليست كالسلطان في يوم الاحتفال بجلوسه على العرش، حيث يخترق الأحياء واعياً لقساوتها وواعداً بالتنظيف، ولكنها الرمز الذي يجب أن تنظف له حتى الأسنان إن دخل حياً كهذا. قادها العبيد والخصيان المرافقون مباشرة إلى بيت الخصي (نَجَّام) حيث كانت (الرزينة) تحاول الاعتدال مجدداً بعد أن تقوست مشاعرها من جراء الظروف والتصاق ولد الحُور، ثم ذلك المجهود الذي بذلته حتى استطاعت نزعه من حياتها. تأملت الجدة (نَجَّام) بطرف عين وعرفت فيه ذلك المتكبر الذي سمي نفسه كبير الطهارة، حين كان يقيم في قصر (المسك)، طلبت أن تقابل الرزينة، وقابلتها، وارتجت المقابلة، وارتفعت الأصوات، وأسفر كل شيء عن لا شيء..

لن أعود إلى زمرة الطاهرات لأطفئ الحرائق أبداً.. لن أحمل فانوساً في موكب أبداً.. أذناي تعجباني هكذا بلا أقرط، وعنقي أحلى

كثيراً بلا ذهب يهودي.. لن أعود حتى لو عاد (آدم).. اتركيني يا جدتي..

خرجت السحابة من حي الرديم متكدرة، كان بإمكانها أن تضرب الرزينة، وأن تقتلها، وأن تمحوها، وأن تحولها إلى جارية أو فتاة ليل.. لكن شرف الجدات كان أقوى، وما لم يحدث اليوم قد يحدث غداً، وهي أيضاً معذورة، أخوها في خطر، ورأس السلطنة لا يستجيب.. تذكر حين كنت تأوي إلى صدري يا رغد.. حين أحكي لك الخرافات.. أخرجك للنعاس.. وتنفس بالفعل.. هل تذكر يوم باركتك سلطاناً وأبوك لم يمت ولم يدفن في تربة بعد.. هل تذكر؟ لا أستطيع جدتي.. بذاءة الألسنة أشد الخيانات والسلطنة لا تستقيم إلا بالقانون ولو عفونا ما ترك لنا الخائنون جنبا نرقد عليه. خرجت كبيرة في نظر الكثيرين، ولم تصغر في أية عين أبداً.. وفيما أتى بعد ذلك من أيام كانت تلميحات عديدة تأتي، ووعود عديدة تأتي.. والعناد الضال هو نفسه العناد الضال لكن الأمر لم ينته بعد.

-10-

مرحلتك الأخيرة أبي الشيخ..

الأخيرة التافهة التي قد تصبح بعدها دومة أو دمامة أو الخصي (دمدوم) في قصر المسك.. عند السلطانة الأثيرة، أو طاهي الحساء الجارح لرجل المهام الجليلة، أو المضفر في وسط الأغاني الحماسية والنواحات، ولكن ليس (آدم نظر).. ليس (آدم نظر) أبداً..

بدأت بالهمس، ثم بالصوت الضخم، بالفحيح، باللقاءات المباشرة وغير المباشرة التي كانت تتم في الأكواخ.. في الجحور الرطبة لمستنقع الرعاع وتحت نيران العطش والاكتئاب.. مرحلتك الأخيرة أبي الشيخ.. بالأمس طلب الأمير رؤيتهم كلهم.. الحمير والأحصنة والنوق، والجراد، وفيران البؤس، وأولئك الذين تحوروا إلى الضد، رجال وضدهم.. طلب رؤيتهم في جحره الخاص، وأمام خرائطه اللعينة التي كانت تضيف وتحذف.. وتختلق البدع. لم يكن ملثماً.. وما اهتم بإزالة المخاط من أنفه، وأثر اللعاب الصلد حول شفتيه.. جبته هي الجبة الشوارعية المعتادة.. وحذاءه هو الحذاء الذي عند الحاجب إبراهيم في فوهة مجلس (الكوراك).. حذاء جلد الحية المرقطة. كان ثمة رمل تناثر عليه الحصى.. وكان ثمة صوت آمر..

اجلسوا..

جلسوا حول بركة الرمل لا يعرفون ألم الضرس من ألم الكلى، ولا غروب الشمس من طلوعها، ولا يستطيعون التكهن.. هل ما زال الحظ ثابتاً كما هو أم تغير إلى الأفضل.. بالنسبة ل(آدم نظر).. كان ثابتاً.. وبالنسبة لآخر، كان متحركاً.. وبالنسبة للفرس (شبرق).. كان..

ولكن أين الفرس شبرق؟.. تذكره الأصدقاء فجأة.. تذكروا أياما عديدة لم يشاهدوا حوافره ترعى في المكان.. ولا سمعوا شخير المتكظم، ينتظم في الكوخ.. لم يشاهدوا الأمير على ظهره، ولا جاءت سيرته في التقارير التي ترفع عقب كل غارة ناجحة.. الفرس كان مؤدبا.. كان مطيعا.. لم يفرز سائل الدمامل في هذه المرة.. نوصي بإطعامه وجبة إضافية.. الفرس آدم كان يتساءل وما دام لم يكن هو من يحمل الأمير، ولا حملة (شبرق) في تلك الأيام الماضية.. فما الذي يحدث في مستنقع الرعاع؟ طافوا على الجحور كلها.. المبخرة والمعطرة والتي فيها رائحة ثعبان يختبئ.. طافوا على القدور كلها.. التي تطبخ الدخن والتي تطبخ الحميض والتي فيها رائحة رميات جارحة.. ضفائر الضد وضده.. وحتى في عنابر الذين أعفوا من الخدمة ويبتغون إنهاء أحزانهم.. أين ذهب الفرس (شبرق).. الرعايون طيبو القلب، الذين يحملون الرسائل، وما قصروا أيام غليان (جبروتي) في حمل رسائل الاكتئاب إلى (آدم نظر).. لم يحملوا رسالة من شبرق.. الأخبار التي ترد من قصر المسك، وإخوانه القصور الأخرى التي تضم المجد الحريمي.. ما تحدثت عن طاه جديد أو حارس جديد.. أو منسق للحدائق له وجه شبرق، وجسد أخواته البنات.. إذن ليس فرسا.. ليس واحدة من النوق المتمركزات في المستنقع.. ليس الطهاة اللينين والمنكسرين، وليس أي حجر أو طوبة أو شجرة للهجليج.. فنانو علم الرعاع لا يفسرون.. الأمير لا يمكن سؤاله وأفكار الأصدقاء لا تهمد.. خلصوا إلى النتيجة التي لاحت لهم وحدها.. شبرق الفرس.. وشبرق الصديق وشبرق الذي كان من المقرر أن يتحول إلى الضد بين ساعة وأخرى بعد أن توعكت حوافره، مات.. مات..

بكي الرفاق بغزارة، وبكي (آدم نظر) بالحرقة الفعلية.. ليس على شبرق وحده، ولكن على لجة الطريق التي انفتحت أمام خطواته الآن،

وكان الفرس القديم يغطيها.. في البدء كان خوفه من التحور الهرموني..
والآن من الموت.. من الموت.. فقد مات شبرق.. من القاع نادى
لعنات الفسق كلها.. وظفها في لعن الصياحات ونتيجة الصياحات..
وجليله المهاب الذي هو أيضاً في النهاية خصي.. لكن في منصب
يغطي العورة حتى لا يكاد يعرفها أحد.. كان آدم يعرف.. وعرف منذ
زمن.. وصاح وهو يعرف.. ولم يستطع أن يجمع جبروت الصياح.. وهو
يعرف.. والآن يعرف.. فقط.. لم يكن يعرف أن في الأمر راعاً.. ظنها
رمية من غير رام قد تصيب ويرفضها، وقد تخفق وترفضه.. ما وظيفة
ذلك الأب الشيخ؟ وما موقعه من الدنيا التي غادرته حين غادرها من
باب الذكورة الذي هوى.. أكيد مثل (قلب الأسد) الذي لن يعود إلى
(حرّة المملطنة) ولا غيرها.. أقاموا العزاء السري للفرس شبرق.. أبوه
بالدمع والعواطف ودفنوا قميصاً مهترئاً في باطن الأرض.. وقالوا.. لقد
تخلصت من غازات البطن.. تخلصت من وحل الطرق.. من الحصى..
وبخار الدمامل.. ومن تلك الصفعات الأليمة التي تعقب قراءة الحظ..
كما هو تغير إلى الأفضل.. إلى رحمة الله يا شبرق.. إلى رحمة الله
يا حبيبنا.. ولكن ماذا لو عاد؟ ماذا لو كان في مهمة وسيعود؟ لا
لا يقول الفرس (آدم نظراً).. يقول الضد (عائق).. تقول الناقة (سرور)،
وتقول العلامات البذيئة التي لا تشير أبداً إلى عودة مفتقد.. بحيرة الرمل
في وسط اختبار الأعصاب.. والحصى أسماك من التفاهة، والأمير
يتلثم.. والأمير يصرخ..

اقرأوا حظي ولكن عن طريق ضرب الرمل..

ضرب الرمل؟ لم يكونوا رمالين.. أبداً.. ولا كانوا في الأصل
قراء كف معتمدين قبل انضمامهم إلى هذا العالم.. وما كانوا يقرأون
كف الأمير إلا خوفاً، وإلا ارتجالاً، وإلا ترديداً لجملة، وأخرى تصدق
إحداً أو تخيب.. اقرأوا يا تافهين.. تافهون بالفعل.. وأنفهم أنا حين

تعلقت بالحلم الخصبي.. وحين تخليت عن أُمي.. عن الرزينة.. وعن
ولد الحُور الذي كان صديقاً مخلصاً.. يقول آدم في سره..
مولانا الأمير.. اعطنا يدك..

ليست يدي بل حصي ورمل على الأرض اقرأوا.. تافهين.. كان
ثمة بصاق مر.. ولعلها صفعة مؤلمة تلك التي تلقاها فأر.. أو حمار..
اقرأوا.. تشتتوا في بحيرة الرمل.. كل وحظه، ومجموعة الحصى التي
قد تشنقه أو تخرجه من ذلك الجب.. ألقوها في بحيرة الرمل.. رددوا
بالتتابع ودون أن يقرأوا لغة الحصى التي لم يعرفوها أبداً..

حظك في السماء كما هو لم يتغير

حظك تغير إلى الأفضل..

حظك كما هو.. ولكن يسير نحو الأفضل..

- حظك تغير إلى الأفضل وعاد كما هو..

وكان الفرس (آدم) شقياً حين صرخ..

- حظك اليوم ليس كالأمس ولكن مثل الغد مولاي الأمير..

استمع الأمير إلى تلك التفاهة المرتعة بنفاد صبر.. وبآذان تخيلها
الخائفون قد قفزت.. وتمشي بينهم.. تناول لثامه المتسخ.. غطى به
وجهه، وارتشف رشفة جبارة من حساء حار كان بخاره يتناثر.. حساء
الطيور الجارحة.. نهض واقترب من بحيرة الرمل.. شد الفرس آدم من
لجامه..

كيف كان بالأمس.. وماذا سيصير في الغد؟

كان ممتازاً وسيصير ممتازاً..

- صدقت.

قالها رجل المهام الجليلة، وارتخت يده عن لجام الفرس.. وفطن
الآخرون لأول مرة إلى جملة (آدم نظر).. إذن فقد حل ذلك الشقي تلك

الشفرة التي أرهقتهم زمانا.. ليس كالיום ولكن مثل الغد.. ليس كالיום ولكن مثل الغد..

بغته دخل المساعدون الذين لم يكونوا أبداً من الرعاع الفقير المتقى من جبال البؤس وأحياء الزبالة.. كانوا أمراء أو أبناء أمراء أو ملوكا للأرياف ولكن تبدلت مهامهم بطلب من رجل المهام الجليلة.. كانوا يجرون كلبا بحجم ثور.. يا الله.. كلب بحجم ثور.. من أين جاءوا به؟.. لا بد أنها خمسون كلباً حشيت في جلد ثور.. أوقفوه أمام الأمير، واضطر المذعورون أن يفرقوا في بحيرة الرمل حتى يفسحوا له المجال.. تلقاه الأمير بابتسامة كشفت عن نابين في حجم خنجرين حادين.. هل يتسم؟

يا أهل (أنسابه) هل يتسم رجل المهام الجليلة؟.. مؤكد يتسم.. ومؤكد يضحك، ومؤكد له مشاعر مخزنة.. ولكن ليست للرعاع الفقراء.. لم يسمعوا أبداً إنه أحب، ولا سمعوا عن نية للزواج، وفي الوقت الذي كان الأمراء ينفون أطفالاً إلى حريمهم.. وصل مساعد إلى سن النضج الذي يبحث فيه الآخرون عن زوجات أخريات.. ابتسامته ليست جميلة.. وفي أنفسهم بحقد أشد.. ابتسامته كأنها لدغة..

- هذه دابتي الجديدة..

وهو يمسك بلجام الكلب..

هذه دابتي الجديدة..

دابتك الجديدة؟ الحمد لله.. إذا فلا بناء ولا تحوير بعد هذه اللحظة.. ونحن الأحصنة والحمير والنوق.. هل ستعاد آدميتنا؟ لا بد ستعاد.. فرحوا.. يقرأهم.. ويشخر.. للمناسبات الهامة فقط.. ليست للحصى والرمال والغارات والمداهمات.. الصدمة التي ما كانت ستحدث لو لم يجد الجديد ويتسرب.. حولوا أعينهم إلى الدابة التي بحجم ثور.. ما أفظع شكلها.. ما أعرض ظهرها.. ما أقوى تحملها

للمشاق وغازات البطن.. ولكن للأسف.. كانت للمناسبات الجليلة وما أندر الفرح الجليل في (أنسابة).. نهضوا بإشارة من رجل المهام، تفرقوا بإشارة منه.. ومشوا في ضغينة المستنقع بإحساس نظراته التي تكوي في الظهر..

مرحلتك الأخيرة أبي الشيخ.. وطلبات عديدة من قصر المسك، وزملائه القصور الأخرى.. وفي انتظار الرد.. يبحثون عن طهارة.. عن حرس للتمرد الناعم، وعن سقاة للورد الأحمر والأصفر والبنفسجي.. يبحثون عن مدلكين وحنائين، وماشطي شعر، ووصلته رسالة ملونة من (قلب الأسد - قلوب).. زميله القديم:

نتظرك في قصر المسك.. يا دمدوم.. لا تتأخر..

إذن فدمدوم من سيعيش داخله، ودمدوم من سيعيش ليخنقه.. ودمدوم من سيعيش بحبي الرديم ولا يستطيع أن يدخله إلى الأبد.

كان الآن بلا حوافر.. بلا وجبات مقوية ولا أكاسير للنشاط، وبلا إحساس الفرس الذي هو فرس وكان يحسه في السابق.. حتى غرة العنق الأصلية أحس بها باهتة، وثمة رعشات جديدة كأنها رعشات أم، أو رعشات أخت أو جدة، أحس بها تغزو جسده.. وكمحاوله يائسة للبقاء فرساً أو الاستطالة إلى ناقة، حام حول نظرات الصقور المهووسة كثيراً، تمطى حول الأمير، وركض لساعة كاملة، دون انهيار، لكن نظرات الصقور ما عادت تلتقطه.. وأحصنة جديدة ترعى، وكل شيء يتأرجح، وكل شيء يضيع.. والنصيب.. النصيب..

جاء المصممون أخيراً.. أخذوه إلى تلك الغرف البعيدة المعزولة، والصلدة الجدران، والتي فيها روائح الدم وروائح العفونة.. ولوازم التحوير كلها.. السكاكين.. الزيوت الحارة.. خيوط التغليف وأكاسير لم الصراخ والصدمة.. لن يكون العمل سهلاً لكنه سيكون.. يصرخ.. طبعا سيصرخ.. يبكي.. طبعا سيبكي، ويموت.. ممكن.. ممكن.. في

تلك اللجة التي لا فكاك منها.. وتوابع الصيحة التافهة في الجمعة
الظليلة.. لو أمسك به المهاجر (عبد الرب) وعلقه من أذنه.. لو تعلقت
الرزينة بثياب الأخوة.. صرخت.. لا تصح.. لا تصح.. لو مانت أمه
في تلك الجمعة بالذات.. وذهبوا للدفن والناس يتصايحون.. لو حرك
ذلك الكبير المهاب ساكننا.. وهمس في أذن السلطان.. ولد مستهتر
يا مولاي.. ولد أخطأ يا مولاي.. ولدي وأعلمه الأدب يا مولاي..
ولكن بذاءة الألسنة.. وتبع الإحساس الذي يقود في النهاية إلى العالم
المخفي.. ولكن بالصفائر والكحل، واللمعة الهرمونية.. لن يكون العمل
سهلاً.. لكنه سيكون.. وتستغرق بذاءة التحوير أياماً فقط.. اصمد..

يا لتفاهتك يا جبروتي.. يا لسوء تفانيك وسوء تقديرك للأمر..
ومن قرية أم حراب التي تتكئ الآن على عشبها وحليها، وصدور
أمهاتها.. ما تزال تتعقبنا؟ نحن الأسرة التي تمزقت، نحن صانع الطبول
الذي لم يحجج.. الرزينة التي لم تحتمل حبك.. الأم التي تترمل في تفان،
والصبي الذي يمشي إلى الضد دون أي خيار..

تأتي الرسالة الجبروتية الجديدة.. تأتي وبنفس المواصفات، وخط
العرشة، والرزالة، وتضيع لا يقرأها أحد.. لأن لا أحداً كان معنيّاً بالأمر،
ولا أحداً كان يملك بؤراً إضافية في العين لقراءة رسالة لا تعني شيئاً
لأي شيء:

(أنا مستقر في الريف.. في الصدر الدافئ الحنون.. أمي سامحتني..
إخواني سامحوني.. وزبائني القدامى عادوا إلى السؤال عن عطوري..
هل تعلم كم سائح أجنبي افتقدوني، وكم مرة سأل عني الشماس عبود
أثناء مروره على أم حراب؟ حتى فتاة البادية تلك.. التي حدثك عنها،
عادت لتستقر. فقط شيء واحد افتقده.. وأتمنى لو عدت إلى مهلة
التفكير التي هي أعذب من الحياة خارجها.. طلب وحيد أيها الصديق..
أؤمر الرائعة أن تفكر مرة أخرى.. لم أستطع نسيانها.. وفكرت أن أعود

ولكن بأي صفة؟ قل لها أن تفكر.. لا أريد زواجها ولكن العيش قربها كشخص تقدم ووضع داخل مهلة للتفكير.. انتظر ردك.. انتظره على أحر من الجمر).

الرائعة في الرسالة الرذيلة.. والرائعة في لغة (نَجّام).. والرائعة في أمنيّاتها الشخصية، ولكن أي روعة الآن؟

كان (نَجّام) وبعد جهود خارقة أمضاها برفقة السفليين، ومتعاطي طب الفقير وموقدي جمر العين الطارد للحسد، قد أفلح في علاج الرزينة.. ذهب بها إلى (ولد أعرج) اللامع أصلاً، و(شقلة) الذي بدأ يلعب، و(غندور) المنطقى منذ عهد..

الرزينة أنا عكازك الصلد.. اتكئي علي.. أن أمك الحانية.. ابكي على صدري كما تريد.. أنا أخوك.. أنا أختك لا تكتمي سرا..

تكئي على العكاز الصلد، على صدر الأم، أخوة الأخت والأخ.
وفي حضرة أولئك الماديين والجشعين، والذين يقيسون طوله وعرضه، ونظافة ثيابه.. يطالعونه بقرف، وينادون دنائره من داخل مخابثها.. كان يوضح ويوضح بشدة:
نحتاج فقط إلى تطيب خاطرها.. ليس أكثر من ذلك.. صدقوني يا شيوخ.

من قال تطيب خاطرها فقط؟ الفتاة التي تبكي بلا انقطاع، والتي تنسى وتفقد الطعم، وتتغذى بالنبق والحميمض المر، والسلطنة كلها خيرات؟ من قال تطيب خاطرها فقط..

كانوا يقيدون ذراعيها الرقيقين بحبال متينة.. يجلدونها بعصي الخيزران الأمية وجذوع (الهجليج) القوية.. والتي لا تفرق بين جسد وجسد.. رقة وخشونة.. ييخرونها تحت الملاءات بأوراق كلها طلاس.. ويصقون على وجهها في كل لحظة.. تف.. تف.. تف..
- لماذا تبصقون؟..

لنطرد شياطينها..

- ولماذا تلك القبضات القوية على العنق؟ إنها تختنق تحت القبضات..

- نطرد شياطينها.. أسكت.. أسكت..

حذفوه من حضور الجلسات أكثر من مرة، وهددوه بتحويله إلى قرد أعور لو رفع صوته أثناء طقس العلاج.. يسكت الخصي متورماً.. يسكت على مضض.. أن يكون أما للرزينة هذه معضلة.. وأن يكون أما ملتاعة.. هذه معضلة أكبر وفي اليوم الذي قالت فيه الرزينة اسمها كاملاً دون تلثم، وقامت إلى شعرها، مشطته بحنكة، ولمعت وجهها بمرطبات الوجوه.. قالوا لقد شفيت.. عاد بها إلى بيت أمها الذي طلبت أن تذهب إليه.. وراقبها لعدة أيام، وهي تكنس.. وتطبخ، وتعد الأكاسير لأمها المريضة.. ثم تنهد في ارتياح..

الآن تخلصت من أمومة الرزينة.

وكانت سعادته في أشدها حين جاءه أهل الرديم كلهم.. الكبار والصغار والمرضى والمتعكرين، كانوا يشكرونه على ذلك الواجب الكبير تجاه عائلة نهش الزمن لحمها.. لا شكر على واجب.. كنت أؤدي واجبي..

وفي أحد الأيام، انتهك الرعاع بغتة أجواء الحي الفقير.. كانوا من الكثافة بحيث غطوا الفقر، وغطوا الحفر، وغطوا رائحة التوابل في القدور، وتوزعوا في النسيج (الرديمي)، خلأيا ومسامات، وقنوات مضم. ولم يكن رجل المهام الجليلة بينهم. وكان أكثر ما لفت النظر، وهيئ الفضول، ذلك الورد الذي كانوا يحملونه، والعطور التي دلقوها في الحفر، وأقمشة الكتان والحريير التي كانت مكومة على ظهور دوابهم. مروا من زقاق إلى زقاق ومن منحني إلى منحني، وتوقفوا عند بيت الخصي (نَجَام) وحده دون سائر بيوت الحي التي كانت مشرعة

تلتهم. طرّقوا على الباب طرقات زائر عادي.. انتظروا الرد بانتظار زائر عادي، وحيوا صاحب البيت بتحية الزائر العادي للغاية.. الذي ينتظر الإذن بالدخول. وأخذوه ليس مكبلاً ولا ممغوصاً ولكن ممجداً تخنقه الزهور، ويفوح من جسده هذيان العطر. كان الحي كله مشوشاً، ولم يعرفوا مغزى لتلك الحادثة بالذات، فلو كانوا يريدونه لوظيفته القديمة في طهي الحساء الجارح، لأخذوه صاغراً، ولو كانت ثمة تعليمات لهرسه، لهرسوه واقفاً، وحتى لو أرادوا مثانته، لاقتلعوها من أحشائه دون إبطاء.. وبلا ترف في تلك الحراير والعطور، وذلك التهذيب الذي لم يره أحد في السلوك الرعاعي من قبل. إذن لا بد أن نجّام يتألق في حظ مباغت.. مرشح لوظيفة ملك من ملوك الأرياف.. كبير حقيقي للطهارة في قصر المسك وعند السلطنة الأثيرة.. حارس عالي الرتبة لواحدة من بنات رغد المتمرّدات.. وهم يأخذونه كان يستخدم أسنانه في ابتسامات مزركشة، يستخدم شعره في الرمي والاستعادة والرمي والاستعادة، وعلى ظهر الحصان الذي وضعوه فيه، كان قميصه أعلى قليلاً من مستوى السرة. كانت الرزينة حاضرة واستفسرت، وكان الخصي لا يعرف ولم يرد، وكان الرعاع سريعين في المشي بحيث اختفوا والرزينة فاعرة عيونها.

وفي أحياء أخرى مشابهة أو مختلفة تكرر المشهد ذاته بجدارة.. الرعاع المقتحمون.. العطور والأحصنة ولمعة الحرير، والسلوك الراقي، وخصي أو عدة خصيان، يعاملون برفق، ويستلفون من بين السكان فقط بلا رزينات يفرون العيون عند استلافهم.

ماذا يحدث في سلطنة (أنسابة)؟

ماذا يحدث في (جوا جوا)؟

وماداموا يكرمونهم بهذه الأريحية، فلماذا يتقنون؟، وإذا كانوا سيلغونهم من بنية المجتمع وتقاليده، فلماذا هذه الأريحية؟

انتشرت الشائعات في (جوا جوا) بأحجامها المختلفة.. النحلة جداً والمعتدلة، والبيدنة التي لا يقوى أحد على رفعها إلى اللسان: يرسلونهم إلى كردمال المحررة لتعليم نسائها التطريز.. والطهي.. وتنسيق الحدائق.

- يكونون منهم جيشاً نظامياً.. حتى إذا حدثت أي حرب رموهم في الواجهة.

- يكونون بهم مجلساً مبعّلاً أشبه بمجلس الجدات، تقديرًا لعطائهم في الحرب الأخيرة.

- يسخرونهم لحلب البهائم وتغذية النوق.
يتقنون من بينهم أباً شيخاً جديداً.. خلفاً (ليوسف كرا) الذي مل السلطان من وجوده ويسعى إلى تغييره.

تلك الشائعة الأخيرة بالذات كانت في غاية البدانة، ولم يكن من السهل حملها والطواف بها.. إلا لقليلين لم يكن يعينهم أي شيء.. وإذا كان الصباح أمنية بتقلد منصبه كما حدث في شأن الصبي (آدم نظر)، عد بذاءة السنة واستوجب التهذيب، فكيف إذا انطلقت شائعة تقصيه عن ذلك المنصب بالفعل وتضع مكانه خصياً مغموراً.. كان الناس لا يدرون، ولا يستطيعون أن يدروا.. يلتهمون الشائعات، فيهضمون بعضها ويتقيأون البعض الآخر.

جمعة (الكوراك) التالية كاسدة على غير عادة الجمع التي كان الازدهار فيها أمراً حتمياً.

كان الموسم حصاداً للذرة والدخن والقمح والحميض، وكان المزارعون يحصدون.. قوافل جديدة من صعيد مصر والحجاز وتمبكتو واليمن تتقأ في السوق، والتجار يغرفون.. خريف قاس شوه الطرق.. ومد من أيام السفر.. وأهل القرى والجبال بعيدون وجمعيات غير مأوفة نشأت لثقافة المرأة الأنسابية وتعليمها المستقبل.. وفوائد الرضاعة

والنساء منشغلات.

كان ((الهجليج)) ظلاً للقليلين.. أشجار الفخار سقاية لعطش
قليل.. صياح من هنا.. صرخة من هناك.. أغثني.. أنصفتني.. أروك..
و(حلحلوك) المجنون يصرخ:

بلا ثدي..

وليس في الأرض.

وخيل الرماد.

لم يكن ثمة متضرر أكيد في تلك الغارات الرعاعية المشذبة، لكن
سلالة الضد وضده التي لم يأخذها الرعاع بعد، وتتوقع غارات جديدة..
كانت خائفة وميتة من الخوف.. وأطلقت شائعاتها الخاصة التي لم
تخرج إلى الناس ولكن تحاومت فيما بينها.. سيفرمونا.. سيجعلونا
متاريس.. سيلغون فقرة المساواة من دستور (أنسابة).. والصراخ في
المجلس بحق.. بعمق:

(مولانا السلطان.. ماذا يحدث لخصيان سلطنتك.. مولانا يأخذهم
الرعاع.. مولانا نحن خائفون.. أروك.. أروك).

الأصوات الرقيقة الرقاقة.. أصوات الحماس.. وأصوات النواح..
أروك.. أروك.. الترقب القليل.. والترقب الخائف، والرد يأتي عبر
السلسلة..

- إجراءات عادية تمهيدا لتكريمكم.. لا تخافوا.

لكن السلطان كان متوترا، وما كان يدري حتى تلك اللحظة أن
ورودا تبعر، وعطورا تراق، وخصيانا يساقون من أحياء السلطنة في
مواكب جمالية مبهرجة.. وفي مجلسه الاعتيادي وسط جلسائه العاديين
ليوم الجمعة، أبدى نواجز غير مبتسمة، وحك جلدأ لم يكن محتاجاً إلى
حك.. والتفت إلى رجل المهام الجليلة..

- ما الذي في ذهنك بخصوصهم يا مساعد؟

- اتبع إحساسي يا مولاي.

نظرات الصقور المهووسة فيها غرابة، والصوت نفسه كان غريباً،
وتذوق السلطان تلك الوجبة وكان فيها طعماً مرا..

ولماذا إحساسك يتبع هؤلاء.. لماذا يا مساعد؟ الطباخون..
الكناسون.. ذوو الشعور المضفرة.. لماذا هؤلاء؟

أحاول كسبهم يا مولاي.. أقربهم للسلطنة.. أمتحهم القليل وأنتظر
منهم الكثير..

(رغد الرشيد).. اليقظ والمهلوس، والحاكم الذي لو طنت بعوضة
حول أذنه لأوجسته. منذ أعوام طويلة اخترع رجل المهام الجليلة، اخترعه
من صلبه أولاً، ثم من تلك الخيوط المبعثرة التي سمح له بتضفيرها،
صدَّره إلى الناس.. إلى معيشتهم، وتجوأهم، وغرف أحلامهم المجهدّة،
وما أحس بالخطر إلا بذلك المقدار الذي يسمح له بتلافي الخطر.. في
البروتوكولات القديمة التي سمع عنها، ومن تجربته ضد أبيه أيام مرضه
وزوغان عينيه الأحيائي عن أمور السلطنة، يعرف أن للأبناء أهواء أيضاً،
ولهم أطماع أيضاً، ولا مانع من كسب ضد كسب.. كسب السلطة..
ضد كسب الأخلاق.. وما دام (مساعد) هو القوة التي تحمي، فلماذا
لا يكون القوة التي تبطش.. ليس موضوع خصيان جمعوا وأكرموا،
وأحيطوا بعناقيد الورود.. ليس موضوع لكنة غريبة في موضوع غريب
لم يفهمه، وما أراد فهمه، وليس موضوع خطر أكيد يترصد.. ولكن
الإحساس.. الإحساس نفسه الذي صير الناس نوقاً وحميراً، وأحصنة
للكوب، ومضفري شعر ومكحلين، يطبخون لمسك النساء وجباتها
الاثيرة.. الإحساس نفسه الذي نبع في لحظة صباح متهور من صبي
متهور.. الإحساس نفسه الذي قد يتبع حتى مخادع سلطته العديدة،
ويرشقه بسهم.. اتبع إحساسك يا مساعد.. أتبعه في البعيد.. ولكن لا
تقترب.. لا تقترب.. يا بني.. يا حبيبي.

التفت إلى رجل المهام الجليلة هذه المرة بتصلد السلاطين الذين لن يخسروا حرباً لأن رجالاً قد يموتون، ونساء قد يترملن، وأطفالاً قد ييتمون، وسلعاً قد تشح، وميهاً راکدة قد تظل راکدة.. عراقا السلاطين الذين يتذوقون طيب المسك.. وطراوة النساء، وهتافات الحشود، وزيتي الحياة الدنيا، ولن يسمحوا بأي حال من الأحوال لطيب المسك، وطراوة الجوارى وزيتي الحياة الدنيا، بإطالة سهادهم حتى الفجر في أيام سلطنة أبيه (نفر المقدم).. وتحديدًا في أيامها الأخيرة كان ثمة تصلد يتفكك، وكانت ثمة عراقا تزول، وسهاد والده امتد بالفعل حتى الفجر، وكانت المداخل كثيرة ومتعددة، وكان الليل عند (مسك النساء) تحريضاً وعامراً بالثرثرة، وكان الحراس قد بدأوا يلينون، والأمن الذي في يده.. هو (رغد الرشيد).. في يده أكثر.. ولم يكن في حاجة إلى جبة جديدة، وعمامة جديدة، وحصان جديد، ولم يكن في حاجة حتى إلى تغيير جلسته التي يجلسها.. لأنه كان في النهاية سلطان (أنسابة) في وجود مريض (أنسابة)، وعاقلاً في وجود غافلاً.. والمسيطر في وجود الذي طارت من يده السيطرة.. الأمر يختلف الآن.. يختلف يا مساعد.. لم أصب بعد بمرض (الهيضة) أو (الهبوب) أو حتى جيوب الأنف.. يختلف يا مساعد:

ألغ المشروع كله.. ألغ في التو والحين.. لقد أعطيناهم أكثر مما يستحقون ومما كانوا يتوقعون.. يكفي أننا عدلنا الدستور وأثرنا السخوط.. ومنحناهم منصبا حساسا.. هو منصب رجلنا الكبير وأبنا الشيخ..

كان المهاب الجليل (يوسف كرا) حاضراً بعادة الحضور الأسبوعي.. وكان يهز رأس الضباب مؤمناً على قول السلطان.. أكثر مما يستحقون.. والواقع أن رغد لم يعطهم منصبهم، ولا كان من ابتكاره.. هو المنصب الرسمي والمعتمد.. منذ (يوسف ضو) مؤسس (أنسابة)

الحديثة.. ولو كان قد أعطى فعلاً.. فهي تلك الفقرة التي ساوتهم بالرجال ومنحتهم حق الشهادة..

- صدقت يا مولاي.. صدقت يا مولاي..

صوت الهية الرقراق.. والذي يأتي من الشفافية، وكأنه الصوت البديل.. الصوت المستعار.. الصوت الذي ما من المفترض أن يكون.. تلك الجمعة وقبل أن يلتم ليلها، وترتع كلابها، وقططها وأشباحها.. عاد الأضداد كلهم إلى مخادعهم.. عادوا بوجوه لم يمسهما الضر، وأزياء أشد لمعة من أزيائهم، وعادوا بالكحل وزيت الضفائر ولكن بالسنّة كسولة وفيها شهية للصمت.. عاد (نَجّام) إلى حي الرديم.. نَجّاماً أجل مسكه يعقب، وقميصه في مستوى السرة، وكان ثمة خاتم من ذهب العيارات قد أضيف إلى إصبع الإبهام في يده اليمنى.. التف الرديم حوله.. كانوا يسألون ويلحون، ويعاودون ويلحون، ولا نشاط يظهر في اللسان.. حتى رقة (الرزينة) لم تحركه، كانت رقة محببة وعلى العين والرأس لكن لا شيء.. لا شيء يا رائحة لا شيء..

كيف لا شيء.. والجمعة ارتبكت، والسلطان حائر والجليل المهاب تحدث.. والأمر احتد.. وأنت عدت؟ كيف.. كيف يا نَجّام؟ لا شيء يا رائحة.. مجرد أحداث في مجرى الحياة.. نعم.. مجرد أحداث.

الآن في غرف التحوير البعيد، وبين مضخات عطر الألم، ومضخات ماء الجفاف، يتم كل شيء، ووفقاً لذلك النصيب.. الذي صاح في الجمعة الظليلة، الذي كان بذئ اللسان، والذي حور إلى فرس يحمل الغازات.. والذي تطلبه القصور المعطرة في إلحاح..

مرحلتك (القصورية) أبي الشيخ..

مرحلتك الطاهية، والمنسقة للحداثق، والكانسة للأبسطة، والحارسة للتمرد الناعم.. والمدحرجة نحو غوامض قد لا تستطيع حلها..

اندس المصممون في منبع هرمونات الذكورة، أزالوه بحنكة.. في
مصعب الهرمونات.. أحالوه إلى رماد يسبح في لبخات نبات (القرض)
المطهرة، والزيت المسخن، والحمى الانتفاضية التي أعقبت، وبركوا
يغسلون هذيانها..

يوم.. يومان.. شهر.. شهران.. ليالي مسهّدة.. صباحات فيها
اضطراب غدد، ورائحة توهان.. ثم في تناول اليد.. ضد جديد.. خصي
واسع الحوض، ومضفر الشعر، ومقترن الحاجبين، ويملك الثوب الذي
يرتفع حتى السرة، والصوت الذي ينوح أو يغني الحماس.. ويملك
المؤهلات كلها.. لوظيفة لا تمت بصلة لصناعة الطبول التي تجري في
دماء العائلة..

لم يكن يصرخ أبداً، لم يكن يئن أبداً، وما انحدرت من العين أي
دمعة فقد على شيء عزيز أو غير عزيز، أو تحسر على مستقبل.. الذي
صاح في ذلك اليوم البعيد، والذي حور الآن.. والذي يخرج أباً شيخاً
مهلهلاً.. ليس في الواقع من حي (الرديم) المرهق، ولكن من مستنقعات
أشد قسوة ومرارة.. في الأيام الأولى خاف من عاهته كثيراً.. طالعها
وانتفض وأحس بالغثيان، وحين تتابع الزمن وأصبح للعاهة مرفعها
العادي وسط عادية الجسد ما عاد شيء يرج أو يسبب الغثيان.

-11-

قصر (المسك) من الداخل المخفي..

داخل النرجس، والمرارة، ومصاييح الزيت الملونة، ومطابخ اللذة والتعب، والطموح الجارح.

الحريم.. الجواري.. حراس الحريم، وحراس الجواري، وامرأة الحب المزركشة والدافئة، والمسنة الأظافر، والتي تعرف من أين تؤكل أكثاف السلاطين، وفي أية ساعة تمسكهم رجال بيت لا رجال مجالس، وحالبي ريالة لا حالبي وعود، وجائعين بالفعل.. لا مجوعين لسلطنة بأكملها.. السلطنة (مسك النساء)..

كانت هندسة المعمار في (أنسابه) حتى وقت قريب، ضحلة للغاية، البيوت من الروث، والقش والصفيح، وجذوع الأشجار اليابسة، ومن طين أبيض فقير لا يعطي لمعة أو زركشة.. وكانت بيوت السلاطين والأمراء، وبعض التجار وملوك الأرياف، من طين أحمر محروق.. كأنه خامه البناء الأرستقراطي.. وكان في الواقع مجرد لون.. ولكن بلا معمار.

سلطنة الطين.. كان المستكشفون والعاثرون، وقساوسة التبشير ذوو الطباع الغربية يسمون سلطنة (أنسابه) هكذا، والتي كانت سلطنة طين، وقش وصفح، وسلطنة خيام من الشعر يضرها البدو المقيمون في العراء، وحول القرى والمدن.

كانت مشكلة (يوسف ضو) وهو يؤسس، ويرسم، ويخطط لسلطنته.. هي كيف يلم (أنسابه)؟.. يلمها أمزجة وصراعات.. وسحراً وخرافات، وخامات فتن وتناحرات.. ومدى وعكاكيز، وسيوفاً بارزة

للتحر في أية لحظة؟ وقد لَمَّها بالفعل.. قضى على صعلكة (آل درب) الذين كانوا حَكَّاماً بلا مقومات، ولا هبة ظاهرة. وشردهم إلى كردمال المجاورة، ليحكموها بعد ذلك مستفيدين من ضعف العشائر على أرضها.. لأن يوسف ضو القادم من بلاد شمالية في التفكير وشمالية في الإرادة، وتقدير الأمور، والمغامر، والفارس والمجروح والجراح، كان ذا عقل ليس منفتحاً كمصراع باب أو مصراع بايين، ولكن كمصراع خمسين باباً مجتمعة.

أيدوه كلهم.. وسلطنوه على تلك الهذيان التي لَمَّها في قرى ومدن، وجبال وعاصمة، وصحراوات، حولهم من مزارعين بلا غلال إلى مزارعي غلال وغلال ناجحة.. حولهم من تجار اللحم الصيد والخرز المحلي.. وأخشاب الغابات، إلى تجار لهم تجارة حق.. تأتيهم عبر القوافل من كل صوب تنجه إليه العيون.. وحولهم من فقراء أيديهم في التهلكة، إلى فقراء أيديهم في التهلكة الأقل.

كانوا يغنون..

(يوسف ولد أبوي.. يوسف.

الصقر أبو عيون.. يوسف.

الصدر الحنون.. يوسف.

قلام المحن.. يوسف.

ما بخاف من عدو.. يوسف.

وما بنقض وضو.. يوسف).

قصر المسك من الداخل المخفي..

صرعات القلل ذات الحواف المذهبة، وأزيار الفخار ذات الأغطية التي بلون الشفق.. والأسرة المفردة والمزدوجة، والمنسوجة من حبال خضراء وبنفسجية.. صرعات النداء المنغم عند الطلب، والصفعات الأليمة عند تأخر الطلب، رحابة الصالات التي لم تصنع لتستخدم،

ولكن لتلك الأَبصار في ذلك التجوال المريع، كان للخدم زِيهم المميز، للجواري خطواتهن المميزة، ولمرأة الزينة الرئيسية فروع عدة تنتشر في أرجاء القصر كلها.. مائدة الجمعة الصباحية.. هل هي مائدة؟ هل هي كنز؟.. هل هي استعراض شقي؟ هل هي؟ وحفلات الزار.. والتقية من الحسد التي تؤمها نساء الوجهاء.. هل هي حفلات؟ هل هي استعراضات؟ هل هي؟

كانت (مسك النساء) امرأة لبائع متجول لحلوى (الدرادم) اللزجة، معشوقة الأطفال ومسيلة لعابهم، والتي تصنع محلّياً من الفول والسكر والعسل بتقنيات فقيرة.. ومهما بيعت ومهما نفدت فهي السلعة الفقيرة.. للبائعين الفقراء.. ذات الإيراد غير المنتظم، وصانعة الحياة التعيسة التي قد تخلو حتى من ردة القمح، وعصائد الحميض وقناديل الذرة المحمصة.. في بيت من الطين الخشن كسائر بيوت (أنسابة).. في شارع غائر في الوحل والصعوبات كسائر شوارع (أنسابة).. في داخل المعاناة.. والمسكنة.. وأبناء ارتفاع أسعار الغلال وانخفاضها.. واشتعال التحرشات وانطفائها، كانت (مسك النساء) هي الطراز القابل للغطسة لو كانت ثمة فرصة للغطسة.. الطراز القابل للذوبان بجنون لو رأى فارساً على حصان أو حريراً ناعماً على جسد أو لقمة من لحم الدجاج على فم الوجه الجميل الطاعم.. الرموش المنسدلة حيناً والفارعة أحياناً.. العنق المرمرى الوهاج.. والمفتقد لزينة الكمال التي ستكمله.. الذهب المغشوش.. الفضة المغشوشة.. والعقيق المقلد من سوق الفخاريات.. ليست هي الزينة.. ليست هي الزينة.. ثمة حمى ورعشات أخرى بعيدة عن ذلك (التحت) المنسي وقريبة من ذلك (الفوق) المتألق.. ولكن لا سبيل.. لم يكن أمراء السلطنة متاحين لحب العوام، ولم يكن ملوك أريافها يعشقون جمال المدن إلا نادراً.. وما كان ثمة طريق آخر سوى البقاء زوجة، ولكن زوجة تتحسر، لبائع حلوى لزجة ورخيصة. لم تجبل

مسك النساء من زبيجة الفقر تلك.. كانت من العنف والتقلص بحيث لم تسمح لهرمون ملقح باختراقها، وكانت تزدري سوائل التلقيح كلها، وذلك بكنسها مباشرة بعد كل ليلة عاصفة.. الهمجي الفقير يريد أطفالاً ولن أنجبهم.. لن أنجبهم أبداً أيها الهمجي الفقير.. تؤلمها الريالة التي تشاهدها في نتاج الغير.. يؤلمها الصراخ الجائع، والصراخ العاري، وتسد أذنيها بحنق إذا سمعت عن أمير تزوج أو ملك ريفي أقام مأدبة.

الحرب.. الحرب..

كان الكردماليون يتحرشون.. و(أنسابه) ترد.. الأنسابيون يتحرشون.. وكردمال ترد.. يتمزق الحدوديون، يلجأون إلى القرى.. إلى المدن، ويخرج منادي السلطان إلى الأحياء باحثاً عن الأقوياء ليقاتلوا والضعفاء ليموتوا.. ونساء الأصوات الرفيعة والحادة.. ليشعلن نحاس الحماسة.. ويؤلفن المناحات..

الحرب.. الحرب..

شرك الشعوب إذا انتفخ سلاطينها.. ومقبرة ذات الشعوب إذا انهزم سلاطينها وحتى لو انتصروا..

كانت (أنسابه) تجاور الكثير من الدول.. دخلت معها في التجارة وفي الزراعة وفي موثيق أخوية كثيرة كمواثيق المصاهرة، وحماية الرعاة والصيادين، وتبادل الهدايا والابتسامات.. لكن كردمال هي العدو.. العدو الذي لن ينس أبداً أن السلاطين من (آل درب) هم في الأصل أنسابيون شردتهم المطاعم وغرست على آثارهم السيوف.. الحرب الحرب.. لا أحد سيبقى.. لا تاجر.. ولا مزارع ولا حفار للقبور.. ولا بائع فقير لحلوى (الدردام) اللزجة.. وكان أن ذهب الزوج الهمجي وطالب العيال إلى الحرب، وكان أن مات في الحرب.. وتحولت الجميلة إلى أرملة.. ولكن أي أرملة؟ بالطبع تلك التي ستصبح، ويقبل صياحها، ويقىم، وأيضاً يكافأ بقصر المسك.. مفخرة القصور وسيد معمارها.

تلك الجمعة العادية.. غير الظليلة.. ولكنها جمعتها.. جمعة الحظ،
ومن ظل شجرة هجليج.. ومن حلق يابس مالح الطعم، ومن أحشاء
أنثى مقروصة حقيقة بالجوع، بالجوع الحقيقي، وصامدة صمود الأحشاء
نفسها.. وبعد أن ألقى (حلحلوك) المجنون صياحاته الشيخة عند ذيل
السلسلة..

جارية بلا حلمتي أذن..

بيت في الفضاء بين السماء والأرض

عربة من فضة تجرها نوق صفراء

وقفت.. تشنجت:

(مولاي السلطان زوجي استشهد في الحدود.. وأنا بلا عائل.. ولا
أجد لقمة للخبز.. أغيثوني.. مولاي السلطان.. أرووك.. أرووك).

عاشق الرقة في مجلسه الموقر وسط وزرائه وأعيان السلطنة، بلا
سنارة في ماء عكر، ولا كلب صيد يتراكمض، ولا رمح أو صقر مدرب
على شم الفرائس.. ولكن الصيد يأتي.. يأتي حتى عنده..

استمع السلطان رغد إلى صياحات (مسك النساء) المأزومة بتمعن،
وطول بال، لأكها، وابتلعها وهضمها، ولحس ريق القلب، وأرسل واحداً
من فصيل حراسه (الظهوريين) لمطالعة منبع الصياح والعودة بأسرع
فرصة. كان يشم في الصوت رائحة امرأة تشتعل.. وتخيل الوجه كما
يريده هو.. وجه جارية صيغت من غسل مخلوط بماء الورد.. أو حلوى
مسكرة تلهب الإحساس. في زواجه الأول كان بلا خيال وكان صغيراً،
ولما أبره في بيت الحلال دون استشارة. في زواجه الثاني والثالث..
كان قد بدأ يعرف الفرق.. الفرق بين الغصن والجذع، وماء المطر..
وماء البرك.. والسحابة الماطرة والتي لن تمطر.. وفي حياته السرية
التي لم تكن في الواقع سرية.. كان يتقي.. يتقي ذوات الأصوات
المنغمة.. وذوات القلوب الرطبة، وذوات الأجساد التي يكتبها الشعراء

من خيالهم.. وكونه ابناً لجارية تافهة من نساء (البرقد) تورط فيها أبوه، كان يشعله ضغينة. لم يلتفت إلى جلسائه إلا بمقدار أن يلمحوا وجهه العادي.. وجه السلطان.. وما تردد حين أرسل الرد عبر السلسلة السباعية مختلفاً عن الردود كلها:

الأرملة مسك النساء جعفر.. الأرملة مسك النساء جعفر.. يرجى مقابلة مولانا السلطان في قصر (العزة) بعد نهاية (الكوراك) لهذه الجمعة.

لم يكن ثمة قصر للمسك في ذلك الحين، وكانت الصياحات تؤدي وتجاب في قصر (العزة) الذي كان بناء موروثاً وقريباً من وسط (جوا جوا) تضاف إلى بنيانه في كل عهد بصمة، كتولين نافذة أو فتح منفذ، أو إضافة حجرة، أو ري حديقة مهمة. وقد سمي بالعزة في عهد (نفر المقدم) حين قال في إحدى الجلسات.. أعتز بهذا القصر جداً. لمقابلة مولانا السلطان.. لم يرمش أحد من جلسائه لكنهم شمو رائحة فوران القلب قوية ووثابة.. في الأحوال العادية، وفي صياحات نساء (الضاهاري) البائسات.. اللائي يرددن نفس صياح الأرملة.. رغيف الخبز.. عصيدة الحميض.. مديدة الدخن.. يرد السلطان بحفنة الخبز.. بكسرة الدخن.. بعصيدة الحميض الفائضة عن حاجة خدمه.. وقد يرد بخادم مسكين يزوجه من تلك الأرملة أو العزباء التي صاحت ولا مقابلة في قصر العزة أو غيره إلا إذا كان الصيد رطباً.. ومليناً بالبهارات..

باغته جمالها المتطور برغم فقرها، واستغرب حقيقة.. كيف لم تنبت في بيوت السلاطين هذه النبتة؟ كيف لم تنبت في تلك الحديقة.. أو ذلك البستان.. أو بقرب ذلك الجدول العذب؟ كيف يا دوباغي؟ يا لاليا البرناوي؟ يا ترزي كردمان؟.. كيف لم تكن أمك يا مساعد؟ السمرء البضة، بعيدة مهوى القرط.. كيف؟ كيف؟

كان الأمير مساعد.. رجل المهام الجليلة في ذلك الوقت حدثاً

يتمرن على الجلوس المتغطرس في مجالس والده بناء على رغبة السلطان نفسه، لم يحس حقيقة بالحرج لأنه لم يكن يعرفه.. جالت نظرات صقوره المهووسة في المكان، توقفت لبرهة عند الوجه الساطع للفقيرة التي كانت تهتز من نشوة لا من خوف.. لم يتذوق وجهها أبداً، وبالكاد تعرف على أنفها، وفكر أنه أنف شمام.. تعرف على أذنيها.. وفكر تسمعان الهمس جيداً.. وحين هبطت النظرات إلى قوامها اللدن، فكر أنه قوام جندي لو قاتل لكسب الحرب.. ليتها كانت أمك؟ وحقيقة كيف كانت أمه؟ إنه حتى لا يتذكر من وجهها سوى ذلك الذي هو وجه أم، ولا يعرف عن قوامها سوى ذلك الذي يتحرك في البيت جيئة وذهاباً.. ولو سئل عن صوتها لقال إنه صوت المرأة التي تأمر بإعداد الطعام في أية لحظة.

سرف السلطان جلساءه على عجل.. قال.. إكسير النشاط.. إكسير النشاط يا دوباجي.. إكسير حموضة المعدة.. إكسير وجع المفاصل يا كبير الحكماء، وصرفهم على عجل.. في تلك الجمعة رد على ماثي حاجة بائسة، أنصف رجلين مظلومين وذم أربعين ظالماً.. وفتح باب السجن لسبعة أهانوا السلطنة في جلسة شرب، وصاح بعض الوشاة في شأنهم.. والآن دور القلب للرد الحقيقي على ذلك الصياح الفاتن: سأزوجك أيتها الأرملة.. هذا أمر سلطاني..

لم يقل يا مسك النساء لأنها كانت رعية.. وكان سلطاناً.. (أيتها) اليايسة دائماً للرعية.. و(يا) الناعمة والمنعمة، دائماً للمقربين.. أيتها الفقيرة.. أيتها النائحة.. أيتها الصائحة.. أيتها المسودة الوجه، ويا.. حبييتي.. يا.. سمر قلبي.. يا.. مليحة القدد.. لكن حظوة لقاء السلطان وبذلك التجرد.. لا تحدث إلا للمقربين.. أو أولئك الذين يقتربون بالخطى الماراثونية..

- هل تقبلين؟

يقصد مستقبلين.. وما دامت قد اقتربت من عاشق الرقة بالدرجة التي
تمكن فيها من عد رموشها وشعيرات أهدابها، وشم خفاياها، وحملها في
الخيال الذي ضاعف من جبروته غليان (الأكاسير) في الدم، وألقاها على
سرير الرغبة الطري، وشهق، فلا بد أن تقبل.. في عرف الرشيد.. وغيره
من السلاطين.. لم يكن ثمة رجاء في لحظة التصميم.. كل شيء أمر..
وكل أمر منفذ.. اقتل أخاك.. يقتله.. اذبح إبلك كلها.. يذبحها.. طلق
المرأة التي تحبها.. يطلقها على الفور.. أنت حمار ولست بشراً.. نعم
حمار ولست بشراً.. أنت الزرافة.. نعم أنا الزرافة.. صحيح يوجد الدين..
وتوجد التقوى المبرمجة.. وقوافل الحج والعمرة.. وإرسال كسوة الكعبة
الشريفة في كل عام.. ويوجد (لاليا البرناوي) مفتي الديار.. ويوجد
شيوخ يدرسون الذكر.. ويكافأون، ولكن يوجد العرف السلطاني.. عرف
الحكم.. أقوى الأعراف كلها.. هل تقبلين؟ مستقبلين..
أقبل ولكن بشروط يا مولاي.

الرعية تشترط؟

الرعية التي تتشرف برغبة السلطان في منح العز.. والترف..
والحميمية المبجلة، وربما الأبناء الأمراء والفتيات الأميرات.. تشترط؟
طبعاً لا يجوز.. ولكن الرعية التي اقتربت من القلب بتلك الخطى
اللاهثة.. تشترط؟ يجوز.. يجوز..

- نعم.. ما هي الشروط.

انكفأ على وسادة ريش النعام الفاخرة يتأملها من جديد.. وراعه
ذلك الرنين القصديري الذي ينبعث من قرطبيها الرخيصين في لحظة
احتكاكهما بالعنق.. أذنان غاليتان.. ولكن زينة رخيصة.. ألهمته زوايا فمها
عن حك أنفه.. فاستعر بلا حكاك، وألهمته الأنفاس التي ترتفع بصدرها
وتهبط به عن التقاط أنفاسه هو..

- أريد قصراً باسمي لم يحدث مثله من قبل في (أنساب).. أريده مكلفاً،

ومرفها.. ومحاطا بالحدائق والنوافير وفي وسط (جوا جوا).. هذه شروطتي.

لم يقل (رغد الرشيد) لا أو نعم.. صرف أرملة الود الجديد بإشارة لم تكن صارمة ولم تكن ناعمة ولكنها إشارة (البين بين) التي تعني قد وقد لا وقد كانت من علامات حكم الرشيد إذا فار قلبه، أو ووجه بمأزق لم يحسب حسابه.. إشارة البين بين في وجه الأرملة. وفيما تلى ذلك من أيام كلفوا معمارياً وسيماً من الأتراك استقدموه على عجل.. كلفوه بإعداد خارطة الرفاهية لقصر جديد اسمه (المسك) يزمع إنشاءه في (جوا جوا).. قالوا يكلف ما يكلف.. يصرف ما يصرف.. يهدر من الموارد ما يهدر.. (أنسابه) ليست أقل من أي بلد آخر.. ويحق لسلطانها أن يحكم ويقضي في شئون الناس من داخل بيئة نظيفة.. كلفوا عمالاً مستقدمين من خارج السلطنة أيضاً.. بتنظيف وسط العاصمة، وكنسه من وحل البرك، وروائح الفضلات.. وزرع القصر والحدائق والنوافير، وفي يوم زفافه من مسك النساء الذي تزامن مع الانتهاء الفعلي من رفع قصر المسك تحفة في العاصمة.. وفدت جموع الأنسابيين من كل صوب لمطالعتها، لم يترك (رغد الرشيد) لعنة إلا أرتكبها، وما ترك حيلة من حيل الأزواج السعداء إلا احتالها.. وكاد في قمة النشوة أن يحول ذلك اليوم إلى عيد وطني.. لكنه لم يفعل.. وقد كرم الأتراك المصممون بتعيينهم معماريين في السلطنة، لن يصمموا أي معمار آخر.. وكرفى العمال المنفذون بتعيينهم عمالا لا ينفذون. الآن مسك النساء هي السيدة.. والآن قصر المسك هو قصر الصياحات التي تتم في كل جمعة.

وحده أمام نظرات الصقور المهووسة في جحر إدارة الرعاع، وقف (آدم نظر).. (دمدوم).. الضد وضده الجديد الذي ما زالت نيران طبخه مشتعلة لم تخبو.. كان الأمير مشغولاً جداً، وفي داخل المستقبل يتردد

همس كثير عن قرب تعيينه وليا رسميا لعهد السلطنة.. أخبار سخيقة..
يفكر البعض.. أخبار فيها بلاء.. يفكر البعض الآخر، ورجل المهام
الجليلة لا يبدو مهتما بزبه ولا بحذائه، ولا بإزالة المخاط المتجلط قرب
أنفه ربما منذ وقت طويل.. طالعه الخصي الجديد بتمعن، واكتشف أن
في عينه حول، وفي كتفه الأيمن ميلان طفيف ولا تبدو أسنانه أكثر من
أنياب ذئب.. ماذا يريد؟ حساء الطيور الجارحة أجدت طبخه وتذوقه
وأثنى عليه.. صفائري طالت كصفائير الآخرين الذين حوروا قبلي، وفي
عيني كحل المشاق نفسه الذي كان يتكحل به (قلب الأسد) قبل أن
يرحل..

لو قال اقرأ طالعي.. سأقرأه..

لو قال عد فرساً كما كنت، سأعود..

لو أمسك بتلك العصا الخيزرانية وأدعى ظهري بها لن أبكي.. ولو
قتلني الآن، تكون المشكلة كلها قد حلت.. ماذا يريد؟
رفع الأمير نظراته عن طاولة التخطيط التي يبدو أنه خطط فيها
منكراً طازجاً..

اقرأ طالعي أيها الخصي..

طالعك اليوم مثل الأمس وغداً يكون مثل اليوم.

جملة البله التي اخترعها، وأعجبت الأمير.. وصارت هي الشعار
الحظي في ليالي انتهاك السكون.. وفي تلك الأكواخ التي كانت كلها
تماسة.. طالعي أيها الأغبياء.. طالعك مولانا الأمير.. هكذا..
اقرأ طالعك أنت.

طالعي أنا؟ هل لي طالع حقاً مولاي الأمير؟ ومتى كان للذي
صاح، وحوّر ونبتت على ظهره الدماطل.. والآن دمدوم الخصي الذي
لن يرى أمه أو أخته الرزينة أبداً.. طالع؟ لو كان في أيام غير هذه..
أيام عطر السطوة الذي كان يخترعه ولد الحور (جبروتي) مثلاً.. أيام

امتصاص الجليل المهاب واستعادته في الليل مثلاً، لقرأ طالع نفسه وكذب وأضاف، وقال.. يخبرني طالعني بأنني الأب الشيخ القادم إلى حكم (أنسابة) آجلاً أو عاجلاً. الآن مسألة الطوالع بالنسبة إليه محسومة.. حسمتها (درة) المحترفة منذ زمن، وحسمها قارئ الكف (رسول الأفغاني).. وحسمها الآخرون.. وحسمتها التجربة المريرة في مستنقع الرعاع. الظهر فعلاً انحنى وسودته الدمامل.. الشيء العزيز.. سقط ومات.. ولم تبق في سرّة الغيب سوى تلك المرأة التي تبصق على الوجه.. ويكاد الآن أن يقسم أنه يعرفها..

طالعني يتحسن إلى الأفضل.. مولاي الأمير.

- بل يعود إلى الأسوأ أيها الغبي.

لطمه لطمه أطار الكحل من عينيه وحولت خده الهرموني إلى خد شاة ذبيحة.. إلى الأسوأ؟.. ما هو الأسوأ من دابة وخصي؟ ما هو الأسوأ؟ لابد أن بهارات حسائه اليوم لم تكن منضبطة.. لابد أن غازات عنيفة تكرر الآن في بطنه وترفع من مستوى ركافة المزاج.. لابد أن إجراءات تعيينه إلى ولي رسمي لعهد السلطنة لا تمشي بالخطوات الملائمة. هل أسأله عن الأسوأ؟ ولكن هل يسأل الخصيان محورهم ومدور أحواضهم وزارع الكحل في أعينهم؟ لا لا ليس ثمة خد يحتمل.

- حسناً مولاي الأمير.

قالها وانتظر.. وتشاغلته عنه الصقور المهووسة برهة.. ثم:

- سنرسلك إلى قصر المسك عند تافهة الذكر مسك النساء.. هذا هو الأسوأ الذي لا تعرفه.. الأقسى الذي لا تعرفه.. والآن اذهب وسلمهم أذنك ليثبوهما.. لا نعرف مزاج التافهة في لحظة استلامك.

انكفاً على طاولته ليخط منكراً جديداً.. وانصرف الجديد المتماثل من أمامه.. كان يفكر بغزارة، ويعاود التفكير بغزارة أشد.. الأسوأ الذي

لا تعرفه.. ربما.. ربما. ولا يدري لماذا قفز (شبرق)، الرفيق الذي
اختفى إلى ذهنه في تلك اللحظة.. كانت قد مرت أشهر طويلة على
اختفائه، وحمل الرعاع طيبو القلب إلى المستنقع في أحد الأيام رسالة
من واحدة من بنات (الشباريق)، أهله الذين انتزع من وسطهم.. سلموها
ل(آدم نظر) باعتباره رفيقه.. الحماز الذي تحول إلى فرس.. وباعتبارهما
اثنين كانا أكثر الأحصنة تحملاً لنزوات الأمير. كانت الرسالة باكية
وكتبت بقلم من الفحم وطعمت ببقع من دم وريدي.. وقالت الفتاة إن
حبيبها شبرق هو أعظم حبيب في الدنيا.. برغم كل شيء وأنها ستنتظر
لفتاته ونظراته وهمس شفتيه إلى الأبد.

-12-

وصل آدم نظر (دمدوم).. الرجل وضده الجديد الذي ما زال رماد تحويره في مستنقع البرعاع.. موجوداً لم يُكنس، إلى قصر المسك في يوم خريفي نازف.. كان السحاب مجروحاً بعمق، الهواء الرطب.. رطب بعنف، حشرات (أم دبائك) الكثيفة ترعى، وأسراب طيور (أبو السعن) تملأ الأرض والسماء، ويتراكم من أعماقها الصخب.. وصل برفقة حارسين رعاعيين طالما كُلفا بنقل العورات وترحيل المخازي من منابعها إلى مصباتها، ووصل ملثماً، ومستور العورة.. وكان مرتبكاً لأن قصر الصياحات الذي اعتاد فيما مضى على مغازلته من الخارج المكشوف.. أيام تكالبه على امتصاص (يوسف كرا) واستعادته، وتقمص دمائه، قد بدا له الآن قصر الغوامض الذي قد تدور فيه الفصول الأخيرة لاختناقه الغريب. كان مرتبكاً وحائراً.. وتصرخ هرمونات جسده الجديد.. في هيئة خد محمر.. أو ثدي موجه اللمس.. أو خصر مدلولق بلا لم.. أو ساقين نظيفين تساقط من كسائهما الشعر أو ضفائر ناعمة تتضاحك مع الريح.. أو صوت ناعس يضفر الآهات. ضد حقيقي.. تماماً مثل (يوسف كرا).. الذي دائماً ما تمناه.. ولكن أين (يوسف كرا) المقيم في (الفوق) النظيف، وكم يبعد عن (آدم نظر) المنحدر في (التحت) المتسخ.. كم يبعد من (دمدوم) الذي سيواجه الأسوأ الذي لا يعرفه كما قال أمير الرعاع؟ وصل في ساعة تواطؤ الذكر الذي بعثه في الخسارات كلها، والاندحارات كلها، ومواد غليان الدم كلها.. لم يكن اليوم هو جمعة الصياحات ولكن الذكر صيرها كذلك.. قادها من ماض بعيد وصيرها كذلك.. ولجّما من لجام قوي وصيرها كذلك. هامي

خطوات الرجولة الوليدة التي تمشي في زحام (جوا جوا).. ممسكة بيد قوية وجافة لصانع طبول كان يسعى بضراوة إلى الحج.. ها هو الجسد الغض يستظل ب(الهجليج).. هاهي السلسلة السباعية تنتظم.. والحاجب ينتظم.. والجليل المهاب يهبط عن فرسه بعمامة الضباب وعلى أيدي العبيد الخارقين.. ويخطو بجلد النمر المغاربي إلى داخل القصر. الأب الشيخ (يوسف كرا).. يهتف الهتاف.. تزغرد المزغردة، يتناثر المسك.. هاهو (حلحلوك) المجنون يحكي.. ثعلب إفرنجي قابله في البراري.. قال (جود مورننج) حلحلوك، قلت له (جود صليك).. لفخني برجله.. لفخته بقرني الاستشعار وهاهو يحلق الجنون يصرخ:

جارية بلا ثدين..

منزل ليس في الأرض.

عربة من الفضة تجرها خيول الرماد..

هاهي المسلاطية المبعثرة، والمتورمة وحاملة طفل الرضاعة والقادمة من مسافة ستة أيام مرهقة، لتصرخ:

يسرق فئران غيره.. يضربني بلا انقطاع.. يدلنق الطبخ على الأرض.. أنصفوني.. مولاي السلطان..

وحنفي الساحوري.. تاجر القوافل الذي كان.. يأتي ليودع السلطان باللهجة التي لا يعرفها الصبي ولا يفهم حروفها.

وهاهي قهقهة السخرية مرة المذاق.. تأتي من حلق السلطان ومن حلوق السلسلة.. وتصب في وجه عجوز (البراquid) الذي كان يسأل عن غرة للصلاة.. غرة واحدة يا مولاي.. غرة واحدة.. كل من هب ودب يحملها.. واحدة فقط يا مولاي.

راعى الأغنام نظر حبابب.. وإصرار الحاجب على تغيير مهنة صناعة الطبول.. العضلات المتشنجة في الوجه.. والصوت الذي ما سمعه أبداً من قبل حتى في أشد حالات الغضب المنزلي ركاكة..

أريد أن أحج.. وأن أطوف وأسعى وأقبل الحجر.. أرروك..
أرروك.. حنجاً مبروراً.. ارروك.. ذنباً مغفوراً.. أرروك.. عوداً حميداً..
أرروك..

والفتاق السري في لحظة بهائه وفورانه العنيد.. لا يرحم..
ودوباجي الحكيم.. لا يرحم.. وطلبك مرفوض يا راعي الأغنام.. تواطؤ
التذكر في لحظة التشيع.. في لحظة الدفن.. في أيام العزاء.. والتنجر
القادمون من أصقاع فقرهم واختبائهم.. يلحسون.. ينمون.. يصفرون
أحلام اليقظة.. يسIRON في شوارع (جوا جوا).. ويقضون على عصائد
الفقر في البيت..

هل مات أبوك بالمرض الإنجليزي؟

مات من حسرته.

ماذا كان لون حسرته.. أخضر أم أحمر أم في لون خريف أم
دبابيك؟ خريف الحشرات التي تأكل الأرض والأجساد.. حقيقة ماذا
كان لون حسرة أبيه حين مات؟ مؤكداً كان أسود.. لأن لون الموت
أسود.. ولون الحداد أسود.. ولون الحياة التي تمضي بلا أب يتحمل
المرارة، حالك السواد.. وماذا كان لون الحسرة عند أمه.. عند أخته
الرزينة؟..

أسود.. أسود.. أسود..

حراب التذكر.. المسنتة والتي تزداد حدة.. والجمعة الظليلة
منصوبة ومشتعلة ومزدحمة بالأنسابيين من أدنى وأقصى وفوق وتحت
ورأس وظهر.. من مسافة ساعة ويومين وعشرين يوماً والولد الحالم
يصبح..

أريد أن أصبح أباً شيخاً.. أريد أن أصبح أباً شيخاً.. مولاي..
أرروك..

كان قد دخل إلى لحم حي دون أن يدري بأنه اللحم الحي..

ودخل إلى السرايب المظلمة دون أن يدري أنها السرايب المظلمة.. ومن (الفوق) الذي لن يضحك أو يقهقه لهذيان ولد.. ولن يستمع إلى استشاريين يقتنيهم بلا استشارة، أصدر الرشيد حكمه.. بذاءة الألسنة.. نعم بذاءة الألسنة.. لو كان هو السلطان رعد.. وكان السلطان هو (آدم نظر).. لكان الحكم أكثر شفافية.. ربما ضحكة، وربما عشرين سوطاً من الخيزران على ظهره، وربما قرصة في الأذن لا يعود بعدها إلى الصباح أبداً.. بذاءة الألسنة.. التهمة التي لن تعود به إلى حي الرديم.. ولن تعود به إلى الحياة مرة أخرى.. التهمة التي تنتهي به الآن عند باب خشب (المهوقني) العريض.. الرزينة دخلت من هنا مرات ومرات.. سلطنة الفقيرات دخلت وخرجت ولن تدخل مرة أخرى أبداً.. يلكره الحارسان الرعايعان.. ادخل.. ادخل.. وتميته الرعشة.. سيدخل..

وصل في لحظة انقسام الشمس الخجولة بين السحب إلى ظل رجراج، وبقايا أشعة.. إلى نهار يتأزم وليل يرتسم.. إلى وضوح يتلاشى وغوامض تمتد.. ليست اللحظة التي تصلح لمحاورة العذاب بداخله وليست اللحظة التي تصلح لدفنه أيضاً.. وجريرة التذكر تحتل أكثر مرة أما منتفخة بالدموع.. مرة أختا نبت على وجهها النمش.. مرة دابة تحمل الغليان في غارات المداهمة.. ومرة ولدا للهور.. اخترع عطراً للنضارة.. وعطراً لسطوة زالت قبل أن تكون.. يلكره الحارسان.. ادخل.. ادخل.. لم يكونا ضده، ولا كانا في صفه.. ولا كانا أصلاً غير حارسين يؤديان واجباً عادياً.. ولو أرسل بلا حراسة هل سيهرب؟ في حالة الخزي تلك.. ليس ثمة هروب إلى حي.. إلى عشيرة.. إلى ناس.. ولكن هروبا إلى بئر.. إلى خور ضحل.. إلى صحراء.. إلى ماتم.

هل توجد في داخل القصر فوضى.. ليتفوض بها؟

هل يوجد نظام لينظمه؟ وهل توجد ليال صالحة لاجترار العذابات ليجتر عذاباته.. يكره الصياحات جداً.. يكره الأمير مساعد..

ويكره ذلك الحوض الواسع الذي يمسك الآن بأسفل جسده. لم يكن يحمل في ذهنه معنى محدداً للترف.. ليتخيل الحياة بالداخل. ولم يكن قد رأى (مسك النساء) أبداً. ليتخيل عطفها أو قسوتها.. قياسات خصرها أو قياسات رجلها.. إشراقها أو انطفاءها.. نومها الضحى أو صحيانها المبكر.. لو سألوه عن (أم الرديم) النسيم التي ماتت في الحرب، وهو في المستنقع، لقال طيبة.. وصالحة.. وتستيقظ باكراً.. وتصنع عصائد الدخن للفقراء.. لو سألوه عن الرزينة.. لقال.. عنيدة ومتهورة وتحب وجهها.. وحرير القوافل.. ولن تتزوج من ولد الحور أبداً.. ولو سألوه عن أمه.. لقال.. هي أم في كل لحظة حتى وهي نائمة، ولو سأله الحارسان الآن عن سلطنة القصر كيف تبدو؟ لارتعد.. تلك الرعدة (البين بين).. رعدة الخوف ربما.. رعدة اللاخوف.. ربما..

ألقى بالبصر كله في صالات العرض المرتبة.. تلك التي تلكز البصر ليرتاع، ليندهش، ليحس بانحساره.. كان كل شيء مختلفاً.. وكل شيء جهنمياً.. إذن هذا هو الداخل المخفي لقصر الصياحات.. يلحسونه من الخارج ولكن طعمه ليس هناك.. إنه هنا.. طعم البرتقال.. طعم المانجو.. طعم الحميض حين ينضج.. طعم تمر المدينة القادم في قوافل الحجاز.. تمر الجواري محملات وسرايات وعاليات الأجساد.. وفيهن لمعة.. يمر الخصيان واسعي الأحواض ومضفري الشعر وحتى أثوابهم التي في مستوى السرة لا تشبه الأثواب.. يمر الأطفال طاعمين.. ومدللين.. وفي حلقهم حلوى وتمر الصالات واحدة بعد أخرى لتنتهي عند صالات أخرى تمر أيضاً.. وتختفي.. النرجس كله.. العطر كله.. الصور التي تزين والتي تحاول أن تزين.. الأسرة من خشب الورد.. المقاعد من خشب الزان والمهوقني.. القدور اللامعة وفواكه غريبة الشكل.. ليست هي النبق ولا الحميض، ولا البطيخ.. ولا الشام، ولا أية تحلية أخرى من تحليات الفقراء.. كان (قلب الأسد) موجوداً.. رفيقه

المسلاطي الذي حورته زوجته دون أن تدري أنها تحور حياة.. تحور مستقبلا.. أسرع إلى استقباله واحتضانه، وضمه بقوة.. ليس هذا (قلوب) الذي كان في المستقع.. إنه الآن أكثر لمعة، وأغزر لحما، في مقدمته بطن يتأرجح وفي مؤخرته مصائب تتأرجح.. آخرون جاءوا لاستقباله.. نفس الفرحة التي تغمر المصابين بالسل عند اكتشاف (مسلول) جديد.. نفس الحماس الذين يغمر الأرواح حين تهيم روح جديدة.. نفس الشبق الذي تقتاده الرغبة حين تلتحم بالرغبة.. ما وظائفكم هنا يا رفاق؟ خدم وطهارة وحراس للتمرد.. منسقون للحدائق.. جليسون للأطفال.. مصفرون للشعر.. عاجنو حناء لزينة الملكات.. أبناء كلب.. ملاعين.. مصفرون على الخبذود.. عالمون بالأسرار.. مشاهدون للعورات.. كل شيء.. نحن كل شيء.. ونحن جاريات فاخرات إذا اقتضى الأمر..

ما لون عالمكم؟

الذي تختاره هو لون عالمك.. تختاره أسود.. هو كذلك.. تختاره أحمر.. هو كذلك.. تختاره ورديا.. هو كذلك..

توقفوا عن الهذيان بغتة والتموا في وقفة الذل أو وقفة المسكنة أو الوقفة التي يعرفون مغزاها.. صف من الجاريات أقبل.. زهور متفتحة ووردات زنبق بنفسجية.. عليهن الثياب التي ليست من سوق الفخاريات.. فيهن رائحة العطر الذي لن يخترعه (جبروتي) وكانت خلاخيل الفضة تنغم مشيهن.. السلطنة.. السلطنة.. لم تكن أصوات همس ولكنها أصوات إحساس.. إحساسه بأنه يستقبل من رب عمل أراد توظيفه.. السلطنة السلطنة يا الله.. ما هذا الجمال الغزير الجمال الذي مثل الخريف الأخضر الخالي من حشرات (أم دبليك).. الجمال البدوي والحضري والإفرنجي والخارج من سير الممالك البعيدة التي سمع عنها ولم يسمع.. ترنمت في المشي حتى كان أمامها ويواجه عينيها.. لم تقل شيئا.. ولم تنتظر حتى تخف الرعدة قليلا في

الأطراف.. لكنها كورت شفتيها.. بصقت على وجهه.. وبصقت بعنف.. لا نعرف مزاج التافهة عند استقبالك.. قال رجل المهام الجليلة.. وأظنه كان يعرف.. المرأة التي تبصق.. وقد كان آدم يعرف.. سارت بترانيم الخطوات مبتعدة، ووسط جيش الجاريات الذي كان يرفع ذيل ثوبها الحريري بفن وأياد مدربة..

لّمه (قلوب) من فوضى استقباله بسرعة، مضى به إلى الجناح الأخف وطأة، والذي لا تطرقه قدما السلطانة إلانادراً وحيث اعتاد خصيان القصر وعماله أن يتسامروا، ويحلموا ويستعيدوا سنوات الخصب البعيدة أيام أن كانوا جديرين بالخصب. كان (قلوب) مسكيناً جداً، وكونه أب لطفل تركه زهرة، والآن لابد قد امتلأ بالندوب، كان يشعره بالمرارة، لم يسع إلى ذلك الدرب لكن الدرب سعى إليه، ولم ينغرس لكن زوجته الصائحة غرسته، وقال لدمدوم.. إنها شوهدت في (جوا جوا) منذ عدة أيام.. كانت تتمايل وتضحك، وتمسك بيد الميوعة ذراعاً ممتلئاً لواحد من تجار المساليط. قال إنه لم يندهش، لأن لا شيء يدهش ولم يغضب، لأن فوران الغضب انتهى يوم حوروه.. ولن يقتلها لأن أولى به أن يقتل نفسه.. أنت أخف وزراً.. لأنك لم تترك صبيّاً يبحث عن صوتك ولا يعثر عليه.. كان يقول وقد تشنجت حبال صوته الهرمونية.. أجلسه على كرسي من خشب (الزان) لا يرتفع عن الأرض إلا قليلاً.. الكرسي الوحيد في القاعة، والذي جلست عليه آلاف الخطايا من قبل.. صب له فنجاناً من بن أحمر.. أعاده إلى تذكر طعم القهوة ببطء.. أنت الآن داخل أعصاب سيدة القصر ولست خارجها.. أنت في داخل المزاج.. وتعموم فيه.. تنفلت كلنا حين تنفلت الأعصاب.. نهذاً.. حين تهذاً.. نتعكر حين يتعكر المزاج، نصفو حين يصفو.. هل تجيد صناعة الرغي في الفاضي والممتلي؟

- لا

إذن تعلمها.. .وتدليك العضلات؟ خاصة تلك التي تتعب من صفع
الوجوه، ومن التنزه في الحدائق؟

- لا

- إذن تعلمه.. هل تطبخ (القاورمة)، و(الكول) ولحم الصيد بروائح
الورد؟.. هل تعلم كيف يرضع السلاطين، ومتى تشرق الشمس، ومن
أي ركن تهب الرياح المبعثرة للشعر؟ هل تعرف معنى أن تفر جارية
وأنت تحرسها؟ ومعنى ألا تفر وأنت أيضاً تحرسها؟ هل؟

لا لا

- إذن تعلم.. تعلم.. تعلم..

انقلب عليه بغتة بوجه لم يشاهده عليه من قبل.. دلق على ساقه
البن، وشده من يده ليلقيه وسط خصيان آخرين، كانوا غارقين حتى
الآذان في مآزق عدة.. وانصرف.. كان(دمدوم) الجديد مندهشاً، فلو
كان نزقاً من ذلك (الفوق) لتقبله دون دهشة، ولكن من قلب الأسد..
عشنا معاً.. قرأنا طالع المهام الجلييلة معاً، ونلنا الصفعات على وجهنا
معاً.. والآن جنباً إلى جنب داخل (الأسوأ).. ماذا به قلب الأسد؟

السلطانة تروح وتجيء.. تبصق وتتأرجح، وتتوقف عند كل أفرع
مرايا الزينة المنتشرة في القصر.. تتذوق الطعام بطرف حاستها، تدلقه
على الأرض حيناً، وعلى الوجوه حيناً، وفي أحيان كثيرة تمسك برأس
طباخه لتغمره في الطبق..

السلطانة لا تحب التجاعيد على الوجه.. وجيش من الضد
والجواني يدلكون الوجه ليفردوه، تحب أن تعطر بكثرة، ويعطرونها
بكثرة.. المسك. عطر العود.. عطر حبوب اللقاح.. وعطر عراقة
الورد الذي يرسل عبر القوافل من بلاد فارس.. تحب بخور الصندل
لدرجة الجنون، ويبخرونها.. وتحب أن تلدغ أحياناً برجلها، فيطير وجه
مخضب بالدم..وفي أيام محددة حين يباغتها مغص النساء العادي، لا

تتحمل، تتراكم في صالات القصر وبين أثائه.. لتعثر على ضد مسكين تستفرغ على وجهه..

السلطانة تكره الجاريات الجميلات جداً.. أولئك اللاتي تربين في القصر أو وردن من حرب أو قافلة تجارية.. وثمة ماء للنار مخصص لكي الوجوه، وتشويهها، وطردها إلى شارع التشرذ بعد ذلك. هي تكره الشعر الغزير والمفروود إلا شعرها، وتكره أن يغرد طائر الكناري على نافذة إلا نافذتها.. تريد زوجها سلطاناً، وتريده عبداً.. وتساهم في إمالة شقه باستمرار بمنعه عن نسائه الأخريات.. تلقي بأي جارية ألقى عليها نظرة إلى الطريق.. وبالطبع كانت تعلم بالحياة السرية ل(رغد الرشيد)، ولم يكن ذلك يهم في أغلب الأحيان.. ما دامت سرية وبعيدة عن قصرها.

مر آدم نظر - دمدوم بتلك الشقوق كلها، الواسعة والضيقة، والضيقة جداً..

الطباخ المحروق في وجهه.. الممزقة ثيابه.. المغمور في نار الحساءات.. المبصوق على وجهه.. المقصوص الشعر، حامل البخور.. مدلك العضلات.. ومنسق زهور البنفسج الذي لا يعرف التنسيق.. الأسوأ من السيئ.. الأثقل من الثقيل.. الأقسى من القاسي.. في مستنقع الرعاع كان دابة، لكن لقمته لم تمس.. وحوار إلى خصي بجدارة لكن أحداً لم يبصق على وجهه.. أو يركله في حوضه المتسع.. صحيح كانت ثمة دمايل، وكانت ثمة صفعات أثناء قراءة الحظ الجليل.. لكن ليس مثل تلك الشقوق التي مهما اتسعت فهي ضيقة.. كان ينام مستيقظاً لأن عمال القصر كلهم ينامون مستيقظين.. وإذا غفا لشوان فقط، يهب فرعا لأنهم جميعا يهبون فرعين، وكانت دائماً توجد طلبات ليلية.. من مسك النساء أو من عيالها الذين كانوا أفاع.. وكانوا عقارب شديدة اللدغ. وشيئاً فشيئاً وبعد مرور أشهر طويلة، ابتدأت السلطانة تتذوقه.. خف الأسوأ

إلى سيئ، والأثقل إلى ثقيل.. والأقسى إلى قاس.. كلفوه بري الحقائق
الملحقة بقصر المسك.. ثم بصناعة قهوة السلطان رغد الليلية وتجهيز
ماء الورد الدافئ الذي يحبه، وفي النهاية تم ترفيعه إلى رتبة خادم مناوب
في الجناح السلطاني. لم تكن وظيفة سهلة ولكنها هامة للغاية.. وظيفة
مطالعة الحقائق عارية أو مستورة بورقة التوت.. ووظيفة ملء العين
بعيداً عن أي رمد مشوش. كانت تساعد جارية اسمها (سلافة) وكانت
رقيقة للغاية اشتراها الرشيد من قافلة كانت تتاجر بالجواري ومرت على
(أنسابة)، وقيل له.. لو وضعتها على جرح سبيراً.. ولو أمرتها بالمستحيل
لصار ممكناً. في البداية أدخلها في الحياة السرية بعيداً عن لوائح القصر،
تعذب بها وتعذبت به، وطلبت إلحاقها بقصر المسك حتى تكون تحت
خدمته في أية لحظة. لم تكن فكرة جيدة ومسك النساء تسمع وتنقصي،
وتعرف، لكنه نفذها في النهاية.. عسى ولعل. التزمت (سلافة) بالخدمة
الراقية، ولم تحس السلطنة بنبضات قلبها أبداً.. ولا بذلك الذوبان
الخاطف الذي يحدث لها حين رؤية السلطان. كانت متوفرة في المكان،
وتقوم باللازم، وتنادي مسك النساء بسلطنة المسك. أحس دمدوم نحوها
بانجذاب، وانفجرت في أحضانه كثيراً.. وعلمته الرقي من ألفه إلى يائه..
أخدم مسك النساء فirtاح مولانا.. أطعها.. فينام مولانا.. كانت تحدثه
عن التوابل، عظيمة هذه التوابل يا دمدوم، ولا يصلح المرق إلا بها..
تحدثه عن الترجس.. كنت نرجسة غالية تشد الحواس والآن احترقت..
عن القوافل والسفر.. كيف اشتروها، وكيف باعوها، وكيف وصلت إلى
(رغد الرشيد) وفي ساقها جرح، في عينيها رمد، وفي مخابئ عفتها مائة
خدش أرادت أن تنال.. تحدثه عن صناعة الرغي.. تحدث.. تذكر، قل
أي شيء.. لا بد توجد لقمة طاعمة أكلتها، لا بد هناك عيدٌ ابتهجت به..
لا بد من ناس أحبك وأحببتهم..

- والجناح السلطاني؟

- ليس سيئاً.. السلطان لا يسأل، والسلطانة.. لا بأس.. لا بأس.
كانت (لا بأس) التي نطقها فيها تردد وخوف وانخطاف لون،
ولاحظ دمدوم أن الجارية أشرقت حين نطقت (لا يسأل) وانفأّت
حين رددت (لا بأس.. لا بأس). الخصي الجديد والملحق بجناح فقه
الأسرار.. لا يريد أن يتفقه، لكن الفقه يسعى إليه.
تلك العشية كان السلطان موجوداً، وكان متخففاً من أعباء السلطنة
كلها.. لا جبة خضراء أو حمراء أو ذات حواف مذهبة.. لا عمامة من
عمائم الضباب على الرأس.. لا عضلة متورمة، ولا حتى تلك العيون
الحادة البصر التي تحكم وتحاكم. كان رغداً آخر غير الذي شاهده في
المواكب.. وفي ذكرى أعياد الجلوس، رشيداً آخر غير الذي خرج إلى
الحرب وانتصر في الحرب وعاد مبيجلاً. وبصوت رقيق كأنه ينبع من
زهرة..

- أرى شيطاناً جديداً عندك يا مسك.

- ألا تعرفه؟

من أين يعرفه وخصيان السلطنة في ازدياد.. ومكسورو الأجنحة
في ازدياد والفقراء في ازدياد.. والمشكلة متفاقمة.. وللأمير مساعد
وجهة نظره.. من أين يعرفه؟ في الماضي كان الخصي عملة نادرة،
والآن حصى أو تراباً. أحياناً يتراجع إلى الدين مذعوراً.. يفكر في أخطاء
حكمه كلها.. لو عثرت دابة في قرية (هبوب)، لو جاع طفل في جبل
(الكراديس).. تحوير الرجال من أخطاء الحكم. وتدوير خصورهم
أخطاء لا تغتفر.. لكن شهوة العيش سلطاناً كانت تجيء.. تنقض على
صوفية التفكير وتدحرها.. لأن تحكم لا بد من ذلك. لأن يهابك الناس
لا بد من ذلك.

تأمل الخصي من مكانه ولم يعثر على سحنة مميزة تنسبه إلى هذه
القبيلة أو تلك.. هذا الحي أو ذلك..

لا تقولي هو من أهلي البراقيد.. أهل أمي؟

لا

صحيح أن اهتمامه بأهله البراقيد كان صفراً، وتليته لحاجاتهم ومطالبهم التي يصرخون بها في مجلس (الكوراك)، كانت هي نفس التلبية التي تخضع لتوتر المزاج أو صفائه، إمكانية الرد أو عدمها.. لكن الرعاع لم يدخلوا منطقة البراقيد أبداً، ولا حوّروا فيها (براقيديا) إلى خصي أو حتى دابة فقيرة. كانوا يسيرون بالعرف.. ليس العرف المفتل العضلات الذي يخيف ولكن ذلك الذي يجب اتباعه.. أخوال السلطان.. أبناء خاله.. أبناء خالته.. هكذا.

إذن..

إنه الصبي الذي أراد أن يصبح أباً شيخاً.. ذلك الذي صاح في جمعتك الظليلة وعطلها.

ابن صانع الطبول؟ الحاج نظر؟

نهض السلطان من اتكائه الواسعة على وسادة ريش النعام اللينة، نهض من تأمله لمسك النساء في عطرها وملاحتها وثياب بهجتها البنفسجية، ومن شراب زهر الورد الذي كان سخياً على كوب أحمر. ومن عضلة واجمة في الوجه، خيل ل(آدم نظر) أنه سيفترسه، ويفترس مسك النساء أيضاً لإدخالها عدوا بذئ اللسان إلى مخدعه. لكن ذلك لم يحدث أبداً، والذي حدث كان قهقهة عالية ومرعبة ارتج لها المكان.. نفس القهقهة التي تخيلوها في السابق حين صاح الصبي.. أريد أن أصبح أباً شيخاً.. أرووك.. التي من المفترض أنها سرت عبر السلسلة من رأسها إلى ذيلها.. إلى أذني المتصايح وانتهى الأمر. القهقهة المتأخرة جداً، والتي ناداها الحلق الآن بعد أربعة أعوام من استئثارته.. الأب الشيخ.. الأب الشيخ.. ذاك؟ القهقهة في الأسرة.. في أصص الورد، في الثياب المعلقة والمرتبة في الخزائن.. وفي قلب (آدم نظر).. ليست

فهقهة.. ولكنها وخز سكين.

تعال إلى قربي.. تعال أيها الأب.

اقترب بالدرجة التي لامست أنفاس السلطان فيها وجهه.. كان مستغرباً، وأحس فجأة بالسلطان والده الرحيم الذي من المفترض أن ينبغي، ذلك حين امتدت يده المرصعة بالخواتم لتلامس جبهته.. ثم صدغه، وتستقر على شعره المضفر بالأشرطة.. الآن (رغد الرشيد) يكي.. نعم يكي، وبعينين مستغربتين، شاهد دمدم دموعاً كالخرز تساقط من ورم عينه.. وباحتراق الصوت حين يحترق، ردد:

ذنوبنا على الأرض يا مسك.. ذنوبنا أستغفر الله العظيم.

كانت السلطنة غارقة في ذلك الموقف الأدمي، لكنها لم تسع إلى إفشاله أو تصعيده إلى الذروة، اكتفت بنظرات مبهمة، وصوت مجروش يخرج ولا يقول شيئاً.

جرة الأسرار المملثة حتى الحلق، ودمدم يغرف، والجارية (سلافة) تغرف.. والمغرفة تمشي في القصر والقصور الأخرى.. وعشية أخرى لا تقل انكساراً عن تلك العشية الأولى، كان السلطان متعباً، وقد عاد من رحلة بعيدة تفقد فيها الزراعة وثروة الحيوان، واطمأن إلى غنى الموسم بالغلال وإلى امتلاء الضروع باللبن. هي واحدة من جولات تجديد الدم التي يقوم بها من حين لآخر.. والسلطنة تريد السفر.. السفر إلى صعيد مصر لأنها سمعت عن صائغ عبقرى يحول أعناق ربات البيوت إلى أعناق سلطانات وأعناق السلطانات إلى أعناق حوريات لا يوجد مثلهن في الأرض، وقد فشلت في استجلابه إلى (جوا جوا) عبر القوافل لأنه لا يستطيع السفر.. كانت تريد قافلة لها وحدها.. تحملها وبرفقة الخدم والوصيفات والخصيان، وجنود الحراسة السلطانيين إلى حيث ذلك الصائغ. كان السلطان متردداً.. ثم رافضاً بشدة للأمر. وبالرغم من أن السلطنة خضعت في النهاية، لكن العشية كانت سوداء قاتمة:

هيا اقتلني بخنجرك.. يا رغد.. ماذا تنتظر؟ هيا ارسلني إلى
مستنقعات ولدك الضال والتافه، لأتحول إلى فتاة ليل.. ماذا تنتظر؟
ألا يحولون الرجال إلى نساء؟ ما المانع من تحويل النساء إلى فتيات
ليل.

كانت تزمجر بكيانها كله، بالرأس والعينين والشفيتين، والمفاصل،
وقدمي اللعنة اللتين دلقتا شراب الورد وقناني أخرى مرصوفة على
الطاولة.. دلقتها على الأرض. لكن السلطان لم يتحرك كثيراً، هي نصف
قومة قامها، ونصف تكشيرة كشرها، ورقدة كاملة شرع فيها، وبدا كأنه
سينام، لكن العشيّة سوداء.. سوداء قاتمة:

سأجلب (حليمة) دقاقة الزار حتى بيتك. سأغني وأرقص وأريهم
عوراتي كلها حتى يملوا.. عورات السلطانة في متناول اليد.. يا رغد..
يا ظالم.

نعم ظالم.. وظالم جداً.. الذي كانت في حلقة القهقهة كاملة، ولم
يطلقها، الذي استل بنداً متكاسلاً من لائحة (الكوراك) اسمه بند بذاءة
الأسنة.. ونشّطه في حق طفل.. الذي صاحت في مجلسه الرزينة..
مهرجان (جوا جوا)، وردّها إلى بيتها مكسورة، الذي تزوج من أرملة
فيها رائحة أزمة ورائحة حامض متخثر.. والذي رقد الآن لينام.. لكن
لا نوم ممكن..

- هل تذكر الجارية (عوفة) التي كنت تعاشرها في الريف يا رغد.. أنا
شوّهت وجهها.. وأشوه أي وجه يعجبك.. وأي جسد أشم فيه رائحة
أنفاسك.

جرة الأسرار تندفق، ودمدوم يلعق.. الجارية سلافة تتحسس وجهها
وترتعد.. (أنسابة) كلها تعرف (عوفة) جارية الحرير والرقّة، والوجه
الصبوح.. وجارية الأسمال والخشونة والوجه المحروق بعد ذلك..
يعرفون حياتها السرية.. وحياتها العلنية.. ويكادون أن يقسموا وبرغم

إنكار الجارية الكثيف، أن السلطانة هي التي شوهت تلك الرقة وذلك الوجه.. كان رغد يحبها.. ليس حب القلب ولكن حبا غريباً لا يستطيع تفسيره.. اشتراها من ملك ريفي برضائه عن الملك.. حين مر بمنطقته فوجد ترفاً وجارية مليحة.. أسكنها في الريف في واحد من بيوت الحياة السرية، وكان يغشاها كلما أحس بأنه يريد خبزاً حاراً أو شرباً مسكناً.. لكن (مسك النساء) تعرف.. وتستطيع أن تعرف.. وحين اشترى (سلافة) كان يخشى، ورضي بإلحاقها بخدمة القصر لا لأنه ملها، ولكن لأنه خاف على وجهها.. في الحياة العلنية لا توجد قبل.. لا توجد صدور تتأجج، ولا عناقات تحتلب اللعاب.. هنا أفضل.. هنا أفضل.

-13-

في أحد الأيام الباردة من شتاء (أمشير)، شتاء العواصف واهتزاز الإحساس، عرفت الرزينة نظراً بأمر أخيها المحور إلى ضد يقوم بالخدمة في قصر (المسك). عرفت من جارية تنظيف الجلد التي كانت تأتينا أيام ودّها السخي مع (السحابة) جدة السلطان، ورئيسة مجلس الجدد، وذلك لتحك جلدها وتلمعه وتظهره نظيفاً في المهرجانات. كانت الآن عاقلة جداً، بلا هذيان في السلوك، ولا أحلام يقظة عالية المستوى تسكنها في قصور المرمر وبين وسائل الحرير وبرفقة سلطان كسرها بعنف.. ولا تشرد غريب الأطوار ينزح بها إلى بيت نجّام الخصي لتستعير أمومتها. كانت تطبخ العصائد والحساءات كبناات البيوت، تكس كبناات البيوت، وتلي حاجات أمها المريضة كأبي بنت (أنسابية) موجودة في أي بيت. حتى وجهها المتألق الذي كانت تعشقه فيما مضى، لم تعد تحبه كثيراً، ونجّام لم يعد أمها المستعارة أو أختها الكبرى إلا في حالات نادرة حين تفاجئ أمها الغيبوبة، وتبدو هي مبعثرة، وفي حاجة إلى أم أو أخت كبيرة لتلم التبعر. وشيئاً فشيئاً عادت مهرجان (جوا جوا) القديمة إلى فقرة في مهرجان مستقبلي، ثم إلى عطر حيوي، عادت ابتسامتها، لتلطف كآبات الفقراء.. ابتدأت تخطط الثياب، وتاجر في اللحم المقدد، وساعدها (نجّام) في إلغاء صناعة الطبول من تاريخ العائلة، وتحويل مقرها إلى منسج لصناعة أسرة الحبال، وإشراف (بيقين) من أقربائه جاء بهم من بعيد. الآن مكتملة جداً، ومطبعة جداً وتصلح للزواج جداً، وربما لو جاء جبروتي ولد الحور مرة أخرى، وتقدم إلى خطبتها، لقلت نعم دون غطرسة، ودون مهلة قاسية للتفكير تستغرق زهرة العمر. لم يعد

أخوها القديم هاجساً مُرّاً، وما عادت مسألة تحويله إلى ضد تطير نعاسها وتقلبها في حلقة الليل يائسة مؤرقة.

لو جاء أعرج ستستقبله..

لو جاء أبكم وأصمما.. ستستقبله، ولو جاء بلا ذكورة وملوثاً بالهرمونات.. ستستقبله بشفافية الأخت التي تؤمن بالقدر والنصيب ولن يصيبنا إلا ما انكتب. في كل مرة يلح خاطر جديد، ويندحر خاطر قديم، والظفر لا يخرج من اللحم أبداً، ومثلما كان يوماً أخاها، فهو دائماً أخوها.. صاحب الصوت الضخم والعضلات هو صاحب الصوت الرقيق والميلان.. الرسالة التي كتبتها من قبل، ومزقتها.. وقالت فيها: لا تعد بلا ذكورة.. لا تعد أرجوك.. الآن ليست رسالتها هي الرزينة العاقلة الراسخة في جينات العائلة، والحريصة على بر الأم، والذائبة شوقاً للقاء فرد غائب. كانت تلك رسالة تافهة وبلا ضمير ومن رزينة أخرى لم تكن تفهم في الدنيا سوى شيء واحد.. كيف ترسم سلطنة منعمة في خيال اليقظة، وترتديها في شوارع الفقر رزينة هائمة ومريضة بالفصام وفيها مستعمرات مكر هائلة.

جاءتها الجارية من باب الثرثرة، ونشر غسيل القصور الذي كانت الجواري يعشقن فتحه بشدة.. دلقت على سمعها أملاح حرق الدم.. أخوك في قصر المسك.. عند السلطنة مسك النساء.. هو نفسه. أخي (آدم نظر)؟

قالتها بمشقة وصوت مبحوح، وكأنها تعني.. أخي القديم؟ لكن جملة (عند السلطنة) كانت كافية جداً لمسح القديم عن تذكرها، وحقن الجديد المتخيل في ذلك التذكر. الذي عند مسك النساء لا يمكن أن يكون إلا جديداً، ومحوراً.. ضداً وضده.. مادام عند أنثى فهو أنثى أو يقترب. لم تقل شكراً ولم تقل متى، ولم تقل كيف، وصرفت جارية تنظيف الجلد بعد أن منحها ثوباً حريرياً، وبضع دنائير صدثة،

وانهمكت في دعاء صامت، لكن صمته يتحدث، وبصوت جهوري:
لا نسألك رد القضاء ولكن اللطف فيه.

ما حدث لأخيها.. كان هو القضاء.. واللطف فيه.. أن تستطيع
تذوقه وهو في ثياب القضاء التي ألبسها له.

ودون موعد أو التفكير في موعد، أسرع إلى الجدة السحابة في
قصر (روح الأصيل) الذي انتقلت إليه مؤخراً بعد أن تصدعت بعض
الجدران في قصرها القديم، وحول السلطان تسميته من قصر إلى مستودع
قد يستغل فيما بعد في أعمال الرعاع الجلييلة. كان (روح الأصيل) قريباً
جداً من قصر المسك.. قريباً من النبض والشهوة والتحكم، ولكن
بعيداً جداً عن معمار قصر المسك.. الغرف العادية. المرتبة عادياً..
الجدران البنية الطلاء وفيها رائحة إرث.. الأثاث الكلاسيكي المصنع
في جوا جوا، بعيداً عن خشب الورد، والخدم القليلون مقارنة بجيوش
قصر المسك. في أيام عزها وحين كانت سلطنة في عهد زوجها، لم
تكن السحابة أكثر من (أنساية) وربة بيت فقط بلقب سلطنة، وفي أيام
شيخوختها هذه، لم تكن تريد أكثر من حجرة وخادمة، ووعاء به (تمباك)
كثير لتعديل المزاج.. لكن مجلس الجدات يحتاج أكثر يحتاج شيئاً من
الترفيه، شيئاً من الغطوسة.. شيئاً من اتساع المقر.

كان جبل الود بين الجدة والرزينة الآن مقطوعاً تماماً.. قطعت
مأساة عائلة (نظر) الفخمة والمزمنة، والبعيدة الحل.. قطعه العناد الضال
لفتاة لم تستطع أن تحتفظ بأي معنى جليل لجدة جلييلة، وقطعه احتداد
مزاج الجدة حين ذهبت محملة ومكملة لتطأ بقدميها الفقر وعادت دون
أن يستسلم لها الفقر كما أرادت. في سنوات إدارتها لمجلس الجدات،
وإشرافها الفعلي على نشاط طاهرات (أنسابة)، لم تكن الجدة ترد
بسهولة، ولم يردها أحد من قبل أبداً.. وما كان رفض السلطان لتلبية
بعض طلباتها المطبات يكدرها، لأن السلطان سلطان. والرعية رعية..

وهي مهما كبرت أو تمكنت ليست سوى موظفة عند (رغد الرشيد)
سلطان (أنسابة).

وقفت الرزينة هذه المرة أمام الجدة وقفة مختلفة.. ليست وقفة
الجسد المعتر بينائه، ولا وقفة العناد الذي كان ضالاً، ولكن وقفة
المخطئة التي جاءت لترتيق حبل الود:

جدتي أتأسف بشدة.. أتأسف على كل شيء.. صدقيني..
لا يهم.. لا يهم يا بنية.

غمرتها (السحابة) باندفاع المطر الذي بدأ رذاذاً وانهمر بعد
ذلك.. ضمتها إلى الصدر العجوز والخشن، وقبلتها بشفتي (التمباك)
المحتقتين. وبكت معها بكاء جدة وحفيدة في مصاب واحد.. لا يهم يا
بنية.. لا يهم.

أريد رؤية أخي.. رؤيته فقط.. وفي أي وضع هو فيه.. أرجوك
جدتي.

لن تنكر الجدة معرفتها بمكان الضد الجديد (دمدوم).. والخبر
الذي تسرب من قصر المسك، خاض الأوحال كلها، وتعر في الحفر
كلها حتى وصل حيي الرديم، لابد قد تسرب بتفاصيله كلها.. بغليانه
كله.. لم يكن أمراً مهماً أن يرد إلى أحد قصور السلطنة خصيان جدد،
ومنذ تكونت السلطنة، وتعددت المهام، وتكاثرت الحريم في الدواخل
المخفية، والخصيان يرسلون.. ومنذ تأسست كتية الرعاع، والضعفاء
يحورون، ويرسلون.. ولكن دمدوم الجديد كان حدثاً آخر، الحدث
الذي عطل الجمعة الظليلة لأول مرة منذ أن اعتبرت جمعة، واعتبرت
ظليلة.. والأهم أنه الأخ البكر لطاهرتها التي تقف الآن مذلولة أمامها.
مرت على قصر المسك في أحد الأيام، كانت في حاجة إلى لبخة من
لبخات وجع المفاصل لتسكت أنين ركبتيها الذي جردها نعمة النوم،
شاهدتهم يلتفون حول خصي جديد، كانوا يعلمونه الفطنة وانتقاء الوجه

الذي ستبصق عليه سلطنة القصر عند مرورها.. أو الفطنة الأخرى في التسكع بحساب، والعثور على ذرات الغبار مهما صغرت في الحوائط، وأثاث خشب الورد.. والفطنة الثالثة ألا يستغرق حتى لو نام بالفعل.. لا نستطيع التكهن.. دمدوم.. لا أحد يستطيع.

سألت الجدة بفضول ليس من طبعها ولكن قد يكون من طبع مركزها كرئيسة لمجلس حيوي:

من هذا؟

دمدوم الذي كان (آدم نظر).. الصبي الذي أراد الأبوّة الشيخة.. الذي حوكم ببذاءة اللسان.

لم تسأل أكثر لأنها لم ترد أن تعرف أكثر ولم تذكر الرزينة حتى، لأن تذكرها لتلك الفتاة الهائمة والجريئة كان سيفسد نعاسها أكثر من أنين المفاصل. انصرفت إلى البحث عن لبخة الأنين التي جاءت من أجلها والخصي الجديد يحاول تعلم الفطنة، والفطنة الأخرى والثالثة، وقد تخضب بالعرق.

سأعود إلى نشاط الطاهرات كله من جديد.. سأطفئ الحرائق المشتعلة، وأعلم الأميرات آداب السلوك، سأرتدي ذهب اليهود كلهم من (عامير) حتى (آريل).. وأحك جلدي حتى ينزف الدم.. أرجوك جدتي..

احتدت الرزينة، وتخلخلت. خرج منها الصوت البعيد جداً.. صوت المفزوعين في الحرب.. الذين تطاردهم ذئاب جائعة، والذين هم محبوسون في بئر.. وبدا أكيدا أنها ستسقط على الأرض.

غير ضروري يا بنية.. حقا غير ضروري.

انهمر المطر أكثر.. ليخضر قلبها الرقيق بشدة.. وتمتد الخضرة إلى كيائها المفزوع كله. وعدتها المسحابة بتلبية رغبتها دون شروط، وفي اليوم المتفق عليه أقامت الجدة مائدتها السنوية التي كانت تجمع فيها

حطام جدات مجلسها تكريماً لهن بعد موسم قد يكون جافاً وقد يكون حافلاً بالمشاغل. أقامتها بفارق ثلاثة أشهر كاملة عن الموعد الرسمي. قالت.. بعضهن مريضات، بعضهن يمر بأزمات عاطفية، وبعضهن قد يموت فجأة دون تكريم. وقالت: ثمة ملاحظات عاجلة على عمل المجلس في الموسم الماضي ولا بد من أيضاًحها. كانت تلك المائدة السنوية امتيازاً تقدمه السلطنة للسحابة، وتستنفر فيه الخصيان والخدم من كل قصر، حتى يخرج رأسها مرفوعاً.. كانت ثمة تعقيدات بسيطة في استنفار خدم قصر المسك، لكنها في النهاية دائماً ما تزول.

لم تكن ثمة معضلة في إدخال الرزينة إلى قصر (روح الأصيل).. فقد كانت من طاهرات (أنساب) العريقات.. شاركت في المواكب وحمل الفوانيس وترديد قصائد العز والرفعة ودخلت إلى القصور مرفوعة الرأس، أطفأت حرائق، علمت البنات رقي السلوك، أخذت حكمة من هنا وغزلاً من هناك، وما عادت تشكها رعشتها القديمة حين تتكئ على أحد أعمدة الرخام. لكن المعضلة كانت في تلقي الصدمة. صدمة الأخت الهائمة حين تلتقي ضداً كان في يوم من الأيام يزجرها، يكلفها بالمشاق، يمرغها في التراب، يشد شعرها في لحظات الغضب، ويحبها حب الفتونة للضعف.. صدمة الضد نفسه حين يلتقي أختاً كان يعتبرها عورة واجبة الستر، والآن ينازعها في دقة الخصر واتساع الحوض، وبؤر التواءات التي كانت في موضعها تماماً في الجسد. السحابة العاقلة والمبصرة بتسعة وثمانين عاماً أبصرت فيها الحياة عماراً وخراباً، وأياماً منها الحلو والمُر، خفت من غليان الأمر.. خفت جداً:

تخفي يا بنية.. كوني جارية، كوني وصيفة للأميرات.. كوني خصياً.. كوني أي شيء حين تلتقين أخاك، لكن لا تبكي في قصري أبداً.. لا تبكي أرجوك.

- قد لا أستطيع جدتي..

- بل تستطيعين.

مائدة الجدات المبكرة عن موعدها بكل صخبها وحكمها، وأدوات تخريفها أيضاً.. الوجيها المتقيات من عطر القبائل وبيوتها المؤسسة، لا يحملن الجمال الآن، لكنهن يحملن مسحات منه.. ولا يحملن أسنان المضغ كلها ولكن يحملن بعضاً منها، وقد لا يسعهن ضعف الهضم، واضطراب التنفس، وخلل في الغدد، لكنهن لا يأبهن.

من هذا المجلس الكبير، انطلقت رايات (نفر المقدم) خفاقة لتنبسط على حكم (أنسابة).. انطلقت عواءات موته، وتأبينه ونعيه للأمة حتى ووري التراب. من هنا مكر (رغد الرشيد) على وعكة أبيه، واستخرج المباركة والتأييد.. أيضاً من هنا دائماً ما تبدأ بدايات الحرب ودائماً ما تنتهي النهايات. وكانت ثمة صلاحية قاتلت الجدة من أجلها ولم تنلها.. تلك التي تختص بزواج السلاطين والأمراء.. كانت (مسك النساء) وبالا على (آل ضو) ولم ترد أن يتكرر نموذجها في سلطنة بعد ذلك.

رست المائدة بواسطة الخدم المستنفرين من كافة القصور، كان (قلوب) مستنفرا، و(دمدوم) أيضاً مستنفرا، والجارية (سلافة) مستنفرة.. وكان دمدوم مجتهدا، نظف المكان، ساهم في طبخ القدور، وانحنى بأدب متمایل على كل جدة يسألها عن طلباتها. دخلت الرزينة في تلك اللحظة، كانت جارية في الثياب المزركشة، وعلى وجهها ذلك الخمار الذهبي الذي يسمح بالرؤية لكنه يدس الملامح.. التقطت أختها كاملاً.. التقطت وجهه الهرموني، وجسده الهرموني، وعينيه الهرمونيتين، وانحناء الهرمونات التي كان ينحني بها على الجدات. حيته في السر.. تذكرته في السر، وسعت إلى كتفين قويين متخيلين أو مستعادين من الماضي، غرقت فيهما في السر أيضاً.. لا تبكي في قصري.. لا تبكي أرجوك.. كانت تحس بيوادر التوهان.. بيوادر تصدع الذهن.. بالمغص،

وانصرفت لتدلق بكاء الأعوام كله على الطريق..

نَجَّام الذي رافقها في هذه المصيبة، وفي لحظة من لحظات الأمومة التي باتت الآن نادرة، لم يبد متأثراً، لم يقل وجهه، ولم تقل عيناه، ولا صوته الهرموني.. ربما لأنه ابتكر فلسفته منذ عهد.. ويتفلسف بها الآن.. وربما لأنه لم يحظ أبداً بأخت هائلة تبكي تأسفاً على تحويره.. حين أخذوه من منطقة قبائل (البيقو) كان في الواقع يتيماً.. ووحيداً.. وما كان في القبيلة قلب يتأسف على يتيم ووحيد.. دخل المستنقع دابة وتحور إلى ضد، وخرج إلى قصر (المسك)، وطرد من قصر المسك، وطبخ حساء الطيور الجارحة، وأعفى من الخدمة، وسكن في حي لا يعرفه.. وسار في الطرقات الجارحة والمؤلمة، في رحلة عمرها أربعة عشر عاماً، ولم يجد أبداً من يبكي على حياته.. وحين يصادف (بقيين) من أهله.. يسألونه.. كيف حالك يا نَجَّام؟، دون أن يسألوا لماذا أنت هكذا يا نَجَّام؟.. أحاط الرزينة بروتين الإحاطة الذي مارسه طويلاً في حقها، أسندها بروتين الإسناد، وذهب بها إلى بيتها بروتين الطرق التي تؤدي إلى البيت.. كان يحس بها حزينه لكنها متماسكة، وبأكية لكنها لم تنس شارعا أو زقاقا أو طعما أو رائحة عطر.. خلافا لما حدث لها حين صاحت في مجلس (الكوراك) وانكسرت.

- هل شاهدت أخاك آدم؟ كيف حاله؟ هل تعيش؟ هل غسل ثيابه؟ هل أحضر إكسبر مرارة الكبد الذي طلبته منه؟

تسألها أمها من تحت ألحفة المرض.. لم تكن على يقين من أي شيء.. وبدت غير مصدقة حين أخبرتها الرزينة أنها شاهدته بالفعل.. لم تقل كيف شاهدته.. لكن الأم كانت تعرف.. والرديم يعرف.. و(أنسابة) كلها تعرف..

كيف كانت ردة فعله حين دخلت؟

يسألها الرديم كله.. الرديم الذي كان متعطشا لمأساة جديدة،

والذي نسج أهله سيناريو اللقاء والدموع، وردة الفعل كاملة، قالوا سيموت واقفاً.. وقالوا ستموت هي واقفة.. لم يفقد الرديم تعاطفه حقيقة، لكنه كأبي حي منسي، فيه توافه لا بد من طبخها حتى يخف القليل من طعم الفقر.

في الحلق طعم مالح، في النهايات العصبية خدر مكثف.. في لغة هواء التنفس أحرف صعبة الهجاء.. وفي داخل رثة التذوق جرح. لم يكن توهانا ما سيحدث هذه المرة، ولكنها الحقيقة المشعة في الذهن المشع، الدرب الذي انحرف ولا بد أن يستقيم، الزرع الذي يبس ولا بد أن يروى.. النسيان.. والنسيان إلى أبعد مداه.

لو هامت في الطرق كلها.. والأحياء كلها.. والمدن كلها.. ستهيم بلا نتيجة.

لو بكت لدرجة أن حلبت الدم من شعيراته.. ستبكي، وستحلب الدم من شعيراته ولكن بلا نتيجة.

لو عادت إلى أمومة (نَجَام) الكاملة، وأمومة مئات الخصيان غيره، ستعود ولكن بلا نتيجة.

لو وصلت إلى رجل المهام الجليلة في عقر جبروته، جرعه السم وأبصرته جثة تحلل.. قد تصل، تجرعه، وتبصره جثة.. ولكن بلا نتيجة.

ولو بقيت في (جوا جوا).. العاصمة حيث ولدت وحيث تربت وفقدت وهامت.. ستبقى ولكن قريبة من عورة العائلة.. والتي هي النتيجة الوحيدة.. إذن:

نَجَام أيها الصديق.. هل ترافقني أنا وأمي إلى قرية أم حراب؟
قرية أم حراب؟

نعم حيث أهلي التنجر كلهم.. وحيث قررت أن أعيش.

وحياتك هنا.. وماضيك ومستقبلك؟

- حياتي هناك. صدقني.. حياتي هناك.

وجبروتي الذي يعيش هناك؟ ألا تخشين من التصاقه بك مرة أخرى بعد أن تخلصت منه؟

لا لا أخشى ذلك.. لأنني سأ تزوجه لو تقدم إلي مرة أخرى.
كان وجهها ملائكياً نضراً.. حبالها الصوتية في غاية النقاء، أطرافها متماسكة بلا رعشة، وقد بدأت بالفعل في رص الحقائق، وتعبئة القفاف، واستعادة ولد الحُور إلى ذاكرة الحاضر مجدداً. استعادته ولكن بلا عيوب. جلده غير المصبوغ كأنه كان أسمر وتساقطت صبغته.. حموضة لهائه قد تحسناها معاشرة، هيكله العظمي قد يمتلئ.. عطور نضارته ليست سيئة.. والأهم من ذلك إنه يحبني.. نعم يحبني.

تلك الليلة بالذات وتحت الشعور بشبح القلب، وراحة الضمير، التهمت الرزينة عشاءها كاملاً، استغفرت استغفاراتها كاملة، وحدثت أمها بقرار النزوح الذي كان أخيراً وبلا تراجع.

كانت الأم ساكنة ومريضة، وعندها تواطؤ للنسيان أيضاً لكنه لا يصمد كثيراً أمام غليان التذكر، استسلمت وبكت، ورددت.. على بركة الله.. على بركة الله يا بنية. ولكن ماذا نقول لأهلنا في أم حراب حين يسألون؟

لا تقولي شيئاً.. فهم يعرفون.

صباح متكسد بالحزن ذلك الذي أشرق على حي (الرديم) أفقر أحياء (جوا جوا) قاطبة، وأكثرها تلويها بريشات فناني صياغة الرعاع.. نهضت الرزينة من النوم، فنهض الحي كله، تمطت في فراشها، فتمطى الحي كله، شربت شاياً (منعماً) فشرب الحي كله، ومضت إلى حزم الحقائق في قافلة السفر، فتردد الحي كله..

لا ترحلي يا رائعة..

لا تذهبي يا ساحرة..

تمهلي يا مهرجان..

نريدك بيننا إلى الأبد.

رائعة، ومهرجان، وساحرة، ويريدونها إلى الأبد.. لكن هل قاموا بتجربة طعم الخسارة مثلها؟ هل امتلكوا قوائم للانكسارات مثلما امتلكت؟.. أب مات في سيرة الحج ولم يحجج.. أخ ممرغ في الهرمونات وعند سلطنة تافهة.. أم تموت وتستيقظ في كل يوم.. وقلب ليس مجروحاً فقط.. ولكنه متآكل.. نريدك يا رائعة.. في الماضي كانت للكلمة حلاوتها.. لسير المهرجانات وقعتها.. والآن لا توجد غير قرية (أم حراب) ما أحلى سيرتك يا قرية أم حراب..

جاء (نَجَّام) من بيته يسعى راكضاً، كان لاهئاً، ومضعباً، ومرفوع الثوب في انفعال واضح، لم يكن في عينيه كحل، ولم تكن في يده حقبة للسفر.. أوقفه لحمل زاد.. زاد السفر.. اقترب من الرزينة التي كان السفر كله مرسوماً في وجهها:

- آسف يا رائعة.. لا أستطيع مرافقتكم.

- لماذا نَجَّام؟ لماذا أيها الصديق؟

جدت ظروف في الأمر.. صدقيني.. كنت أود السفر معكم ولكن.. لم يصف كلمة أخرى، وضغط على (ولكن) الأخيرة في جملة حتى كاد يدميها.. إنها (ولكن) المبهمة التي تحتل مائة معنى.. ومائة ظرف.. والتي لا تصدر إلا في الخطوب الجليلة والتي فيها كتمانٌ أجل.. ليس نَجَّام من يتركني.. ليس الذي تضطره الظروف أبداً.. وكما كان سندا مستقراً، فلابد سيكون سندا مترحلاً.. نَجَّام ماذا جرى؟ تقترب منه بعينها.. بيديها، بكيانها المستعد للسفر وفي لحظة الاستفسار المحرجة.. يسندها إلى أمومة طارئة.. يهمس.

- استدعوني إلى الكتيبة مجدداً.. لا أعرف ما ينتظرنني، لكنهم استدعوني..

لا تقل من أجل حساء الرميات البذيء ذلك.. لا تقل من أجل

قصر سيكنس أو حديقة ستنسق.. أو أميرة بلا حياء تحاول الفكك من
سور الحريم.. أتركهم نجّام.. هيا.. أتركهم.. لا يستطيع، بالطبع لا
يستطيع، وما داموا قد استدعوه فقد استدعي.. وما دام قد استدعي.. فقد
لبى.. وداعاً.. وداعاً أيها الصديق.. اقتربت أكثر وضعت على خده قبلة
البنات التي كان يوماً أمها.. واستلمت من فمه قبلة الأم التي تودع وقلبها
ينفطر.

-14-

عشية آدم نظر - دمدوم. عشيته وحده في جناح رائق ومزدهر، وعامر بالمعقول وغيره ومادامت كذلك فلينفض القلب.

كان السلطان في يوم قنصه الشهري في تلك الأحراش المتشابكة، والمبعثرة في ضواحي العاصمة (جوا جوا)، تمدّها بحطب الوقود وفراء الثعالب، ومتعة الصيد خاصة حين يصفو الجو، ويتربع الربيع على كرسي المناخ.

كانوا يصيدون الأرانب والظباء وطيور القطا وحمير الوحش، وقد يعثرون على نمر جريح، يجرونه من جرحه مهللين أو يفاجمهم أسد ضاري، فيلغون من ضراوته الصيد ويرجعون في مثل هذا اليوم ينشط فضيل (الظهوريين) حراس السلطان، ويسد الرعاع منافذ الأحراش تاركين المتعة كاملة للحراب السلطانية، والصقور المدربة، وكلاب الصيد ذات الشم القوي، والتي كان الرشيد يستوردها من أماكن بعيدة. كان السلطان يأتي متأخرا في العادة، يتعشى من صيده، وتظل (مسك النساء) أسيرة لنباتاتها وأزهارها الحمراء في الحديقة الملحقة بالقصر، تنسقها بلا كلل، وقد تكل، تحل شعرها إلى أمواج، وتضفره إلى جدائل، وقد يعتل مزاجها فجأة، فتطوف راكضة بصالات القصر، وغرفة، ومخابئه البعيدة باحثة عن خادم يتشاب لتسد حنكه أو جارية تحاول التأنيق، فتفسد أناقها.. وكان من جراء ذلك أن تحول يوم القنص الشهري للسلطان رغد، إلى يوم معروف لعدم التأثر.. أدخله الخدم في دروس الفطنة، وكانوا يدرسونه لكل قادم جديد.

الجارية (سلافة) كانت موجودة لكن أمعاءها تقلصت فجأة، وتذكر

بليدا سرى في كيائها، كانت قد هيجتها قافلة تتاجر في الجوارى والعبيد، وصلت إلى (جوا جوا) مؤخراً، وكانت بها جارية تمت لها بصلة الدم، اشترتها السلطانة، وألحقت بقصر المسك.. أعذرني يا دمدوم.. كانت تتقلص.. أعذرني سأستفرغ..

عشيته وحده في كرسي خشب الورد.. وأزهار نرجس أصيلة تفتح في أضيض وردي، لوحات (جيو فاني) العالمي التي رسم فيها السلطانة في يوم زفافها إلى الرشيد ويوم ولادتها بابنها البكر، ويوم اشترت أقرطا جديدة، موزعة في كل ركن من المكان، وعذابات طائر الكناري المحبوس في القفص المخملي.. تأتي.. تأتي مغردة.. ولا مانع أبداً من مكنسة التأمل، لتكنس قليلاً من غبار القلب.

في قناني متراسة أمامه، عثر على عطور متنوعة، تشبه عطور (جبروتي) التي كان يخترعها للنضارة، والتوهان، وشفافية القلب، لكن أزهارها تختلف، ولملمسها بين الأصابع يختلف. شمها كلها، وتعطر منها واحداً واحداً، وأحس بالدفء يسري.

حين جاءت أخته الرزينة إلى قصر (روح الأصيل) في يوم مأدبة الجدات الكبيرة تلك، لم يعرفها من الوهلة الأولى وكاد يعرفها في الوهلات التي تلت، التقطت عيناه جارية وردية الثياب، ومذهبة الخمار، وفي أصابعها حناء باهتة.. أحس بها غريبة في وسط ذلك الكم الهائل من الجوارى اللائي يعرفهن ويعرفنه.. لكن العمال مستنفرون، الخصيان مستنفرون، والجاريات مقيمات، وقاديات من قصور أخرى لرفع رقبة الجدة في يوم مائدتها العامرة. وحين استدارت وذهبت، التقط ذهابها، أحس به ذهاب روح يعرفها، يحبها، وعاش برفقتها سنياً قبل ذلك. نفسه الذهاب الشفاف.. الهائم، والمكسر الخطى.. لم تكن الخلاخيل في الرجل أليفة، ولا حناء اليدين أليفة، ولكن كل شيء آخر يضح إلفة.. لن تكون الرزينة لأن الرزينة ليست جارية، ولن تكون جارية مستفزة،

لأن يديها كانتا بعيدتين عن أية خدمة.. احتار لكنه هش اختياره.. احتمال
صخب المائدة الكبيرة والعامرة كله حتى تلاشى، انحنى، وسأل، وتمايل،
وقدم الشراب المرطب، وحتى ابتدأت الجذات يتعكزن على عصيهن
ويمضين. وفي أثناء خدمته لاحظ شيئاً غريباً.. كانت (السحابة) تلتقطه
بين لحظة وأخرى، لم تكن نظرات ازدراء، ولا نظرات عطف، ولكن
نظرات واسعة.. شديدة الاتساع من ثقبين ضيقين مثبتين في وجهه يابس.
في البداية ظنها تريد شيئاً محدداً.. شيئاً غير متوفر في مائدتها العامرة،
اقترب بأذنه من صوتها الكليل، وفوجئ بها تصرفه بإشارة من يدها،
ودون أن تخسر جملة صوتية في حقه. تطالعه بالنظرات نفسها، ويقترّب،
تصرفه بالإشارة نفسها ويتعد. وحين دخلت تلك الجارية الوردية
والمذهبة، والتي في قدميها خلاخيل فضة منغمة، كانت نظرات الجدة
في اتساع بذئ غطاء كله. هو لا يعرف السحابة أبداً.. وما التقاها إلا لقاء
خصي يخدم بجدة سلطنة، ولو فتحت كهفها وقالت شيئاً لعرف. لكن
الكهف مغلق.. وهو لا يعرف.. يود أن يعرف.

الأخبار لا تندس أبداً.. في القصور المرفهة أو أحياء الفقر أو
السوق والطرق، النصوص المكتوبة قد تعاد كما هي أو قد تكتب
بأحبار أخرى، وتروى من جديد.. والجواري يعشقن فتح الباب الذي
تأتي من خلفه الجروح، الخصيان بفداحة التحور الهرموني، يعشقون فتح
الباب نفسه، والذين أعادوا كتابة النص، كانوا حساداً، وغيورين، ويتمنون
أن يسقط في نظر (مسك النساء) وفي نظر الدنيا كلها.. تكالبوا والمائدة
قد رفعت، والجذات قد بدأن الشخير، وقصر المسك نائم أو يتشاءب:

هل رأيت أختك الرزينة يا دمدوم.. كانت في ثياب الجواري، وكانت
تأملك وتستفرغ، وسمعناها تردد.. ليس أخي.. ليس أخي..

يريدونه أن يشهق أو يموت أو ترى السلطنة مخاط عينية،

فتكنسه.

في الدواخل المخفية للترف، توجد ضمائر ملوثة، وهياكل بلا قلوب، ونزعات لامتناصص الدم حتى آخر قطراته.. والذي يقترب من قمة الترف.. المخدع السلطاني، تبتدئ إجراءات إسقاطه، والذي يسقط يكنس إلى الطريق.. فضلة.. وباء.. قطا أجرب.

خصي، ومنبوذ، وتائه، وفي الطريق العام؟
ما أسوأ النصيب لو كان كذلك.. تلك هي الساعة التي يتحتم على المرء فيها أن يختار، وغالبا ما يختار لسعة السم.

لم يسقط لأنه لم يفاجأ.. ذلك المجيء الرزين بالخطوات المكسرة.. ذلك الذهب الشفاف تحت ثياب الجارية، ونغمة الخلاخيل، اليوم بالذات أحس بأنه الفرع الذي انقطع تماماً من شجرة آل (نظر حباب).. تركته الرزينة، ولا بد تركته أمه أيضاً..

كان (قلوب) موجوداً، وكان ما يزال قلوب الذي لم يكن أبداً في مستنقع الرعاع.. ذلك الصديق.. قارئ طالع الأمير، والذي أحب (آدم نظر)، وأحب الفرس (شبرق) وزفوه إلى قصر المسك بالدموع يوم نادوه إلى الخدمة.. كان شرساً ونافراً، ويأبى حتى أن يمد يدا للمصافحة.. وقد سمع دمدوم أنه كان في قمة الخدمة.. في المخدع السلطاني.. وسقط.. وعين الآن حارساً لأحد المخادع الحريرية حيث تقيم الأميرة (رغت الرشيدة) شقيقة السلطان، وذلك بعد أن شم السلطان رائحة رجل تنبعث من كل شبر في المخدع. وقيل أن (قلوب) بالغ في تفانيه في تلك الوظيفة، اقتنص ظهورياً مسكيناً من حرس السلطان وقدمه إلى المفصلة باعتباره صاحب تلك الرائحة التي كانت تنز في المخدع.. كان دمدوم مستغرباً بشدة.. لم أرفعك إلى فوق حين ارتفعت، ولم أسقطك إلى تحت حين سقطت.. ما ذنبي؟ نحن كلنا تحت قدمين لا ترحمان وفي نعمة هي نعمة..

من طرف شفتيه وبضحكة هرمونية عنيفة ردد قلوب:

- زوجتي حرة الآن في أحضان تاجر من المساليط.. ولا بد أن أختك الرزينة قد عثرت على تاجر من (التنجر) وتنام في أحضانه.. لا تحزن يا دمدوم.. ما دمت قد خصيت فلا بد أن تخصي كل العائلة.. ها.. ها..

لو كان هذا في الماضي، لمات خصي اسمه (قلب الأسد - قلوب) متأثراً بطعنة خنجر نفذت إلى القلب.. لو كان في الماضي، ربما لن يعثروا حتى على رأس صالح لإيوائه مع الجسد.. الماضي والحاضر.. ما الفرق بينهما؟

أكيد ثمة فرق.. صوت فتونة الجبال الصوتية، وصوت هرموناتها، القدرة على رد الأذى والقدرة على احتمالها، الفرق بين (حلحلوك) المجنون الذي يريد، وبين (مسك النساء) المجنونة التي تريد، بين رغد السلطان ورغد الذي قد يصبح متسولاً في سوق الفخاريات، وقلوب نفسه حين كان شديداً وتافهاً، وسارقاً لفئران (الكدكاي) من حلقو الغير، والشديد التافه الآن والسارق لبصيص الفتونة من ضعف الغير.. قد يتخيل السماء مثقوبة وتفرز الدم، وحي الرديم المسكين، قصوراً للمسك والنجس، ووالده يعود من قبره ليحجج، ويسعى، ويقبل الحجر، ولكن الرزينة.. لن تكون إلا أخته.. مهرجان (جوا جوا)، وسيدة طاهرات (أنسابة). قد تتركه كما فعلت.. قد تنساه كما ستفعل، وقد تكون الآن زوجة لولد الحُور بكل عيوبه وحموضة لهائه، ولكن ليس في أحضان تاجر (تنجري) يسلفها.

يريدونه أن يسقط لكن الجارية (سلافة) كانت قد قالت الحكمة كلها.. تذكر لقمة طاعمة أكلتها.. تذكر عيداً صاحباً عيدته.. تذكر ناساً أحببتهم ذات يوم وأحبوك.

لم يقل لقلوب شيئاً.. ولا للآخرين شيئاً.. وانصرف.

عشية دمدوم وحده.. السلطان في القنص.. السلطانة في تنسيق

نباتاتها.. الجارية في المغص والتقلص والتذكر البليد، والقلب يكنس من غباره بشدة..

عادة الدخول إلى حمام صاحبة العز بدأت فجأة وتحولت إلى عادة..

عادة دلق الماء على جسدها، وتدليك أجزائها، وتجفيفها بالحرير بدأت فجأة وتحولت إلى عادة.

وعادة ضمها إلى الصدر وتمزيق قسوتها في تلك المحصلة الكثيفة.. غليان الأنفاس، العرق من مسام الوجه حتى مسام القدمين، والمواء كالقطط، بدأت فجأة، وتحولت إلى عادة..

يوم عادي من أيام خدمته التي لا يسمح فيها بالتشاؤب أبداً.. الأيام كلها بذينة، والتواريخ تبدو عرجاء وهي تأتي، ومكسورة القدمين وهي تمضي.. حين تكون الجارية (سلافة) بقره، يحس بالدفء، يقتسمان البهجة لو كانت ثمة بهجة، ويقتسمان الإيذاء المؤكد أنه إيذاء. وحين يجئ السلطان متسربا من مشاغله، يتجرع الورد الدافئ، يمد يد الخواتم المرصعة إلى جبهته أو ثنايا ضفائره، ويردد: ذنوبنا على الأرض.. ذنوبنا يا مسك.. يحس بالدفء أيضاً، بأبوة السلطان غير المحسوسة، والتي لا يعرفها أحد. ليس (رغد الرشيد) الذي يأتي مبعثرا ومتخففا، هو (رغد الرشيد) الذي يحكم، وليس الذي يمد اليد لترت على كتف خادم خصي، هو الذي يمد الحبل طويلاً ومتيناً لابنه الأمير مساعد ليصنع هذا الخادم الخصي.. التناقض حتى في الوقت، في اللغة، في التصرفات، في الأبوة الغاشمة التي هي أبوة لشعب، والأبوة الناعمة السلسة، التي هي أبوة لخصي، وعيال لم يبلغوا الحلم بعد. أحياناً يأتي أطفاله الصغار من منابت رعايتهم في صدور المربيات.. يحيلون مخدع نعاسه إلى مخدع فوضاهم، يضربونه بكرة الخرق، ويوسخون على ثيابه، وينادونه برغد حافية حتى من صبغة الأب.. كان يبتسم.. أحياناً يقتنص اللحظة الدقيقة

في المخدع الواسع العيون، يمد يده إلى خصر جاريته سلافة، ويهزه.. وقد قرقرت في بطنه غازات.. أحياناً ينام.. وينام.. ويخشى دمدوم أنها النومة التي ما بعدها استيقاظ.

السلطانة تريد أن تستحم، تريد ماء الورد المعطر، والجارية في مهام أخرى داخل أحد الأجنحة البعيدة. ودمدوم مرهق، ويدس الثاؤب في حلقه بتغطيته براحة اليد، ومن غرفة استحمامها الملحقة بالمخدع الوردي.. تزمجر.. ماء الورد يا سلافة.. يا جارية.. يا دمدوم.. يا غبي.. حمله إليها دون أن يفكر أنه يحمل مهمة لم تفصل له، دون أن يدري أن السلطانة في إناء الاستحمام جليّة حتى من ورقة الثوت اليابسة.. وضع إناء ماء الورد أمامها، وانصرف بالتفاصيل كلها إلى الخارج. ليس الجسد المرمرى الذي طالما تخيله.. ليس الثديين الذين تخيلهما وتدين من ذهب لا يتزحزان.. وليس شعر الإبطين الذي تخيله جدائل من فضة تترقرق. كانت في واقع الأمر مجرد امرأة.. امرأة في حي الرديم.. في سوق الفخاريات.. في الحدود وفي قرية أم حراب البعيدة.. هي (النعيمة) التي عرفها في الصغر وعرفها مراهقو (جوا جوا) كلهم.. النعيمة التي غدرت بالمهاجر (عبد الرب) وخفّضت منزله كلها لدى السلطان دون حتى أن يكون شاهداً من قبل.. يتصورون الدواخل المخفية لقصور الترف، تصوراً غريباً.. ولو حكى للرديم فلن يصدق الرديم.

التفاصيل المكبوتة في صدره والخائفة من الخروج حتى إلى ذهنه هو.. سيمتلك الفطنة الجديدة، يريد أن ينسى، أن يفكر في لون مشبك للشعر أو رداء معد لحفلة زار، أو سبائك يهودية الصنع تترنح على جيد. يريد أن ينسى لكن سلطاته لا تريد.

حمل ماء الورد إلى غرفة الاستحمام الآن عادي.. وجدت الجارية في المكان أو لم توجد.. ضعه على الأرض يا دمدوم.. هل أعددتها جيداً؟..

الجلية دون ورق توت يابس.. ودون رنة حياء تظهر.. هل أضفت
إكسير الإنعاش؟

التطورات.. التطورات التي لا بد منها، والتي لا تصنع حناءها، لكن
حنائها تصنع لها..

والعقارب التي تحت الجلد لكن الجلد يخفيها، والتلف الذي
تطحنه القسوة، لكنه حتماً سيزغ..

لا تضع الماء على الأرض ثم تذهب يا دمدوم.

لن أضعه على الأرض ثم أذهب لكن ما هي الخطوة التالية يا
تري؟ تنظيف جلدها؟ يا.. كيف؟ تنظيف جلد متجعد لكنه نظيف،
ودلق ماء الورد على ورد يكاد يذبل لكنه لم يفعل.. أصابع الرديم
الفقيرة في مجابهة العز.. ضحية رجل المهام الجليلة في مهمة.. هي
في الواقع جليلة، وجليلة جداً بالنسبة لخصي. حدثه الأمير في آخر
لقاء، عن الأسوأ، وجربه.. حدثه عن الأقسى، وجربه، لكنه لم يقل شيئاً
عن الأحسن والأخف.. هو الآن في بوتقة الأخف.. الأحسن.. الأكثر
اعتدالاً هو خائف وخائف جداً.. يريد أن يفر، أن يصبح حارساً لحريز
أقل شأنًا، أن يعجن الخبز، يقلب عصائد الحميض، يكس صالات لكز
النظر المريعة، لكن التطورات لا تصنع نفسها بل تصنع.

حممت، ونظفت، وغسلت مواضع البهاق كلها.. ماذا بعد؟

تكسير قسوتها في تلك المحصلة الغزيرة.. ما أسوأ تكسير قسوة
السلطانان.

عشية (دمدوم) وحده على أريكة المخمل، السلال الممتلئة
بالفواكه، وحلوى ثمار (القضيم) تطل بأحمرها من داخل إحدى
السلال.. السلطان متأخر جدا في رحلة القنص.. السلطانة منهمكة في
إذلال عبد، والجارية سلافة ما زالت في أحضان مغص الذكرى..

في أحد الصباحات النقي (بقلب الأسد)، كان اللقاء العادي دون

مصافحة، ودون كلمة ود.. يلتقيان في اليوم الواحد عشرات المرات..
كلاهما في سجن وكلاهما في محنة، لكن قلب الأسد ليس هو القديم..
أمسكه من ثيابه بغتة.. جرّه إلى أحد الأركان:

إلى أي مرحلة وصلت.. أبي الشيخ؟

- ماذا تقصد؟

ما تفعله بماء الورد..

أي ماء ورد.

لا تبدو ذكياً أبي الشيخ.. كلنا فعلنا.. كلنا حدث لنا أبي الشيخ.

يردد (أبي الشيخ) التي كانت تردد فيما مضى داخل مستنقع الرعاع
ومن قبل المصممين والمحورين، سخرية وشماتة وربما مزاحاً.. لكنه
ليس الرعاعي القديم.. عيناه رديتان.. نظراته تحرق ولسانه يقطر بسم
أرعن.. كلهم فعلوا.. وكلهم حدث لهم ما يحدث له الآن.. ولا بد
أنهم كانوا جميعهم في (الفوق) الذي يعيش فيه واندلقوا جميعهم إلى
(التحت) الذي قد يندلق هو إليه.. إذن لا يزال الأسوأ قائماً.. الأقسى
قائماً.. والأثقل كله متربعا على المستقبل.

يوم الغناء كان يوماً آخر وما يزال محفوراً، وبعد أن تكسرت
قسوتها في تلك المحصلة الغزيرة، قرصت خده، اتجهت إلى إحدى
الخزائن المغلقة في المخدع فتحتها، وجاءت بآلة (منديلين) مذهبة،
ومطرزة بالعقيق. وضعتها على يده وقالت.. غن يا دمدوم.. أطربني..

يغني ويطربها؟ كيف ولم ير المنديلين من قبل إلا سراباً بين أيدي
المغنين، وإلا آلات غامضة المحتوى تترنح داخل جرابات من الجلد
في سوق الفخاريات.. ولا يحفظ من الغناء المتداول في طرب (أنسابة)
سوى بعض المقاطع الشوارعية التي كانوا يرددونها وهم مراهقون.. لا
أعرف الغناء.. لا أعرف العزف، أرجوك سامحيني..

اختطفت آلة الطرب من بين يديه، أعادتها إلى مكانها في الخزانة،

وعادات: بلا مندلين.. بلا عزف أيها الغبي.. كانت أغنية (جواهر) الشعبية التي تصف رحلة واحدة اسمها جواهر هاجرت من (أنسابة) إلى مكان بعيد راكبة إحدى القوافل، وتاركة قلب العاشق ينز حزناً، هي أول ما خطر بباله.. ردها بصوت الهرمونات النقي، وفوجئ بأن السلطانة طربت حتى تساقط من حلقها الريق.. ما أغرب الدواخل المخفية في القصور المبهرجة؟

عاد السلطان من رحلة قنصه مستبشراً، كانوا قد بعثروا الحراب والصقور وكلاب الصيد المدربة، اصطادوا المئات من طيور الحباري، والغزلان، ودجاج الوادي، وأسروا ثعالب غزيرة الفراء وتصلح لجلب العملة الصعبة.. عادت الجارية سلافة من تقلص الذكرى، والسلطانة فرغت من تنسيق الملل.. وتوبخ عبد الخدمة، وعادت. الآن ليست عشيتة وحده.. إنها العشية العادية، والمزدحمة.. عشية الروتين.

يوم وصول الإيطالي (جيوفاني) رسام مسك النساء بعد غيبة طويلة إلى أرض (أنسابة)، كان عيداً يشبه أعياداً عديدة بلا حصر. وكانت السلطانة قد عرفت بنيتها الأكيدة في القدوم قبل عدة أسابيع من ذلك، تحدث بأمره إلى السلطان عدد من تجار القوافل الشبان كانوا قد قدموا حديثاً يحملون دماء التجارة الجديدة. قالوا شاهدناه على ضفة النيل في (أسوان) يرسم العشب ويمزق، ويرسم مراكب الصعيد ويمزق، ويرسم النوبة بالصدر العارية، ويمزق، وقال أنا ذاهب إلى (أنسابة) لرسم السلطانة مسك النساء في العمر الخصب.

والواقع أن السلطانة كانت قد غادرت العمر الخصب منذ سنوات ليست بالقليلة، لكن شراسة في استخدام الأكاسير المرطبة، وماء الورد، وتسخير جيش الخدم لفرد الوجه بعد كل تكشيرة غاضبة، أبقاها في العمر الخصب الذي يبدو أنها لن ترحه أبداً. كانت مفاجأة لها حين ردد الرشيد، وهو يتخفف من أعباء سلطنته، ويتدثر بأعبائها الزوجية

في المخدع السلطاني، ويمد يده إلى الشراب الدافئ الذي قدمه له (دمدوم):

- رسّامك المفضل يا مسك.. إنه قادم في إحدى القوافل.

اندفعت إلى الرشيد لتضمه إلى صدرها، وتقبله في ورم شفثيه، وكانت المرة الأولى لدمدوم التي يرى فيها السلطان جسداً يُضم، وشفتين تُقبلان، فقد كان عمله يتقلص في المخدع السلطاني بمجرد أن تبدأ قشعريرة أو حمى في الظهور.
شكراً يا رعد.. شكراً..

شكراً على ماذا؟، والسلطان نفسه لا يعرف أي قيمة محددة، تمثلها لوحة لمتغطرة كزوجته، تعلق على حائط، أو ترمى في قبو.. بالرغم من استجلابه للرسامين من كل صوب ليرسموا مواكبه في ذكرى أعياد الجلوس أو الجمعات الظليلة المزدحمة. يبررها بالتوثيق، ولذاكرة التاريخ، ولدواعي التطوير في بنية السلطنة. مد بصره إلى اللوحات القديمة المعلقة، وبنفس تلك الريشة الإيطالية. السلطنة في يوم عرسها، يوم ولادتها لابنها البكر، فاردة شعرها، ضامة شعرها، متحزمة بزي (أنسابة) التقليدي.. من (رحط) و(سكسك)، محشوة في موضات جيل جديد، واقفة وجالسة، ويدفع (رغد الرشيد) تكلفة كل ذلك من موارد السلطنة.. ما أسخف رئاسة الترف.. ما أسخف أن تقتني واحدة كان زوجها بائعاً لحلوى لزجة. يتذكر اليوم الذي جاءت فيه كسيرة، لتصبح في جمعته.. ذلك اليوم البعيد..

(وحيدة وأرملة، ولا أجد لقمة العيش.. أرروك).

يتذكر انغماسه فيها لدرجة التوهان.. وتركه للشرع يميل بشقه حتى الأرض.. يطالعه في لجة الفرح بقدوم رسام التكلفة، يحسها الآن معنى آخر.. غباراً.. صدمة.. مأزقاً ما كان يجب أن يسمى مسكاً، وأن يعامل كمسك. حين أخبروه بتكاليف قصر المسك، قالوا ثلث ضرائب

الزراعة، نصف إيراد الماشية، وربما ثلثي فوائد الغابات كلها، لم يفرع، ولم يحتقن وجهه، كان في قلب معمة عاشقة، وأحب أن يتصر والآن لو جاءوا بتكلفة كوخ حقير.. قالوا إردب من القمح.. خروف واحد.. نصف ناقة.. لتردد مئات المرات...

(ذنوبنا على الأرض.. ذنوبنا..).

يمد يد الخواتم المرصعة، يدحرجها على جبهة الخصي دمدوم. وفيما تلى ذلك من أيام، انقلب قصر المسك الكابوسي أصلاً، إلى كابوس أشد، عدل توزيع أثاث خشب الورد، ليناسب انعكاسات أضواء الفوانيس، جددت أصص الورد وروائح، وافترضت أكثر من ستة عشر جلسة مختلفة للرسم، قد تجلسها السلطانة أمام رسام التكلفة حين يحضر. وفي المخدع السلطاني وتحديداً في غرفة الحمام الملحقة، كان (دمدوم) يؤدي واجبا مرا، وحامضاً، وأشد تعاسة من قراءة حظ رجل المهام الجليلة.. الأسوأ.. الأقسى.. الأثقل على القلب. أغسل هنا.. حك هذه الكوع جيداً.. مرر الماء على مهل.. تافه.. محوّر تعود به إلى جريرة التحوير هابطة به درجات.. مكسر القسوة في تلك المحصلة الغزيرة.. والآن.. تافه.. حقير.. محوّر.. هل ترى بقعة النمش هذه؟ حكها.. حكها.. تلقى على وجهه إناء ماء الورد.. على ثيابه بقايا غسل. لم تكن هنالك جارية اسمها (سلافة) الآن لتقاسمه التعب، تحكي عن صناعة الرغي، عيد صاحب عيده.. لقمة طاعمة أكلتها.. ناس يحبونك وتحبهم، فقد ألغت السلطانة وجودها فجأة بعد أن تأكدت من انغماسها في الحياة السرية للسلطان رغد. باعتها إلى رب قافلة تجارية متجهة إلى تمبكتو ودون حتى أن تجادل في السعر. وفي يوم رحيلها المباغت لحق بها حتى باب المهوطني العريض، سلمها خاتماً من فضة كان يملكه قائلاً للذكرى، وسلمته خصلة من شعرها المضفر قائلة.. ليست للذكرى ولكن للنسيان.. حين تمتلك خصلة من شعري فإنك تنسى وجهي سريعاً..

وكان دمدوم يلمح في عيني كبير (أنسابة)، أسي بالغاً كلما جاء متخففاً، يرى يده تقتنص اللحظة الدقيقة كما كان في السابق، وتهز خصرًا غير موجود. وأحياناً يصبح يا (سلا)، ثم يقبض على الحرفين الأخيرين قبل أن يخرجاً ويكملان الاسم.

أخيراً وصل الرسام (جيوفاني) إلى (جوا جوا).. وإلى قصر المسك، وأرسل دمدوم، وقلب الأسد، وآخرون لاستقباله عند باب خشب (المهوقني) العريض. كان شيخاً محني الظهر، يرتدي ثياب أهل (أنسابة) التقليدية.. الثوب والعمامة، وحذاء جلد الأصلة.. وقد نفرت من ذقنه لحية مهووسة وبيضاء. التفقه السلطانة بكثير من الترف، والتقاها بشيء من التحديق كأنه من كلل في البصر..

- ما زلت في العمر الخصب.. ردد الإيطالي.. ما زلت موديلي المفضل (يور إكسلانس)..

مهمة جيوفاني ليست عسيرة جداً، وراقبه دمدوم في مزجه للألوان، وتخطيطه على القماش.. وأحس به يرسم وجه مسك النساء الذي كان، وليس الذي أمامه، وبذاكرة غريبة الأطوار لم تنس حتى جرحاً ضئيلاً كان فيما مضى موجوداً، والآن أزالته قسوة التدليك والأكاسير المرطبة.

ما أحلى قصر المسك والإيطالي يرسم.

ما أحلى اختزال الصرخات في صرخة، والتواءات في تواء، والطوافات على الغرف والأجنحة في طواف، وأوامر الكبت الحارقة في أمر.. ما أحلى صوت الإيطالي حين يصرخ:

لا تحركي عينيك.. أعطي للون حقه..

والأحلى من ذلك، حين اختار دمدوم، وقلب الأسد وجارية من الزنج، كموديلات للوحة استثنائية كان اسمها (ضائعون)، أنجزها بسرعة فائقة، وقال.. قد أضيف إليها ضائعين آخرين في بلاد أخرى، وأعلقها في جاليري (موليزو) في (فينيس)، وسيصلكم نصيكم من الضجة.

كان السلطان يأتي أحياناً.. يجلس على كرسي مذهب، ويطالع الرسم دون اهتمام كبير.. لم يكن يادي الحماسة، واعتذر للرسم بجلافة حين حاول إدخاله ضمن لوحة عائلية كان يرسمها.

يوم سفر الرسام كان كارثة تشبه كوارث عديدة بلا حصر.. عاد قصر المسك إلى قديمه.. العذاب المختزل، إلى عذاب مفكك.. عاد دمدوم إلى خدمته التي هي الآن خدمته وحده.. يلهث.. يدس الثاؤب في الحلق.. يدلق ماء الورد.. يكسر القسوة، ويبتظر.. ينتظر ذلك اليوم الذي قد يكنس فيه إلى أي مستقع.

ما الذي أتى برجل المهام الجليلة إلى قصر المسك؟

السؤال المحير، وذلك الصباح المبكر حين أتى بعض الخدم إلى المخدع السلطاني يصرخون.. الأمير في القصر.. الأمير في الغرف.. في الأجنحة.. في الحديقة.. في أوعية الطعام.. كان السلطان نائماً والسلطنة نائمة، ودمدوم مستيقظاً كالنائم، ونائماً كالمتيقظ.. واستيقظ السلطان، استيقظت السلطنة، ارتدى الجميع تسارع الخطى.. ما الذي أتى بولذك يا رغد؟ يزور أخوته.. يزور عماته.. يزورني.. يردد السلطان ولا أحد في الحقيقة يعرف.. كان الأمير قد جاء بالفعل.. كان يركب على دابته الجديدة.. فرس محور من قبيلة (الكيادين)، أولئك البدو الذين كانوا يعيشون قريباً من (جوا جوا) على خلاف مع السلطنة ثم هداؤا بعد أن زودهم الرشيد بعدد من الوعود، وسمح لكبيرهم بحضور مجالس (الكوراك) عضواً، وبقي ثمة متمردون قلائل.. اصطادهم الرعاع، وكان الفرس الجديد منهم.. كان الأمير قد انتشر في الغرف، وكان يحمل حبلاً هائلاً لقياس المساحات، يحمل ألوانا ترابية قد تصلح لإعادة الصبغ، وكانت نظراته المهووسة هائجة لا تستقر. واجهه الرشيد ببقايا نعاس الوجه، وحدة لا تلائم كيانه البيتي والبعيد عن الحكم..

- ماذا تفعل يا مساعد؟

أفكر يا مولاي.. أفكر؟

تفكر؟ وفي قصري، وبهذه الطريقة.. هذا الحبل.. ألوان التراب..
أنفاسك.. نظراتك المهروسة؟

لم أفهم يا مساعد؟

ستفهم يا مولاي.. ستفهم.. ويغادر القصر، لكن الهواجس لا تغادر
سكان القصر.. بالطبع يستطيع الرشيد أن يعرف.. ولا يتعجل المعرفة،
وتستطيع السلطانة أيضاً أن تعرف.. لكنها تتعجل المعرفة، وهمس في
القصر.. يريد أن يتقلب.. يريد سلطنة أبيه.. يحاول إفساد أمن القصر
لأنه لا يحب سلطاته.. كان دمدوم موجوداً، واستمع جيّداً، وكان
يزعم أنه يعرف الأمير حتى أكثر من أبيه، وكانت الفكرة التي راودته
في تلك اللحظة.. هي أن الأمير كان في واحدة من لحظات فصامه
العادي الذي يداهمه من حين لآخر.. مؤكداً لم يكن يقصد قصر
المسك ومؤكد كان يرسم أذى جديداً.. يريد الخصي أن يوضح، لكن
الخصيان لا يوضحون.. لا يسمعون.. لا يرون.. ولا حتى لو بيعوا
إلى أية قافلة.. سيكون في حوزتهم تاريخ سيروى.. إنهم باختصار بلا
ماضٍ.. بلا حاضر.. بلا مستقبل.

-15-

خريف (أم دباييك) الوعر، خريف طيور (أبو السعن) الصاخبة، الكركي التي تهاجر، وتستقر، وتناسل، وتلتقط الحبوب دون وجل من شرك، أو فخ صيد. ليس في الأرض شبر لا يرتوي أو يخضر، ليست في السماء سحابة لا تضخ أو تفرز، وليست في جسد الريف كله غدة لا تفرح أو تضخ الفرح.

هي قرية (أم حراب)، الخريفية الآن، والجافة في المواسم الجافة، المثقوبة السماء والأرض، والتي في حاجة إلى تجوال كثيف لتعرف، وإلى سكنى مؤطرة لتهمضم، وإلى بال طويل جدا لتستمر السكنى المؤطرة.. سكنى مؤطرة. البيوت أغلبها من صفيح، وقش وخيش، وأقلها من طين رطب ومتماسك.. هي بيوت الريف كله، وبيوت العاصمة التي في أحياء المسكنة، الشوارع.. أزقة الوحل التي تتلهى ببلاهة الحمير، أصوات البوم، أصوات النعاج، فحيح زواحف الأرض، زواحف اللدغ، الرجال المحتشمون، والثرثارون، وناقضو وعود، ومحافظون. النساء الكبيرات في الريف.. الصغيرات في غير الريف.. ورقص أرجل الغيد على صموت (نقارة) هي طبل الأفراح المعتمد والمسيطر. كل شيء في ريف قرية (أم حراب) يوحى بشيء.. كل ثرثرة تقود إلى ثرثرة.. كل مخلوق يحيا لأنه أراد أن يحيا، الرجال يريدون.. النساء يردن، والأطفال في حلمات الأنداء أيضاً يريدون.

حين كان (آدم نظر) صغيراً، وفي كثافة إزعاج الصغار الذي يريد أن يعرف، وأن يتقصى، حدثه أبوه عن سيرة قرية (أم حراب) وسير منابع (التنجر) الأخرى التي تجاوز (أم حراب) وتشبهها في كل شيء

إلا اتساع صدرها. هناك ولد صانع الطبول.. هناك زرع وحصد واغتنى،
وافقر، واستل تلك الهجرة البعيدة إلى العاصمة (جوا جوا)..
(في أم حراب لم تكن نحمل هما للقمعة العيش، لم نبت أبداً
جائعين، ولم نمس وبطوننا تقرقر.. كلهم أهلنا، وكل بيت بيتنا.. نحن
أنجبنا الملك (برجاوي) الذي كان فارساً، ومهاباً.. وكانت سلاطين (جوا
جوا) تخشاه.. أنجبنا (أبو العز) قائد قوافل الحج العظيم.. هل تعلم أن
(تمائم شريف) المغنية.. أصلها من التنجر، لكنها أنكرتنا؟ وهل تعلم أن
سوق الفخاريات هذا والذي تراه الآن أهم أسواق (جوا جوا)، أسسه
التنجر حين كانوا يتاجرون في الجلود وفرو الثعالب، ولحم الخراف؟
كان سلاطين (أنسابة) يحكموننا بالفعل، لكنهم لم يكونوا أبداً أكثر من
سلاطين نسمع عنهم ولا نراهم).

ويسأل إزعاج الصغار الذي لا يهدأ:

وهل عاشت أمي أيضاً في أم حراب؟

نعم.. وكانت وردة.. وردة لم تفتح، ولكن للأسف تفتحت في غير
مكانها.

تلك الأيام كون التنجري الصغير فلسفته عن قرية (أم حراب)..
اعتبرها الجنة التي خرج منها (نظر حباب) مندرجاً.. لا ليحمل رسالة،
أو يبدأ منه تكوين الخليفة كما تعلم عن (آدم) في مدرسة المهاجر..
ولكن ليعيش هكذا متذكراً.. وكابوسياً إلى نهاية العمر.. خروج (آدم)
كانت فيه حكمة كبيرة.. ولكن لماذا خرجت؟..

وكانت الرزينة حين تسأل والدها عن قرية (أم حراب)، تسأله بتعثر
اللسان البناتي حين يسأل أباً، لا يتردد.. يقول.. قد تعودين إليها ذات
يوم.. ستعودين يا رزينة.

طريق العودة إلى الريف لم يكن بالطريق السهل، وقرار طرده
ليس قرار الطرق على باب جارك، أو نافذة جارتك، وليس بالقرار الذي

يتخذ الهذيان، أو ترمي به لحظة فقدان الذاكرة. وقد سألت الرزينة حاستها مراراً..

هل سأنام جائعة إذا عدت؟

ألن أحصل على قطعة صغيرة للأرض أزرعها شعيراً وقمحاً، وحميضاً؟

هل إذا تزوجت جبروتي ولد الحُور، سننام أنا وهو وبطوننا فارغة؟

ترتوي من الحاسة التي كانت تخبرها، وتجرها إلى اتخاذ قرار الرحيل.. طبعاً لن تنس اخضرار الطفولة في (جوا جوا)، وضمائر البلوغ التي تضررت فيها، وحي الرديم الذي آواها، وصيرها مهرجاً خالياً من نمش الوجه، ولم يكن ذنبه أن نبت النمش في الوجه والروح بعد ذلك.. لن تنس أنها نبتت على وحله، لعبت ألعاب ثورتها وهدوئها كلها هنا، وما كانت وفاة صانع الطبول وحدها كافية للرحيل.. لكن النصل كان أكثر طعنًا.

حين ولدت قالوا إن (أم الرديم) باركتها.. يأتون بالمرأة العجوز لمباركة الإناث في الحي، يريدونهن طاهرات كما كانت، ويريدونهن أمهات دافئات.. كما صارت، أمسكتها أم الرديم من وسطها، تفلت على وجهها.. قالت.. مباركة.. مباركة بإذن الله. وقد صارت كذلك.. لكن آدم صاح..

أرروك.. أرروك.

تذكر الجد (سند) ذلك الذي جاء معزياً في وفاة أبيها، وخاطباً مفترضاً لأُمها الأرملة التي كانت بحاجة إلى ظهر.. سمعت عن ذلك من أخيها، ومن النساء اللاتي كذبن بالدموع، ورحلن.. من المفترض أن يأخذكم.. يريكم في أم حراب.. يتخذكم أبناء. لكن ذلك لم يتم.. قالوا غضب من طعام كان ناقص الملح، غضب من سؤال مستهتر عن عمره،

وقالوا كان منهكاً، وبلا مروءة لإحياء عرس جديد. ترى لو أكمل الجد مشروع نزوته وانزاحوا عن (جوا جوا) في تلك الأيام، هل كان سيحدث لأدم ما حدث.

سيحدث.. سيحدث.. النصيب.. النصيب.

القافلة المحملة بالتعب، الحداة المدربون على نحر وحل الخريف، ورجال السمر، ذوو الأصوات التي كانت كأنها أصوات جن. كانت أمها مريضة وحيرت حكماء عديدين وفدوا لمعاينة علتها، وكانت تواقيعهم متفقة.. هي تشكو من مرض (موت الأمومة) المرض النادر الحدوث، والصعب الشفاء، هي أمك حيناً وأم لا أحد في أغلب الأحيان.. أم ولد ضائع.. وأم لا ولد..

وتلك الغيبوبة.. فقدان الذاكرة أيها الحكماء؟

من أعراض المرض.. من أعراضه الشائعة.

وبلسعة الأكاسير المرة، ولبخات استعادة الروح التي أجادت الرزينة عجنها، كان.. الأم تصحو، وبأكاسير أخرى. ولبخات مختلفة التراكيب، كانت تنام. في القافلة كانت متماسكة، وفي بعض الأحيان كانت تضحك.. تشارك أصوات السمر غناءها لمواويل (أنسابة) القديمة..

طلع لي فوق.. نزل لي تحت.

ولد كبوي بنقله قرد.

مشى بهنا.. مشى بهناك.

ولد كبوي بنقله حمار.

دخل غابة.. مشى في بر

ولد كبوي بنقله شجر

قعد في البيت.. مشى للسوق

ولد كبوي بنقلبه عتود.

ينزلون على ظل متعرج، وعلى غدِير، يرتفعون للرحيل، ينزلون على ليل مظلم، يشرقون للرحيل. يتفاعلون مع الرعاة.. مع القطعان، ونايات قهر العزلة.. يمضون، هذه تخوم أرض (التنجر).. هذه هي.. دلتهم رائحة الخريف التي هي أقوى، ودهانات الوجوه التي هي داكنة ودافئة، ومشابهة لدهانات وجوههم، ووجوه وفد العزاء القديم. هذا صانع الطبول (نظر حباب)، هو بعينه، ولكنه آخر هذه الرزينة، لكنها أخرى، مهرجانات أخرى، هذه الأم نفسها، ولكنها أخرى، وهذه (أم الرديم) سبحان الله.. أم الرديم الكبيرة المتعكزة، الواسعة صدر الأمومة وفي قرية أم حراب. وهذا غدِير الماء المعكر الذي ورد في سيرة (أم حراب).

دخلوا في معمعة اللقاء التي كانت سخية ومحكمة، الريف الفاتح الذراعين أبداً للضم، تهجرونه، وتغيبون، وتعودون في النهاية، الأب الذي ينتظر، الجدة التي ما فرغت حكاياتها قبل النوم، الأم جالبة اللبن، والماء والعصائد، معمعة اللقاء عند الرزينة، ما قللها الخريف الرطب، ما دربكتها حشرات (أم دبايك) تعلق وجوه ساكني المدن، ما خفضتها صرخات طيور (أبو السعن)، الكركي المهاجرة والمستقرة، تلتقط الحب دون خوف من شرك أو فخ صيد:

كيف حالك يا رزينة؟

كيف أخبارك؟

الذين قدمت منهم.. كيف أحوالهم؟

وأخوك..

يلحسون الجرح وما يزال في العمق لم يجف، يفضون عن وجهه قشرة البرء الكاذبة التي هي مجرد قشرة. نقاب دسه غير المتقن، من ذا الذي لا يعرف ما حدث ل(آدم نظر)؟ من ذا الذي لا يعرف. وضع النقاط على الحروف التي هي أصلاً متقطعة منذ زمن.. صيغ

الجدار الذي كان مصبوغاً ولامعاً.. من ذا الذي لا يعرف ما حدث لأخي؟

حسناً.. أخي صاح في مجلس السلطان الرشيد يريد الأبوة الشبخة.. تعطلت بسببه الجمعة الطليعة، أمهلوه شهراً فقط، واقتاده الرعاع بقيادة الأمير مساعدكبزيء وبحاجة إلى تقويم لسانه، أخي حور إلى حمار فقير.. إلى فرس ذات قرّة سوداء يتبختر بها الأمير (مساعد) في الغدو والرواح، ومواكب الهدير، وحتى في الأحياء التافهة حيث الفقراء، والسحرة.. هو الآن ضد وضده.. خصي ومقهور، وخادم عند مسك النساء سلطانتني وسلطانتكم.. شعره مضفر.. عيناه كحليتان.. وحوضه متسع.. ويمشي مكسراً.. هل من شيء آخر؟
كيف حور؟

الرجال الوقورون، العاديون، وناقضو وضوء العهد.. النساء الكبيرات والصغيرات، والعرائس اللاتي ربما تمنينه رجلاً في أحلام يقظة عنيفة. والرزينة لا تعرف، وأمها لا تعرف، وتحوير الفقة راء إلى خصيان مهمة جليلة، ويجيدها أجلاء يعدون على أصابع اليد، لا يعرف إلا من حور، أو شارك في مهمة تحوير. و (نجام) حور ويعرف، لكن عاهته بقيت عاهة السر، ولم تعرف أبداً شكلها أو لونها أو طبيعة الإفراز في غددها.. الهرمونات.. الهرمونات.. لا يعرف أحد في الريف ضدّاً هرمونيّاً، والذين كانوا فيما مضى، أيام بؤس السلطنة وقبل أن يلهمها (يوسف ضو)، كانوا غرباء جاءوا عبيداً أو توابع في قوافل، أم حراب بريئة من الهرمونات.. الريف كله بريء من الهرمونات.

كان جبروتي بالطبع في مقدمة من كانوا في معمعة اللقاء، ولد الحور نفسه، هيكله النحيل، قميصه الرمادي المخطط، سرواله الأبيض، وعمامة أبناء العاصمة غالية الثمن. وعطر شديد الخفقان، ينز من جلده غير المصبوغ. ولد الحور يسلم باليد النافرة العروق، ينحني ليقبل أرض

الريف التي جاءت لتطأها سلطنة الفقيرات:

كيف حالك يا رزينة؟

أخبارك يا رزينة؟

حي الرديم ما أخباره؟

نَجَام هل ما يزال هناك؟

وصديقي.. أخوك؟

رسائله إلى مستنقع الرعاع كانت فجّة ومتواصلة، والرعاع طيبو القلب يحرجون ويعودون، ويحملون وزر قلبه. حضر صياحاتها المسكينة، وانكسارها المسكين، وتوهانها، وتبع حمارها تتبع الصقر، ويعرف النهاية المؤسفة للدراما المتشابكة التي كان طرفاً فيها.. طرفاً لا يهمه من الأمر سوى رعشة الحب.. جيروتي يسأل عن (آدم نظر).. ويعرف أين (آدم نظر)، ولا بد أرهقه بالرسائل التي يصف فيها جوع القلب. ما أتعب كل شيء. نظراته إلى وجهها لم تصغر أبداً، لم يصغرها السفر، ولا هجرها المعمد، ولا إقصاؤه الكبير الذي مارسته في بيت (نَجَام)، هي نفسها الشقية الملتفة التي تحصي عناقيد الخرز في شعرها، وتراقب الثقوب في فساتين الدانتيل الفقيرة، تحس الآن أنه قدرها، تحس بالأفكاك من جيروته، وجه الأعمى والأصم، وتقسم وهي تتأمله محاولة تأمل اللاعيبوب فيه، أنها ستتزوجه على الفور، لو نطق كلمة أخرى.. قدرتي يا ولد الحُور.. نصيبي.. نصيبك في الأسرة المشرذمة، خذ نصيبك.. خذه.

الجد (سند) العجوز كان أيضاً في حمى استقبال أسرة المهاجر العائدة أخيراً إلى منابعها، وبرغم أنه الكبير والموقر، والغاضب من ملح الطعام، والسؤال عن العمر، والذي بلا مروءة خلاقة لبناء حياة جديدة، إلا أن شغفاً في تأمله للأرملة، أعادها مجدداً إلى الوجل بعد الثبات المتقن الذي ثبتته أثناء الرحلة الطويلة، يريدون تزويجها لهذا؟ أرملة

وعليّة، وأمّ لضدّ وفّاة نائّة، وليس في وّها تقريّاً أيّ معنّى أنثويّ، ولكنّ ليس الجدّ سند، ليس الذي على حافة القبر من يسند الظهر، ليس الظهر الذي هو لا ظهر. وكان ابنه حسيب أيضاً موجوداً، الولد الصامت، صاحب الخرزة الخضراء، والعبد الذي يتبع صمته، حسيب يحيي في صمت، ينحني في صمت، ويسوق النظر بين والده وعروسه المفترضة، ويكاد يتسم، لكنّ العبد يزجر ابتسامته.

أخذوهما إلى البيت الذي كان للعائلة فيما مضى، وظلّ مهجوراً ومغلّقا، وشائعات بلا حصر عن سكنى بعض أسر الجن داخله. كان في الواقع بيتاً مرتّباً، من طين متماسك كبيوت الريف المرفهة، فيه مساحات شاسعة لإراحة البدن، مساحات للبكاء والحزن، ومساحات لتقبل العزاء لو كان ثمة عزاء. وكانت ملحقة به زريبة واسعة لا بد كانت تضم في يوم ما، قطعانا غزيرة من الماشية.

كان جبروتيّ ملتصقاً طوال تلك الفترة، الجدّ متعكّزاً طوال الفترة، وحسيب الصامت يحاول أن يتسم والعبد يزجر ابتسامته. وكان ثمة أجنبيّ بثوب أسود وعمامة سوداء، وحذاء أسود، ومسبحة طويلة ذات أضواء، سلم على المرأتين، وطاف بالبيت عدة دورات وكان يتمتم.. في الأرض المحبة.. في الأرض المحبة. قال جبروتيّ.. إنه الشماس (عبود).. صديقيّ.. ويطهر البيت من الشر حتى تسكنا آمنتين.

تتضفر إلّفة الغرابة بشدة، يخترع الصباح زواراً، وسائلين، وحاملي لغة فضولية وأطفالاً أشقياء، يخترع المساء شهوته في البن، في الثرثرة، في عرض التفاهات.. عن ولادة الماعز، احتضار قط، وختان لصبي في عشة ما. يخترع الليل وصفته.. الظلام.. الخوف.. الصراع.. وجبروتيّ ملتصق، والجدّ متعكّز، والرزينة تنتظر أن ينطق ولد الحُور بتلك الجملة التي تنتظرها..

- أريد الزواج منك.

كم قدحاً من بن الصباح والضحى شربت؟
كم طبقاً من عصائد الدخن والحميض أكلت؟
كم كوباً من مرطبات (الهجليج) شربت؟..
كم مرة طرقت الباب؟ كم مرة فتحنا.. كم مرة دخلت.. كم مرة
تجولت بعينيك في وجهي في قميصي في مسامات جلدي.. كم مرة..
انطلقها.. انطلقها..

تقاوم التوهان.. تسير في وحل (أم حراب) حين تجف وطأة
المطر، ويبدو في التربة تماسك يتقبل قدميها الرقيقتين، تهش الدجاج..
تهش الققط، الكلاب التي تسعى إلى الإلفة، تصادق الفتيات الصغيرات،
واللائي في سنهن، ترى الأمهات يهمن، يتبسمن، يكشرن، ترى الرجال
يتوقفون عن انهماك أو ثرثرة ويلعنونها، ترى الرديم الذي فارقه،
موجوداً، ومتوفراً. بائعو حلوى (الدرادم) اللزجة، بائعو حمص محروق،
أكواخ بيع الأسيرة، أزيار الفخار، ترى ألوان قوس قزح.. وولد الحُور ظل
المستكشفة، دليلها في اختراق المجهول، ولكن أي مجهول في تلك
المساحة المحددة؟ وصرخة الملدوغ تسمع كاملة، وآلام المخاض
تعرف كلها، وسكرات الموت لا تخفى على أحد.. وفي وصفه للريف
كان صانع الطبول يقول..

(هو البيت المفتوح.. الذي يسكنه الجميع، ولكن كل في غرفة
غيره).

تلمح يرقات قول تتكون على طرف لسان ولد الحُور، لكنها لا
تنمو إلى شرائق.. لا تنتهي قولاً كاملاً.. تقترب الرزينة بلسانها.. تسأله:
- هل من شيء تود قوله يا جبروتي؟
نعم هناك الكثير.

يخفق قلبها بشدة.. لا بد أن الكثير الذي يعنيه، هو القليل الذي
تريده.. فقط تلك الجملة وينتهي الأمر.. تقبل بلا شروط.

قل إذن..

قل إذن.. وتتوقع الآن أن يكون جبروتي هو الخاطب الجديد للرقعة الجديدة في الريف الجديد.. أريد الزواج منك كما قلت سابقاً.

يشير إلى بيت منعزل ومتهالك، وغارق في الوحل.. في هذا البيت ولدت، وولد إخواني كلهم لكننا هجرناه مؤخراً وبنيينا واحداً جديداً سيعجبك.

هل هي حصة للتذكر؟، حصة لسرد تاريخ عائلي قد يهمها أن تعرفه؟ ثم تأتي الخطوة الأخيرة؟ قلها.. قلها أرجوك.. تستغرب كيف انطفأ فانوس الغطرسة القديم، واتقد مكانه فانوس أخرق، وكيف تقلصت قناعات الدنيا كلها في قناعة، هي في الواقع غير مجزية. تحثه بالعيون، بالنظرات، باهتمامها المفتعل ببيت إرثه، بسؤالها عن عدد أخوته.. عن أعمارهم، بألوانه المفضلة، باللغو.

هل هناك شيء آخر؟

نعم.. أمي تريد رؤيتك.

تسير في الوحل.. في الطين الذي كان الآن يابساً ويتكسر، الأشجار تبدو غارقة في البلل، عشش الصفيح، روائح الزبالة، روث الأغنام، روث الناس، روث الحياة كلها. في الرديم كان ثمة منفذ على حياة.. على ضجة.. على عاصمة، وهنا لا منفذ.. لا منفذ أبداً. يتبعها، وحاجتها إلى إفهامه اللغة تتصاعد، وأمه التي لم تأت كي تستقبل، ولا جاءت في الصباح، ولا المساء، ولا أي صباح أو مساء منذ نزلوا على الريف، تريد الآن أن تراها. في عرف التنجر، وعرف أهل (أنسابه) كلهم، ترى الأم الفتاة كي تخطب، وتخطب كي تزوج، ولا بد أن أمه تنجربة، وأمه أنسابية، وتود رؤيتها بصدق، ولكن لماذا لم تأت؟

لماذا لم تزرنا أمك يا جبروتي؟

- أمي مريضة. مريضة جداً.

- وما هو مرضها؟

- وهن العظام.

في هذه الحالة تتنازل الرقة عن موقف الضيف، تذهب حتى عندها، تقبلها في الرأس، تطبخ لها، وقد تعجن لها اللبخات، تجرعها الأكاسير.. تساعدنا في النوم.. في اليقظة وقد تقيم عندها بالكامل.. يسيران.. يلمحان هيكلًا ينكفئ على الأرض، يغرس شتلة، هذا (سعدان) المزارع، ولد الحُور الآخر في (أم حراب).. أليس يشبهني كثيراً؟..

يضحك.. أسنانه ليست أسنان حور، ولكن في اللثة قصدير، وفي صوت الحبال الضاحكة رنين معدن. لا تتذوق الضحكة، تحاول أن تتذوق.. لا تستطيع التذوق.. لو تزوجته فلن تُضحكه أبداً.. لن تبكيه أبداً.. لن تترك له انفعالاً يفعل به.. الزوجة المتعادلة للزوج المتقن العيوب، ومرة أخرى إلى نفس الجرح يفتحه:

- هل هناك أمل في عودة أخيك؟

طبعاً لا أمل، فالذي يتحور لا يعود، والذي عند مسك النساء يظل عند مسك النساء، تماماً كالذي يموت، وأدم مات.. مات في عرف العائلة.. لكن نجّام تحور.. وكان عند مسك النساء.. وعاد، ولكن لمن عاد؟ فجأة يتوقف أمام كوخ صغير معروش بالخشب أمطره الخريف بشدة لكن لم يمته:

هذا متجري.. هنا أبيع العطور.

متجرك، وتبيع العطور؟.. إذن لن أجوع.. لن تقرقر بطني، فما دام متجراً، فهو مورد، وما دام مورداً فلا بد من رزق.. يفتحه بمفتاح صدئ أخرجه من جيبه، يشير إلى الأرفف المكدسة بالعطور ومزيلات العرق والتي تبدو نظيفة بلا غبار.. عطر الهديان.. عطر طراوة القلب.. عطر الخريف.. عطر الشذى.. عطر النضارة.. يخفق قلبها بشدة، عطرها ومن أجلها، لكن جبروتي لا يخطو إلى العطر، لا يفتحه، لا يقدمه لها،

يتراجع إلى الوراء، يغلق متجره ويشدها للرحيل. ويتفزع الخاطر الكسيح إلى قلبها فجأة.. هل ينتقم جبروتي؟ هل يضعها في مهلة تفكير قاسية كما وضعته من قبل؟ وبعد أن سقطت من غرور السلطانات وجاءت إلى الريف عادية، ومهلهلة، وتصطحب أما مريضة؟ يتعقبها.. يلاحقها.. يمنحها التنفس الحر، يلحس وجهها، يمد النظر تحت الجلد، ويستعرض الآن عطرها النضر دون أن يخطو الخطوة المفترضة. أسرع في الخب، تجاوزته بمئات الأمتار، وتسمع دقات وحله من خلفها.. دخلت البيت ودخل، جلست وجلس، ووُضعت أقداح الطعام، ومد يده. وجيء بالشاي وشرب وتهيأوا للقبلولة، وتهيأ.. لن تذهب إلى أمه.. لن تذهب أبداً.

الجد (سند) من جانبه كان أكثر فطنة. توقف عن التعكز في بيت العائلة منذ الأيام الأولى، وجاء من عنده رسول يحمل أجولة القمح والدخن والحميض، وصفائح الزيت، وعدة قناني من السمن، قال يقرئكم الجد السلام، ويرسل هذه الهدايا.. وسيشرفكم غداً.

في تلك الليلة لم تنم أرملة صانع الطبول أبداً، فاجأها أرق ممل، ولم تكن تعرف بالضبط من أي جانب في الجسد تلسع الآلام، وفي أي صدغ من الصدغين توجد هذه الحكمة اللعينة، وتلك الظلال المتحركة قرب النافذة.. هل هي خيالات أم حقائق؟ وحين أصبح الصباح.. قالت للرزينة:

أنا قبلت بالجد سند.. ماذا عنك؟ هل تعترضين على زواجي؟ قولي إذا كنت تعترضين.

- لا لا أبداً.

ابتسمت الرزينة بصدق، وكانت أول ابتسامة مشرقة لها منذ أن قدمت إلى ريف المنابع في أم حراب.

جاء الجد كما وعد. كان من الأعمدة فعلاً لأن رجالاً بلا حصر جاءوا في ظله، وحتى ملك المنطقة جاء، وكانت ثمة نساء مزغردات

قدمن بالحلوق المتفخة ليمالأن البيت ضجة.. كان عرسا متعجلاً في كل شيء.. بلا زينة من فوانيس ملونة.. ولا طقوس مألوفة، ولا مغنين، ولا راقصين، ولا قدرة لأرملة صانع الطبول على تقبل المباركة.. الآن زوجة للجد سند.. الرابعة عشرة في سلسلة زوجات متن أو انهزمن أو تكسرت أجنحتهن، كانت الرزينة تساعد أمها على الفرح.. تجرعهما الأكاسير المحركة للضحك.. وتسعى بيدها إلى يد الجد المرتعشة، أو بيد الجد إلى يدها المرتعشة.. انسي.. أفرحي.. تماسكي.. وكان ولد الحُور موجوداً أيضاً.. نفس الالتصاق.. الضحك، خدمة الضيوف.. وتجهيز مخدع الزوجية الجديد بفرشه بحصير بنفسجي من السعف.. وقد حاولت الرزينة وبعد انتهاء العرس المتعجل أن تفهمه اللغة من بعيد، ليس بالعيون أو النظرات أو الابتسام لحواره الجاف والهزيل، ولكن من بعيد..

هل تحب الأطفال يا جبروتي؟

نعم أحبهم كثيراً.

وهل تمنى أن تلدهم أنت؟

نعم أتمنى.. أولئك اللاتي تربين في القصر أو وردن أو

وتربيهن؟

نعم.

حسناً يحب الأطفال، يحب أن يلدهم، ويحب أن يربيههم، ولكن لا خطوة أخرى.. تمنى أن تضاعف السؤال.. من أين ستلدهم؟ لكن لسانها لا يقدر.. قلبها لا يقدر.. وبقية السلطان الفقير في سلوكها لا يقدر.. تفارقه لتلقيه.. وتلقيه لتفارقه، ولا جاء بعطر النضارة أبداً، ولم تأت أمه.. تحس الرزينة بعار هجرتها.. بعيداً عن المنابع كانت أحلى، ومتقدة، وحركت في ولد الحُور لهفة غير اعتيادية.. وفي المتابع.. قرب.. قرب التصاقه ولا تحرك عضلة واحدة من قصديره الصلد.. تبكي.. تمزق

التياب، تشد شعر الحرير تطالع تنفسها.. تبحث عن الخلاص..

تلك الليلة وفي حلم لم تسع أبداً إليه، زارها والدها صانع الطبول العظيم.. كان أخضر في الجبة والعمامة واللثام، يركب على حصان أخضر بلجام أخضر، ويسير وسط بساتين خضراء بلا نهاية.. ابتسم لها في مودة، ليست مودته القديمة التي تعرفها، ولكن مودة خضراء نبتت من أسنان خضراء أيضاً.. شدها من يدها الرقيقة، أركبها خلفه في الحصان وانطلق بها.. كانت تغني.. تضحك.. تطيش بصفائر شعرها يسارا ويمينا، وتمد يدها في الهواء، تقتنص عصفوراً أخضر.

ذلك اليوم الذي سكن فيه الخريف تماماً.. رحلت حشرات (أم دبابيك)، وضجة طيور (أبو السعن)، الكركي المهاجرة بحثاً عن خريف آخر.. و(جوا جوا) العاصمة تركد في الوحل الذي تبقى، والذباب الذي تبقى، والمشاعر التي ربما فرحت أو حزنت، وصلت إلى قصر (المسك) رسالة تافهة، وبذئثة المشاعر كانت قادمة من (أم حراب) البعيدة، ومرسلة إلى دمدوم.. خادم صاحبة العز ولم تصل أبداً.. لأن الرسائل لا تدخل قصر المسك، والمشاعر السخيفة وغير السخيفة، تموت عند باب المهوطني العريض.. والخدم لا يرسلون ولا يتراسلون، ودمدوم نفسه في (فوق) يهدد بإسقاطه.. وسيسقط.. سيسقط حتماً:

(خالص العزاء والمواساة أقدمها لكم في أختكم الرزينة يا صديق.. صدقني لم أكن مسؤولاً عن موتها المفاجئ، ومنذ رأيته لأول مرة عرفت في وجهها.. وجه الموت.. كانت طموحة، وسلسة، ورقيقة، وتعاطفت معها كثيراً.. كل حبي لها كان تعاطفاً.. التصاقي بها كان تعاطفاً.. وحتى العطور النضرة التي صنعتها من أجلها، كانت تعاطفاً. قد تسألني.. لماذا تقدمت للزواج منها إذن؟ فأقول تعاطفاً مني.. وتسألني هل هكذا يكون التعاطف؟.. وتلك الرسائل التي كنت أصر على حبها فيها.. هي أيضاً تعاطف؟.. أقول نعم.. لأنني ولد للحرور حر العاطفة..

طليق العاطفة.. متأجج.. ليست لي صبغة الآخرين التي تقيدهم إلى حياة لا يريدونها.. أنا عاطفي.. عاطفي يا (آدم نظر).. وصدقني لو رأيتك في هيئتك الجديدة بعد أن تحورت.. لن تجد من يتعاطف معك مثلي.. لقد أقمنا للرزينة عزاء يليق.. دفناها في الوقت بين الظهر والعصر، صلينا ودعينا، وكان إمامنا صهرك الجد (سند).. وكأنك كنت موجوداً.. لأنني قمت بمقامك.

سأزور الرزينة باستمرار.. أدعو لها بالمغفرة، وقد أزورك يوماً إذا جئت إلى (جوا جوا).

-16-

القافلة التي حطت برحالها في (جوا جوا) في إحدى الصباحات، وفي يوم أغر من أيام (ذي الحجة)، لم تكن قافلة حج عائدة، ولا واحدة من تلك القوافل الكبيرة التي تتحرك وتسكن بدم التجارة الممدود بين السلطنة والبلاد الأخرى. كانت قافلة غريبة الشكل، وغريبة التكوين، أوفدها مجلس (الكاثوليك) الأوربي المعني بشؤون الدول الفقيرة، وذلك لتحري التوافه المزرية التي وردت في لوحة (ضائعون) التي خططها الإيطالي (جيوفاني) كلوحة فنية غير مقصودة في حد ذاتها وتبعت بالصدفة البحتة تلك اللوحات الغزيرة التي خططها للسلطنة (مسك النساء) في أوضاعها المتعددة. وكانت معلقة في واحد من أهم المعارض في (فينيس) مذيبة بالتوقيع الكبير، وتاريخ دك الفرشاء، وأسماء من شغلوها كحقيقة ناضجة ومُرّة، وليست تخاريف رسام.

ثلاثة مضفرون ومكحلون ومكسّرو المشيات، وواسعو الأحواض من أفريقيا السوداء.. اثنان من سلطنة (أنسابة)، واحد من جزيرة العرب، وآخر من أعرق بلاد (فارس) إضافة إلى عدة جوارى من الزنج عليهن وشم العذاب. كانت اللوحة معلقة في واجهة المعرض العريق، غزير الزوار، وشدت زحاماً مبرراً من المثات الذين ما صدّقوا ضياعاً بهذا الشكل أبداً.. كان (دمدوم)، (قلوب) هما ضائعا (أنسابة) المرسومان، والملفتان بشدة للنظر، واللذان جاءا بذلك الوفد إلى البلاد برغم مخاطر السفر كلها.. البحر.. صحاري التيه والعطش، وظهور الجمال الخشنة.. كان من عادة (جيوفاني) أن يتنقل بين السلاطين في قصور المسك والياقوت والزبرجد، يحتسي بن الضيافة، يأكل.. يشرب، يرسم البذخ،

وفي لحظات ملل مباغته، كان يرسم مثل هذا الضياع.

(سيصلكم نصيكم من الضجة)..

هكذا قال، ويبدو أن النصيب قد وصل بالفعل.

كان السلطان مبهوتاً، ومستغرباً، حين أعلمته العيون المبهوثة في الوحل، في السوق، في الميادين، في المجاري.. العيون التي أصلها من الرعاع، ولكن توظف كعيون فقط. أعلموه بأمر القافلة التي كانت قد بركت في التو في ميدان مهبط القوافل، ولم تفرغ من إبلها المتاع.. قالوا.. الثياب كلها سوداء، المناديل سوداء، اللحي جهمة وعدائية السلوك، الأحذية فيها غبار كثيف، وبعض المزع، والوفد في مجمله أربعة رهبان، وراهبة واحدة. ويحملون أسماء غريبة.

(لن يطلبوا موعداً للقاء جلاتكم، مولانا الرشيد.. لأنهم دوليون، ومبعوثون ولهم حصاناتهم التي تحميهم، قد يسألون العامة في الشوارع، وقد يدخلون الأحياء الفقيرة، وقد ينصبون خيمة في السوق، تعج بالزفارة، وقد يتوجهون مباشرة إلى قصر المسك للقاء الضائعين اللذين رسما في لوحة الإيطالي).

تلقى الرشيد تلك المعضلة، وخرج من مشاغل حكمه مرتبكاً:

يا مساعد..

يا (يوسف كرا)..

يا لاليا البرناوي.. يا كردمان التريزي.. يا حكيم دوباجي. يا عمي

أحمد برم..

وفي زلة اللسان التي تأتي دائماً حين لا بد أن تأتي زلة لسان:

يا شيخ عبد الرب.. يا شيخ عبد الرب.

حقاً هو السلطان في سلطنة من تأسيس أجداده، يقرب من يشاء، يبعد من يشاء، يخصي من يشاء، ويسمح بالضياع لمن يشاء، ولا يستطيع

أي مجلس كاثوليكي أو انكشاري أو أعرج أو ابن كلب، أن يتدخل في شئون حكمه، لكن الغرب ذو سطوة، وذو نفوذ استعماري، ويملك القلب الذي يضخ التجارة لتصل (أنسابه)، والماكينات التي تصك العملة، والبارود الذي لو سخر ضده، فلن يكون لسلطته كلها وجود. وكانت ثمة مساعدات تصل دائماً، وموائيق متبادلة بينه وبين زعماء تلك الدول، كلها خطوط حمراء، وقرصات في الأذن، وتكشيرات حقيقية.. حافظوا على الحقوق المدنية.. لا لتجويد الناس، لا لانتهاك الأعراض.. حرية الكلمة، حرية ممارسة الشعائر.. دور العبادة.. لا إكراه في شيء.. ولا لسد الحنك المبالغ في أمره. وفي آخر اجتماع جرى في إحدى الدول المجاورة، ولم يحضره الرشيد، وأوفد إليه الأب الشيخ (يوسف كرا)، كانت ثمة قرصة حادة في أذن الأب الشيخ، حملها وعاد راجعاً بها إلى (جوا جوا):

مولاي.. قد وضعوا (أنسابه) على رأس قائمة الدول الأشد قهراً للإنسان وقد يخفضون من مساعداتهم لنا. لم ينتبه الرشيد كثيراً لتلك القرصة الحادة، وكان مشغولاً بقرص الأذن المحلي الذي هو أشبه بطنين بعوضة لا ينقطع.. تحرشات في الحدود تهدأ وتهيج، تدمرات في الجبال من حين لآخر، سحرة وفاسقون يحاولون البلبله. الأمن.. الأمن.. لم نمدد لمساعد الجبل إلا حرصاً على أمن (أنسابه).

وكان أكثر ما يحيره هو ذلك الاهتمام المبالغ فيه في شأن فقراء إن لم يمتهم الظلم، فسيمتهم الفقر، وإن لم يخصهم الرعاع، فسيخصيهم الزمن..

(خصياننا ذهبوا إلى مكة.. حملوا كساء الكعبة الشريفة، هلموا وكبروا، وطافوا وسعوا، وعادوا عوداً حميداً، ولم يسألنا أحد.. بل كان الخصيان وما يزالون يأتوننا من الحجاز في قوافل ضخمة، ونشتريهم..

ولا يسأل أحد.. ما دخل الخواجات في الأمر؟ نحن لا نزوجهم ولا نتزوج نساءهم، وما منعناهم من دخول أرضنا إلا نادراً وحين يثبت عليهم الفسق.. نعم.. هناك رهبان يطوفون بالقري، وشمامسة يباركون البسطاء ويدفنون موتاهم، ونغض الطرف، ولولا أن البرناوي الذي نثق في فتواه، أفتى في شأن أولئك الطبييات، ما كنا سألهن حتى اليوم).

- لوحة ضائعون التي رسمها الإيطالي هي السبب يا مولاي، وأولئك الخصيان ما كان يجب أن يظهر فيها على الإطلاق.

(هي مصيبة من مصائب (مسك النساء) التي لا تنقطع. أرملة بائع الحلوى التي ما تركت لنا جنباً مريحاً نتقلب عليه. مساعد المسكين كان ينفذ الأمر، يؤدي واجبه، ومسك النساء تنفذ الشر.. اثنان مزعجان.. ولكن إزعاجهما يختلف. واحد يحمي والآخر يفضح).

أفتوني.. أفتوني يا كبار السلطنة.

كان المجلس السلطاني الذي عقد على عجل، والذي كان أشبه بمجالس الحرب في نسقه، وتكوينه وتجهم وجوهه، وفور السماع بأنباء القافلة التي حطت، قد ضم الكبار أنفسهم.. (يوسف كرا) المثلل بالهرمونات، لاليا البرناوي الذي يفتي حين يستطيع أن يقدر العواقب، كردمان التريزي بلا وظيفة محددة، دوباغي بوظائف الأكاسير كلها، إكسیر النشاط، إكسیر ضيق النفس، إكسیر توتر العضلات، العم أحمد برم الصامت، المهاجر (عباد عبد الرب) بعد غيبة طويلة، ورجل المهام الجليلة الذي يعنيه الأمر هذه المرة مباشرة:

ما رأيك أنت يا مساعد؟

-لم نخطئ في حق سلطتنا يا مولاي، ولم نرسم لوحة (ضائعون) ونعلقها في ذلك المتحف السخيف، ولا حرضنا خصياننا على الجلوس للرسم. فتش عن الخطأ في مكان آخر يا مولاي.

نظرات الصقور المهووسة واثقة، وحلق الرميات صريح إلى أقصى

حد. فتش عن الخطأ.. ويعرف السلطان أين الخطأ، ولولا الجلوس للرسم، وتحت سمعه وإبصاره، لما جاء الكاثوليك وغيرهم ينبشون..
لاليا البرناوي؟

لا مشكلة يا مولاي.. نمنحهم ما أرادوا، وينتهي الأمر.
لكن هل يعرف البرناوي ماذا يريدون بالضبط؟ هل يعرف أحد آخر ماذا يريدون؟ نطعمهم، ونسقيهم، ونسكنهم في قصر واحة (جوا جوا) الفخم، والمعد للضيافة، نريهم الأحسن، نطعمهم الألد والأطيب، نلقن الخصيان ماذا يقولون، والجواري ماذا يقلن، ولو تمكنا فسنضع أمام كل مواطن رعاعياً يرشقه بالعيون الحمراء حتى يصمت.. ثم ماذا بعد؟ هل سيصدقونا ويكذبون لوحة المتعجرف ذلك.. (ضائعون)؟ يستغرب الرشيد.. يستغرب كيف سمح للوحة مثل تلك أن ترسم في بيته، وكيف سمح بحملها إلى خارج السلطنة وفي قافلة هو من دفع أجر مسيرها؟ تلك ليست من لوحات تزيين القصور ولا المتاحف ولكنها من لوحات الأقبية. تدفن في الأقبية.

الوزير كردمان؟

ما تقترحونه جلالتكم، أنا خادم في تفصيل أزيائكم.. أزياء الحرب والسلام، ولا أفهم كثيراً في هذه الأشياء.

والشيخ عباد عبد الرب؟

الآن يعود المهاجر شيخاً في عرف زنقة السلطان، والرجل الذي جلد من قبل في وسط جوا نتيجة صياح كاذب، وأزيح من ألقابه كلها، وأعيد بعد كل هذه الغيبة، لا بد قد أعيد ثقة أن في لسانه مخرجاً ما من تلك الأزمة الدولية. لكن الشيخ لا يزهو، لا يكذب، لا يعطي إلا مخرجاً يبدو منطقياً ولكن غير مقبول، مرفوض تماماً:

تصفية الرعاع يا مولاي.. التخلص من وصمة العار تلك التي تلتخ جبين السلطنة، إعادة الناس إلى ذويهم، إيقاف الظلم وخصي الرجال،

والاعتذار عن كل ما سلف. عفا الله عما سلف.

رجل المهام الجليلة يزمجر، يتحرك بعينه في قاعة المجلس بلا توقف، وذهن المهام قد انشغل فعلا، انشغل بالضيف الجديد الذي سيحل على مستنقع الرعاع فور الانتهاء من هذه المعضلة. هذه المرة لن يجلد في وسط العاصمة فقط.. ولكن سيكون الدابة العجوز التي تتعثر في الحصى والوحل.. الضد العجوز بالصفائر البيضاء والحوض اليابس والكحل المغموس في ماء النار.. سترى يا عباد.. سترى.. يرفع اليد ويخفضها، ويتململ في مقعد النار بلا توقف.

السلطان أيضاً يزمجر..

لا تقل مثل هذا الكلام يا شيخ عباد.. لا تقله.. أنت رجل علم وروحانيات ولن تعرف أبداً ما يتطلبه أمن الشعوب من مشاق. كان الوقت قد ضاق جداً، وكان الوفد قد بدأ يتحرك من مهبط القوافل دون أن يطرح أي أسئلة.. اتفقوا على أن يعالج السلطان أمر الأسئلة التي ستطرح، بداهة السلاطين وحكمتهم.. ويعالج الرعاع أمر الألسنة التي قد تزل بطرقهم المعروفة.. وأما عن الضائعين في لوحة الإيطالي (جيوفاني)، فقد قال دوبايجي:

هما ليسا من هنا.. ليسا أنسابيين، وقد وفدا من بلاد أخرى.. دعنا نقول بلاد تمبكتو.. لهما سحنة الأفارقة الجافة ولسانهم المتعثر. وقد استقرا بإرادتهما.. هذا ما يجب أن يقال يا مولاي.

رفع اجتماع الأزمة بعد تلك النصيحة الكبيرة من رجل الأكاسير، الثعلب العجوز كما يسميه السلطان، وطابخ الوصفات الخيثة كما يهمس الناس.. خرج السلطان متبوعاً بالكبار، وبالظهوريين، ورجل المهام الجليلة الذي تخلى عن أحصنته المحورة، وتبعهم على ظهر حصان حقيقي. كان السلطان متعجلاً للغاية، وبعد يومين يأتي يوم (النعمة) السنوي الذي يأكل فيه الناس كلهم على حساب السلطنة، ولا بد

من إعداده جيّداً. كانت خيمة (الكاثوليك) منصوبة في سوق الفخاريات، سوق الاحتكاك، والرؤيا غير الغائمة، وحيث (جوا جوا) وضواحيها، وتناقضاتها لا بد أن تكون متوفرة. كانوا يستجوبون بائعاً لحلوى (الدرادم) اللزجة حين دخل السلطان:

(أنا بائع عادي للحلوى.. ولست ضائعاً، أحب مهيتي.. أحب وطني، وأفدي مولاي رغد بدمائي).

لم يكن مظهره يوحي بمظهر مفتدٍ أبداً إذا ما نودي للفداء.. هكذا دون الرهبان، ولم تكن سلته التي تحوى الرزق أكثر من سلة لمتسول. هكذا دونوا، ولم يكن النموذج الذي هو تحت خط الفقر مباشرة كما كان ينبغي.. ولكن تحت خط فقر آخر، غير اعتيادي وغير مسجل.. هكذا دونوا.. والتفتوا إلى آخر يريدون استجوابه.

حياهم السلطان بتحية المسلمين التي هي السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وردوا بردود الإفرنج الموغلين في النصرانية.. بارككم الله.. أعزكم الله.. طابت أيامكم. كانوا يتقنون اللغة، ويخرجونها من الحلق نقية دون شوائب، ودون تنوعات قد تعيق الفهم.. وخمن السلطان أنهم تدربوا في بلاد العرب.. تبا للعرب.. يدربون الشوك ليأتي ناغزاً لأجسادهم؟

(جلالتكم لا تسيثوا الظن.. لم نأت سعيّاً وراء وسواس قهري، ولا نريد أن نفسد تبعيتكم لبلادنا العزيزة، ونعرف مقدار ما تكونه لنا ولشعوبنا.. ونبادلكم نفس الشعور، وقد مررنا كلنا عبر شارع (رغد) المزدان بالزهور، والذي يشق روما من وسطها، وأطلق تخليداً لاسم جلالنتكم. فقط نريد أن نفهم شيئاً واحداً.. هل تدرون بكل ما يجري داخل سلطنتكم؟

نعم ندري..

ردها الرشيد بتعجل، ودون أن يلهث إلى ما وراءها، واكتشف

وهو يرددها لنفسه بعد ذلك أنها قد تكون سنارة صيد أُلقيت في مياه اضطرابه.. نعلم بكل ما يدور.. تعني أننا مسؤولون تماماً عن ذلك الضياع. لا نعلم بما يجري، تعني أننا غير جديرين بالحكم.. نعلم بعض الأشياء ونجهل البعض، تعني أننا نقترّب من مرحلة أئينا (نفر المقدم) في أواخر حكمه، وقد ينقض علينا الأبناء بين لحظة وأخرى.. حسنا فلتكن.. نعلم بكل ما يدور، هذه أفضل من غيرها.

- وهل سعيتم لإصلاح الأمور؟

- بالطبع نسعى باستمرار، وقد حسّنا الزراعة، وحفرنا الآبار لمياه الشرب، ونصنع الآن الحلوى، والمرطبات.

- لم نمخر عباب البحر ونركب الإبل في الصحراء لنسأل عن الزراعة المطرية، والآبار المسطحة، وصناعة الحلوى من السمن البلدي، ولكن نعني مجال حقوق الإنسان..

(عباب البحر) جملة أعجبت رجل المهام الجليلة بشدة، أدخلها في عقل الصقور المهووسة وأخرجها آلة لتكسير الأظافر.. آلة (عباب) لتكسير الأظافر.. أعجبت التريزي كردمان أيضاً، لماذا لا يكون ثمة ثوب اسمه (عباب) ويصلح لسهرات السلطان المتترفة، وفيما كان المهاجر عبد الرب مغتاضاً، ويغلي دمه، كان الحكيم دوباجي قد ابتكر إكسير (العباب) الذي سيستخدم قطعاً في أغراض كثيرة.

حقوق الإنسان هي هدفنا.. نحن أكثر الدول اعترافاً بهذا الشأن.. ويمكنكم أن تلقوا نظرة في أي وقت.

ارتاح الوفد لكلمة (أي وقت) التي لم تكن متعجلة من لسان السلطان، ولكنها مدروسة بشدة، فالخصي (دمدوم) والخصي (قلوب) كانا في الواقع قد هبطا إلى تحت غير معروف في قبو مظلم في قصر بعيد، محفور لتلك الأغراض.. يتشاجران بحرية، ييكيان بحرية، يضيعان بحرية، ومستنقعات الرعاع كانت قد غسلت على عجل، وتحولت في

ساعات قليلة إلى معسكرات تأهيل لإعادة الأدمية لغرباء جاءوا إلى السلطنة فرارا من بطش هنا وهناك.. الدواب المحورة يعاد ترميمها، الخصيان الذين فقدوا الذكورة، ويرزحون تحت ثقل الهرمونات في بلاد أخرى، يعاملون كضيوف من الواجب إكرامهم، و(أي وقت) ليست جملة الفرار ولكنها جملة الإصرار التي ردها السلطان مراراً.. وأخذها وفد الكاثوليك على محمل الجد.. لا نريد مشاكل.. يقول السلطان لنفسه.. لا نريد أن تنقطع المساعدات.. ويوقف صك عملتنا، ولا نريد أن نشم رائحة البارود تلوث سماء (أنسابه)..

كان الوفد يبدو مقتنعاً، ويدون كل شيء، وطافوا على السوق كله، والأحياء كلها، ولا حظوا أن الفقر في تلك السلطنة كان عادة وليس أمراً مكتسباً.. البيوت مبنية بعادة الفقر، الشوارع موحلة بعادة الفقر، الناس سعداء بعادة الفقر والحمير تحمل أثقالها بظهور الفقر، وحين تغلغلوا في مستنقعات الرعاع.. أعجبتهم حركات (الهياهوب) واللياقة، وتذوقوا الأكل الذي كان طاعماً وفيه نكهة (زنجبيل).. عثروا على الخصي (نَجَام) الذي عاد مؤخراً إلى المستنقع، وقال أنا يمانى من حضرموت وأحل ضيفا هنا، وعلى خصيان آخرين قالوا إنهم من نواحي (زنجبار) و(كتم)، وجاءوا إلى (أنسابه) التماساً للرحمة بعد أن تعذبوا كثيراً.. لم يطلبوا الدخول إلى قصر المسك لأن فيه عورات والرهينة ضد كشف العورات، والتقوا بالجدة (السحابة) في قصرها (روح الأصيل)، لأنها كانت قد بلغت السن الذي تذوب فيه العورة..

هل رأيتم؟ هل اقتنعتم؟ كانوا يدونون كل شيء.. واكتشف السلطان أنهم أحصوا عمائمه في تلك الفترة التي أمضوها، وأحصوا عدد الأزيار في السوق، والابتسامات في الوجوه، وورد في تقرير منفصل أطلعوا عليه السلطان منفرداً.. تحليل مضمّن عن رجل الأمن في السلطنة الأمير مساعد.. صدقنا جلالكم.. لو كان هذا الرجل في أوروبا لامتألاً

جيبه بالمال.. ما رأينا من قبل رجل أمن له مواصفات شمبانزي..
كانت بالطبع إهانة للرشيد.. إهانة لنطفته التي أصبحت مساعد،
وإهانة لتربيته التي كبرت مساعد، ولاختياره الذي وضعه في طريق تتبع
الإحساس.. لكن الرشيد مررها حتى تنقشع تلك السحابة. وكان السؤال
الذي لا بد أن يأتي قد أتى بالفعل:

- أين الشابان اللذان وردا في لوحة جيوفاني؟

وكان الرد الذي لا بد أن يأتي وأتى بالفعل.

سافرا.. كان ضيفين عندنا حين كان الإيطالي موجوداً والآن سافرا.

- سؤال آخر جلالة السلطان. هل لديكم منفيون في الجبال البعيدة؟

كاد الرشيد أن يضطرب بالفعل وهو يتذكر ابن عمه (الرأس) الذي
كان مشاغباً ونفاه إلى تلك الجبال منذ أعوام بعيدة، ولم يكن يتصور
أن الغرب الحضاري يدري عن معتوه في مكان بعيد وقذر كهذا.. لم
التماسك بصعوبة، رمى إلى عمه أحمد برم، نظرة الوعيد التي كان لا بد
أن يرميها، والتفت إلى محدثيه وكان الرد الذي نبع في رأسه سلسلاً
لدرجة أنه تذوق حلاوته:

إطلاقاً.. لدينا مصحات لاستنشاق الهواء النقي.. ونذهب إليها
أحياناً.

لم يسألوا أكثر، ولم يأتوا على ذكر (الرأس) المنفي، وبدوا قانعين
بإجابة السلطان.

كان يوم (النعمة) مغائراً هذه المرة، وشاهده ضيوف وفد
الكاثوليك، وانبهروا.. يوم نعمة حقيقي.. يوم شبع، ويوم غازات، ويوم
مفص بطن.. ويوم تجاوز خطير لذلك الخط غير الاعتيادي من خطوط
الفقر، وجاءت جمعة الصياحات أيضاً وحضرها الوفد، وقد كانت مرتبة
ومبهرة، وأجيب فيها نداءات لم تكن تجاب من قبل.. فقط كانت بلا
(حلحلولك) المجنون الذي تولى الرعاع أمر دسه في تلك الجمعة،

وأطلقوه بعد أن رحل الوفد.

ذهبوا لتذهب (البجبة)، تعود الصقور المهووسة إلى التحليق في المستنقع، كذبات التأهيل إلى حقائق التحوير، المسافرين في قاع القبو إلى سطح المذلة في قصر المسك، والمهاجر عبد الرب إلى إقصائه من جديد.. لم يكن ضيفاً على الرعاع كما كان يتصور أو يتمنى الأمير، ولكن بعيداً عن جلسة الكبار كما أراد السلطان.. تلك هي (أنسابة).. التي أسسها (يوسف ضو) وتبعه الأبناء والأحفاد في إدارتها.. (أنسابة) العالم المتأخر الذي حتى لو رسم الإيطاليون كلهم ضياعه، وأحدثوا مئات الضججات فلن يكون إلا ذلك العالم.

جلس السلطان في انكساء التخفف عن الأعباء في قصر المسك.. الأصابع المرصعة بالخواتم تمتد.. تربت على جبهة الخصي، ذنوبنا على الأرض.. ذنوبنا يا مسك.. والفم يرشف من شراب الورد الدافئ، ويحكى لسلطانه ما جرى وما كان يمكن أن يجري:

كدنا أن نحرم من مساعدات الأوروبيين التي تسندنا كثيراً.. كدنا نفقد وزن عملتنا ويتدهور اقتصادنا.. صدقيني يا مسك.. لقد شملت رائحة البارود بأنفي وأنا أتحدث إليهم بالرغم من أنني لم أشم باروداً من قبل في حياتي.. لا أريد رسامين في قصري بعد اليوم.. لا جيوفاني ولا غيره.. هؤلاء يرسمونك فعلاً، ولكن يرسمون عوراتنا أيضاً.. يرسمون ذنوبنا.

كانت السلطانة رشيقة ويانة، وقد خففت عدة ستمترات من خصرها في رجييم قارس اعتمدت فيه على خل القصب، كانت تضحك.. تطالع لوحات جلساتها الأخيرة وتضحك.. كل هذا من تحت رأس دمدوم وقلوب الشقيين.. صدقني يا رعد.. يوم طلبت من (جيفو) أن يرسمها كنت أمزح، لكن المتعجرف رسمهما بالفعل.. لا تغضب يا رعد.. لا تغضب. تقترب من كيانه المهدود بأنامل شديدة اللين فيها

رائحة حمى.. تقترب أكثر.. يبتعد دمدوم عن موقعه.. يحس باقتراب
خطر.. اليوم هنا وغداً لا يدري أين موقعه.. ثم فجأة تخطر الرزينة
بذهنه.. ترى أين الرزينة؟.. أين أمه؟.

-17-

حين قال (نَجّام) للرزينة، وهو يودعها، ويعتذر عن مرافقتها في رحلة العودة للمتابع، في ذلك اليوم الأكثر اكتئابا في تاريخ حي الرديم، أنه استدعي للخدمة في الكتيبة، ولا بد أن يلبي، كان صادقا.. لكنه لم يشأ أن يخبرها، أو لم يكن هنالك وقت للرغي، حتى يخبرها بأنه جاهد جهاد المحاربين، وتفتت تفتت الخبز اليابس، حتى يتم استيعابه من جديد مجنّداً في كتيبة الرعاع. لم يكن رجل المهام الجليلة يرغب في عودة طباخه القديم، الخصي الذي تخرج من عنده، ساح في سوءات قصر المسك.. وعاد إلى طبخ حسائه، والآن في الشارع.. لم يكن في الأمر غضب شخصي، ولا كان الأمير سخيا في الغضب أو الفرح، أو المشاعر كلها، ليسخرها ضد واحد من قبيلة (البيقو) عديمة الجدوى، أدى دوره وانتهى، في ميثاق الرعاع غير المكتوب أولويات كثيرة، مطبات كثيرة.. إشارات كلها حمراء، وأدوار تلعب في السر والخفاء، ومثلما جاء نَجّام وذهب، كان يمكن أن يجيء ولا يذهب.. ومثلما انتهى ضدّاً كان يمكن أن ينتهي فرساً مكسر القوائم أو ناقة تحتضر أو حماراً أبلها ممتلئا بالجرب.

(لكنه أفضل من صنع الحساء الجارح.. مولانا الأمير)..

فليكن.. فليكن.. غيره يصنع الحساء..

كان نَجّام يعرف أمراء وأبناء عديدين لملوك الأرياف، رعايين نظيفين جداً، هم في الحقيقة مساعدو رجل المهام الجليلة الذين انتقامهم.. ووظفهم وقد لا يكسر لهم خاطرا. أرهقهم نَجّام بالسعي، بالإلحاح، بالليل، بالنهار، في الضحى، في ساعات تحررهم من الخدمة،

والعودة أنقياء إلى أسرهم..

- سادتي لا أستطيع العيش.. لا أنام.. أنا منبوذ، أنا مسكين.. أنا..
ثوبه في مستوى السرة وأعلى قليلاً ليجسد ذلك التفاعل الإنساني،
كحل عينيه من صنف رخيص وباهت، حذاؤه جلد شاة مرقعة، أظافره
مكسرة الحواف.. عيناه خابيتان بلا وميض:
انظروا.. ضلوعي.. أظافري، أعاني من الإمساك.. من المغص.. من
رعدة الحمى.

يذهبون.. يعودون، ونجّام في إلحاحه الذي لا ينقطع:

هل رضي عني؟

هل سيعيدني؟

يذهبون.. يعودون.. لكن تلح الأسئلة.. تلح في الأذهان.. لماذا
الإصرار؟ نعطيك الرزق كما تحب.. نعطيك خدمة بيوتنا من ألفها
إلى يائها.. نجعلك منسق الحداثق لنا كلنا.. نجعلك طباخنا.. وإن شئت
أن تحرس العورات في مخادعنا، نوظفك حارساً.. لماذا الخدمة عند
الأمير؟

هنا.. مكائد الخصيان التي هي من مكائد الهرمونات، تلفيقهم
للخرافة التي هي من تلفيق الهرمونات، واستحالتهم إلى رواة لأحلام لن
تحدث أبداً إلا في ساعة تلفيقهم لها:

هو حلم غريب.. حلم رأيت فيه الأمير سلطاناً على (أنسابة).. تاجه
من ذهب.. ولثامه من ذهب.. ورأيت يسير في الموكب المهيب،
والجدات خلفه، وباركنه بالمسك ودقات الطبول، وأصوات الخرز
المنغمة. وكنت أنا برفقته.. أبخره بالصندل، وأرشه بالطيب.. وكان
يتسم في وجهي.. هذا ما حدث.. ليس مرة واحدة، ولكن مرات
كثيرة.. لا تقولوا لأحد.. رجاء لا تقولوا لأحد).

الرؤيا المكيدة الآن في اقتناع المساعدين.. في الطريق إلى

المستنقع، والآن موضوعة أمام رجل المهام الجليلة الحذر على نفسه، والمفترض أنه الحذر على سلطنة أبيه.. الرؤيا التي ستفرحه، وتسيل لعابه، وتجعله في ذلك اليوم متأثراً بالأخضر ملثماً بالذهب، معمماً بالضباب، ومنتعلاً لجلد نمر أسوي مرقط.. الرؤيا التي قد تكون تافهة، ومختلفة، ولا أساس لها في عهد سلطان أقوى من جمل.. لكنها هي التي ستمنح المجندين في ذلك اليوم لقماً إضافية من عصائد الدخن، وإعفاء من قراءة الحظ.. كما هو.. تغير إلى الأفضل، وحتى قد تؤجل تحوير راع مسكين إلى حمار، وحمار ناهق إلى فرس، وفرس مستهلك مكسر القوائم، إلى ضد وضده.

جلس رجل المهام الجليلة أمام رؤيا الخصي ساعات يتفحصها، ويقلبها على جوانبها المبهرة، رسم على طاولته قصر المسك كاملاً.. غرفه.. أجنحته.. صالات عرضه.. خصيانه.. جواريه.. عطوره.. أبراج الحمام الزاجل التي تحتل قمته، رسم مجلس (الكوراك) كاملاً، سلطانه، جلساءه.. صائحيه.. هجليج ظله.. (حلحلوكة) المجنون.. سلسلته السباعية.. حاجبه.. صياحاته، وبألوان التراب التي تعشق الأذى، طمس (رغد الرشيد) في الجلسة التي رسمها، وكانت الآن خالية بلا سلطان ليحكم. لكن الحذر.. الحذر..

- متى رأى ذلك الحلم آخر مرة؟

- أمس مولانا الأمير.

وهل تصدقون أنتم؟

خاطبهم (بأنتم) الكريهة اللاطمة، الكارثية، والتي ما كان يخاطب بها مساعديه إلا نادراً.

لا ندرى مولانا الأمير أنت حورته.. وعمل في خدمتك من قبل وتعرف سلوكه أكثر منا.

نعم حوره، وعمل في خدمته، وحوار المئات غيره، وعملوا في

خدمته، ولو أراد أن يحصي الأعمال الجليلة التي قدمها ل(أنسابه) منذ أن كون كتيبة الرعاع، لما استطاع.. (لولاي ولولا رعاعي، لما كان للأمن موقع، ولكان السلطان عارياً يتناوبه المتدمرون).

- هل أخبر أحداً آخر بهذا الأمر؟

لا لا مطلقاً.

وأنتم.. هل قلتم لأحد؟

- أبداً مولانا الأمير.

إذن أعيدوه إلى الخدمة.

تلك الأمسية لم يكن ثمة إلحاح ليلحه الخصي، ولا كانت ثمة ضرورة لرفع الثوب فوق السرة، وعرض الضلوع اليابسة أو الأظافر المكسرة الحواف.. جاءوه بالعرض السخي الذي كان يريده فعلاً.. يريده لا ليأكل أو يشرب أو يصنع الحساء الرمي، أو يقرأ طالع الأمير كما هو.. تغيير إلى الأفضل، ولكن لينجز المهمة التي ما كلفته الرزينة أبداً بها. ولا كلفته المدن والقرى والجبال، ولا أية بقعة في الوطن قد تصير أكثر أمناً في غيبة الأمير. ولكن كلفه بها الحب.. حب ابنته الرزينة أولاً وحب (أنسابه) ثانياً.. (البقي) الذي ولد في القبيلة عديمة الجدوى، لا أب رعا، ولا أم أرضعته، ولا جدة حكّت له أساطير قبل النوم، و(البقي) الذي لموه من الطريق، وأعادوه إلى الطريق، جدواه الآن جدوى كبرى، من أجلك ابنتي الهائمة.. من أجل (أنسابه) كلها.

لم تكن ثمة خطة موضوعة في ذهنه للقضاء على الأمير، القضاء على الحذر، لكن الخطط تأتي، ويتفتح الذهن حين لا بد أن يتفتح، الرزينة ستمضي إلى الريف طائعة، مجبرة.. ستمضي.. وأخوها في قصر المسك.. طائع.. مجبر، هو في قصر المسك، ونجم يعود إلى المستنقع الرهيب.. طائعاً، وإرادة حرة.

كان بعض زملائه القدامى موجودين حين عاد، كذلك بعض

المحورين الجدد ممن دخلوا وهو غائب. عشر على الضد (عائق)،
والحمار اللاهث الأنفاس (داري)، وعثر على الفقيه (القرشي) الذي
كان الآن في آخر أنفاسه، ويستغفر مقاوماً هرمونات جسده. وفاجأه
المصممون حين قصوا شعره، وجردوه من مشيته وكحل عينيه، ووضعوه
في مخزن التغذية الذي كان بعيداً تماماً عن متطلبات تغذية رجل المهام
الجليلة. لكن الذهن يفتح حين لا بد أن يحدث ذلك، وتأتي طرق
الخلاص حتى لو أزالوا إبصاره كله.. من أجلك.. رزيتي.. من أجل
(أنسابة) كلها.

لم يكن الأمير متشوقاً إلى رؤيته وسماع الحلم يتردد من حلقة
شخصياً كما توقع، وما ناداه إلا بعد عشرة أيام أمضاها في عد الأجولة،
وتعبئة الحميمض في القدور، وصرف زيت التشحيم الذي كانت تحتاجه
الدواب في مهماتها العسيرة، وفي كوخ إدارته للرعا، رماء بنظرة
الصقور المهووسة:

أقصص رؤياك على.. أقصصها يا نَجَّام.

كان فارهاً بالفعل، سلطاناً متأنقاً في الجبة، في عمامة الضباب،
تاج الذهب، واللثام الذي لا يُعرف إن كان من مخمل أم من حرير.
وناداه بنَجَّام الصديقة، اللصيقة، التي لم تكن أبداً من إفرازات اللسان
الرعاي، بشرى خير.. أكيد هي كذلك. وقف نَجَّام ثابتاً، وكما سمع في
القصص البعيدة والغابرة، وأمثال (أنسابة) المتداولة.. لا تلسع الحية إلا
وهي ثابتة، ولا يغدر الغادر إلا وهو ثابت، ولا يححر البطل الأرض..
أي أرض.. ورجلاه ترتعشان.

- نعم مولاي الأمير، رأيتك مكلاً بالذهب، وتسير في موكب يهدر
بالهتافات، وحولك الجدات كلهن يغنين، ويرقصن، ويباركن، رأيت
المغنية (تمائم) تغني:

مساعدة وين..

ولد أبوي الزين
ما بجيب الشين.
الذهب في الرأس
الفرح في الناس
يتبع الإحساس.

كانت الأغنية بالطبع من صياغته، وصاغها في التو من إحياء
الثبات، ومهتديا بأبجديات الغناء المناققة التي ما انقطعت أبداً من تراث
(أنسابة)، أو نفاقها المعاصر. يرتفعون بالسلطان حين يرتفع، ينخفضون
به، حين ينخفض.. يردد الأمير الأغنية، ينتفخ بها، وبأقلام التراب التي
ما قصرت في رسم الأذى، يرسمها على طاولته:

كم مرة رأيت الحلم يا نجّام؟
أكثر من خمس مرات يا مولاي.

نظرات الصقور الآن أقل هوساً، وشيء في الفم يلمع، ابتسامة،
ضحكة، أو ارتخاء فك.. الرجل الجليل منبهر بالرؤيا، وحتى لو لم تكن
هنالك قناعة لغرسها بعيداً في العمق. لكن لا مانع من تذوقها.. تتبعها..
اللهات خلفها.

ومن كان معنا في الموكب يا نجّام؟

رعاياك كلهم يا مولاي، (أنسابة) كلها، الفوانيس الخضراء
والحمراء، الطاهرات.. سلاطين كردمال.. وحتى الدواب.. كل شيء..
كل شيء يا مولاي.

- حسنا.. ستطبخ حسائي من جديد.. اذهب..

يفكر الخصي مبتهجاً.. لعله نال الثقة، لعله الفخ الذي ينصبه
الحذر، لعله.. لكن نجّام ثابت، ولن يتلع الثقة دون تفحص.. لن يسقط
في الفخ قبل أن يتحسس مواضع القدمين.

استلم فرصته في مطبخ الرميات الملحق بمستمتع الرعاع، ذلك المطبخ الذي عمل فيه من قبل سنيماً طويلة، ويعرف بالضبط ما فيه، وما ليس فيه. طيور الرخم التي لها رائحة سرّة تتعفن، نسور الفلا آكلة الأفاعي والبرقات، وصقور (جرناس) التي كانت تأتي من حدود (تمبكتو) وجزيرة العرب.. ويصطادها الرعاع خصيصاً لتزيين مائدة الأمير. وكانت قد شحت في إحدى السنوات، ما عادت تتحاوم في أجواء (أنسابة)، فرصد الأمير مكافأة مجزية، قدرت بعشرة دنانير أنسابية لمن يأتي بصقر من صقور (جرناس) حتى لو كان يحتضر. في تلك الأيام راجت تجارة السهام، ورماح الصيد، انغمس الناس في الركض والتحديق، ومحاولة العثور على تلك الصقور التي تأتي بالدنانير.

لو كانت ثقة هي التي عادت به إلى مطبخ الرميات.. سيجعلها كذلك حتى تصير ثقة مؤكدة، ويحدث الأمر. لو كان فخاً منصوباً لاصطياده، سيحيله إلى فخ تالف، حتى تتخلخل الشكوك، ويحدث الأمر.

كان نجّام متفانياً فعلاً ولأول مرة في تاريخ مطبخ الرميات، ابتكر أطباقاً مثقفة، وناعمة، ومن نفس المصدر لم تحد عنه. لحم الرخم بالزيت والفلفل الحار، نسور الفلا في طاجن الخضروات والليمون، والبرقل، صقر جرناس مشوياً، ومنقوعاً في البصل والخل. القوانص المشكلة مع سلطة الحميض. كان قد وضع تقليداً جديداً لتذوق الأمير، أغرقه في الرمة الفاخرة وبنفس الثبات.. التفاني:

مولاي ليس الحساء فقط ما يمنح النشاط، ويجعل الذهن يتوقد، جرب طواجني.. جرب المائدة التي أعدها لجنابك. رجل المهام الجليلة منبهر، ونجّام متفان، والآن عدة مساعدين مهمين في ترتيب الرعاع، احتلوا أماكنهم ضيوفاً على مائدة الأمير.. ما أبدع الطعام الذي يعده هذا الجربان.. ما أحلى طواجه..

في عهد الحساء فقط، توجد صعوبة، مهما تأطر الثبات، توجد صعوبة.. قد يدلّقه في لحظة التعصب المتوقعة من عصبي مثله، قد يعصر على القدر كما هائلا من ليمون البراري الشديد الحموضة، ويفسد الوصفة.. لكن عند نَجَام الآن مائدة فيها طبق لن يخيب أبداً من أجلك يا رزيتي.. من أجلي أنا.. من أجل (آدم نظر)، ومن أجل (أنسابة) كلها. وطوال ستة أشهر كاملة كان يراقب الأمير بدقة على مائدة غدائه، يتابع الريالة حين تخرج، حين تسيل، وفي أي طبق تندلق. يراقب الأصابع في تردها على الأطباق، في أي طبق تتمدد، وعن أي طبق تنكمش، وكَوْن فكرته الكبيرة والناضجة.. طبق السم.. طبق صقور (جرناس) المتبلة بالثوم، والمنقوعة في خل القصب.

الساعات.. الأيام.. الشهور تمضي، والرؤيا الملفقة ما زالت على طاولة رسم الأذى لا تبرحها، الفقراء يحورون إلى دواب.. الدواب تحور إلى أضداد وأضدادهم، سحرة جدد من قبائل (البيقو) نطّوا إلى السطح، واعتقّلوا، ومتذمرون في قرية (الرديدة) رفضوا أن يدفعوا ضرائب محاصيلهم، قالوا أكلتها الرياح وأسرّاب الجراد. التأنق في الجبة.. في العمامة.. في اللثام، في حذاء النمر الأسوي المرقط.. ووفد أوروبي من مجلس (الكاثوليك) جاء فجأة وتلقح بالأكاذيب ورحل. ومرسوم سري للغاية خرج من عند الأمير وتوجه إلى نَجَام وحده.. أن تعامل قائد كتيبتك كسلطان. وبالرغم من عدم ظهور أي أعراض من أعراض أمراض (الهيضة) و(الهبوب) واستسقاء البطن على السلطان ((رغد الرشيد)).. ولا بدا الجسد العملاق.. الحي.. الهادر.. المنغمس في المجالس.. في الحياة السرية، في توافه (مسكه)، على وشك السقوط.. لا بوادر لإنهاك.. لا مؤشرات لأزمات في الدم ربما تحدث بين لحظة وأخرى. وفي اجتماع سري للغاية أيضاً، ضم الأمير ونَجَام وحدهما، طلب رجل المهام من طبّاخه أن يعطيه تصورا لما سيحدث في مستقبل السلطنة.

تصور لما سيحدث؟

في الواقع كانت لدى الخصي رؤيا ملفقة، لفقها ليدخل، وكانت عنده نية فاسقة لدس السم في الدسم بعد أن دخل، ولا كان ثمة تصور آخر يعرفه.

لا أدري مولاي السلطان.. هو حلم رأيتُه وتكرر مرات عديدة، ولا بد أنه سيتحقق.. الرؤى عندي لا تكذب أبداً..

يحكي عن رؤى كاذبة شاهدها في شأن عدة أشياء وتحققت.. رأيت أمي تحتضر، وكانت قوية وفي عز الشباب، وماتت بالفعل.. رأيت أبناء اخوتي يضلون الطريق في الصحراء وكانوا حضراً لم يخرجوا إلى صحراء أبداً من قبل.. وبعد عدة أيام كانوا في رحلة للقنص وضلوا الطريق.. رأيت أبقار قبيلة (الداجور) كثيرة العدد تنفق كلها.. ونفقت بالفعل.. والآن أرى مولاي الأمير سلطاناً، وأظنه هو السلطان.

تعجبه الرؤيا أكثر.. تعجبه الحكايات الملفقة كلها، يتسم.. يضحك.. أسنانه أنياب ذئب، وجير أسود في آخر الأضراس يوحى بالعفن.. حسناً.. حسناً.. حاول أن ترى (مسك النساء) جارية تباع إلى واحد من الأفارقة السود.. حاول أن ترى السلطان (رغد) أسيراً لدى آكلي لحوم البشر في غابات (كورت ديفوار).. حاول أن تراني في المرة القادمة متصداً مجلس (الكوراك) أجيّب على نداءات الصائحين..

الرسالة الكارثة.. الرسالة الفجة اللغة، والمشاعر، والقادمة من (أم حراب) البعيدة.. يحملها الرعاع الطيبون.. الرعاع الذين يخرجون ويعودون ويمتلكون امتياز حمل الرسائل، وإلى نَجْم مباشرة في مطبخ الرميات، وفي الوقت الذي كان الغداء على وشك أن يعد:

(الصديق القديم نَجْم.. علمت بانضمامك مرة أخرى إلى الكتبية.. وأرجو أن تكون موفقاً.. وأنا يعصرني الأسى.. ويقتلني الحزن، أنعي إليك ابتكك، وصديقتك الرزينة.. نعم يا نَجْم.. يا صديق.. لقد ماتت

الرزينة.. ماتت من مرض مجهول لم يستطع أحد تشخيصه، ودفناها هنا في أم حراب وسط أهلها وعشيرتها.. وأبعث إليك بالتعزية والبكاء الحار).

البكاء.. لا بد.. الولولة.. لا بد.. تذكر الرقيقة التائهة في أحضان الأمومة، العائدة من انكسار الصياح.. الممسكة باليد بقوة في لحظة الفراق.. لا بد.. لكن الثبات.. الثبات.. المهمة المؤجلة لن تؤجل.. والغداء المميت على وشك أن يميت:

طبقك المفضل جاهز مولاي السلطان.. صقران من صقور (جرناس) وصلا لتوهما من حدود تمبكتو.. اصطدتهما بنفسي حين اقتربا من المعسكر، وتبلتهما بالثوم المنقوع في خل القصب كما تحب دائماً.. أتمنى أن ينال الطبق إعجابك.

يراقب اليد المتشابكة العروق تمتد نحو الطبق، يراقب الريالة التي اندلقت.. مشت.. سقطت.. الرعشة.. الثبات.. الرعشة.. الثبات.. الثبات.. الثبات.. فتحوا البلاد المحصنة بالثبات.. عبروا المحيطات هادرة الأمواج، والصحاري الوعرة واستكشفوا الأرض الغامضة بالثبات.. من أجل الرزينة.. الرقيقة.. الميتة.. المدفونة في ريف بعيد.. يعجبك يا مولاي؟

نعم يعجبني بشدة.

يراقب العينين المهووستين.. يراقب الشيع. الغازات.. التجشؤ.. يراقب ازرقاق الشفة حين ازرققت، واللسان الجاف حين تدور وأطل، والشهقة.. يحس بقطرات سائله الأصفر تبلل.. الثبات.. الثبات.. انتزع نفسه بقوة، وخرج برأس مرفوع، ليس الرأس القديم، ولكن رأساً آخر.. كان يود لو رآته الرزينة.

-18-

المساء الذي انكتب في (جوا جوا) في ذلك اليوم، هو نفسه المساء المطابق، والمنسوخ، والذي سينكتب كثيراً في أيام عديدة بعد ذلك. ومكر الهرمونات الذي حقق به (نَجَام البيقي) معجزة إقصاء رجل المهام الجليلة من شبق الدنيا وصياغة الدواب والتحوير، وأحلام عرش السلطنة، هو نفسه مكر الهرمونات الذي يحاول الآن أن يفلت به من توابع الدم..

(جوا جوا) الكثيبة، الصحراوية، الوعة المناخ، الخامدة، النائمة على جنبها في ساعات نشاط المدن، وخبها، وسعيها، هي نفسها التي سيلسعها النشاط، وتقتادها الحمى. حمى الرعاع المستندين على ركيزة طويلة مديدة، حين يفقدون الركيزة، حمى المسيطر عليهم لسنوات طويلة، حين تتأرجح السيطرة، وحمى العناوين الغزيرة التي جاءت تتراكم في إفراز الألسنة:

الأمير مساعد... مات.

- قتله واحد من الخصيان كان يعمل عنده.
- قتلته دابة متمردة مسننة الحوافر.
- سقط في حفرة كان يعدها كقبر لواحد من الرعاع.
- احتسى حساء جارحا لصقر ميت.
- تناول السم بإرادته يأساً من تعيينه وليا لعرش (أنسابة).

العناوين الغزيرة جداً، المتنوعة المتابع، من مستنقع الرعاع الكبير في أقصى ركن من أركان (جوا جوا)، حيث العزلة والضياح، وأغاني رداء الحظ في ليالي الشح، إلى حي (عظمة رغد) التنظيف والفاخر،

إلى حي (قرن الشطة) الحار، والمبهر، سوق الفخاريات، سوق التناقض، حي الرديم، ميدان شيع القوافل وجوعها، القصور.. قصر (واحة جوا جوا)، قصر (روح الأصيل)، قصر العزة، وقصر المسك، حيث أولياء الدم، سيرتعشون، سيجنون، سيصرخون:

- ولدي مات؟ رجل أمني مات؟.. مساعد القوي مات؟

يحاول الرشيد أن يستقيم كسلطان، أن يكي كسلطان، أن يشق جيب الحسرة الكبير كحاكم لتلك البلاد التي لا تعذر القوي إن ضعف، ولا تمنح الخضوع لضعيف حتى ولو قوي..

ولدي مات؟.. اسندني.. اسندني يا خصي.. اسندني يا دمدم..

اليد المرصعة بخواتم الترف، لا تحن، لا تعطف، لا تسرح بين الشعر المضفر، والجبهة الهرمونية، واللسان المتمركز في حلق الياس لا ينطق سوى الياس.. ولا (ذنوبنا على الأرض) التي كانت دائماً ما ترافق طقس التخفف من أعباء كرسي السلطنة.

مات؟ اسندني يا خصي.

مسك النساء، السلطنة الكاملة التزين حتى حين كانت أنباء حرب (كردمال) تسوء، وواحد من عيالها الصغار تلدغه عقرب، وأمها تموت بسكة الدماغ، لن تصنع الحزن إلا بالقدر الذي يبقها مكشرة بخيلاء، وباكية بدمعتين متغطستين.. في داخل الرؤية.. هي الدامعة.. الواقعة.. المحاولة كنس الحزن من قلب زوجها. في خارج الرؤية.. تافه.. حقير.. يستحق.. ومساعد الذي مات اليوم، لم يكن أبداً قريباً من احتمال مسك النساء، ولم تستطع تذوقه أبداً، وذلك ببساطة شديدة، لأنها لم تحاول تذوقه.. ومساعد الذي تحمل أنباء مصرعه الألسنة الغزيرة نفسه، لم يستطع تذوق مسك النساء ولا غيرها أبداً، وذلك ببساطة شديدة، لأنه كان بلا تذوق..

- تصبر يا رعد.. تصبر.. يا حبيب..

يمسكه آدم نظر- دمدوم بقوة الضد التي هي أيضاً من قوة الهرمونات. يزيلون أعضاء ثورتنا وانطلاقنا، وأسباب ذنوبنا، ويمنحونا طاقة الهرمونات. في داخله يحس بانتصار كبير لم يستطع أن ينتصره حين كان لابد أن ينتصر. يقوده عبر الغرف، عبر الأجنحة، وصلات لكز النظر المربعة.. مرايا زينة السلطانة لا تبدو قاحلة ولكن عاكسة لخيال مزين، لوحات الإيطالي مبتسمة وضاحكة، وواضعة ساقا على ساق، يسنده إلى الخارج المكشوف، حيث القاعة التي شهدت إشرافات حكمه ومخازيها، والمكان الذي رجته الصياحات وترجه، فتجابه أو تكسر، ورائحة الأمير نفسه، وهياج نظراته حين جلس وحين قام، وحين كان في صباح اليوم نفسه مهووسا ومزجرا يحكي عن عزمه إبادة سكان جبل بعيد لأنهم بالغوا في تمردهم.. مزعجان عندي.. مزعج يحمي.. يؤدي واجبه، ويتبع الإحساس، ومزعجة تبعثر، تفضح، تستورد المستشرقين ليرسموا الذنوب.

اسندني يا خصي..

يسنده وكتفا الرشيد في ساعة البؤس كتفا ناقة أقعدها المرض. كانت جثة الأمير مساعد، مسجاة على الأرض في وسط القاعة، وملفوفة بأعلام (أنسابة) الخضراء والوردية، الجثة التي اختطفها الرعاع على عجل من بين أنقاض مائدة الغداء الرهيبة.. صقران فاخران من صقور (جرناس) قدما لتوهما من حدود (تمبكتو)، البصل والثوم، وخل القصب، والريالة التي اندلقت، التي أغرقت. العنان المزرقتان والشهقة. أزاخوا الأعلام عنها وكشفوا الجسد كاملاً، يتأمل الرشيد.. اسندني.. يتأمل الهيئة التي ما تأملها أبداً قبل ذلك، ولا كانت ثمة ضرورة لتأملها. تماماً.. هيئة رجل آمن بمواصفات شمانزي كما قال وفد الكاثوليك.

مهلاً.. مهلاً

يتأمل الزي الذي كان غريباً بشدة عن بصر عينيه.. مهلاً.. التاج

الذهب.. عمامة الضباب السوداء القاتمة، جبة الحرير الخضراء المطعّمة بالعقيق النادر، اللثام الذي لا يُعرف إن كان من مخمل أم من حرير أم قماش آخر لم يقد إلى تجارة البلاد بعد.. حذاء جلد النمر الأسوي المرقط.. أفخر الأحذية التي تمشي على الأرض قاطبة.. الخنجر المرصع بالماس الذي يطل برأسه من الجُبّة..

ما هذا؟.. اسندني جيّداً يا دمدم..

زي السلاطين كله، وأكثر من كله.. كان كساء غريباً للجسد المسجى على الأرض.. زي السلاطين الذي ما ارتداه أحد إلا حين جلس وتسلطن، ولبى الصياحات، وباركته الجدات، وجاء الملوك وزعماء القبائل وقادة الجند لتأكيد عزته.. زيّ أنا.. زي نفر المقدم.. زي (تيراب علي).. زي (اليتيم).. ما هذا؟

يتأمل الرشيد، وتتسارع محفات حمل المغص، تحمل غازات من هنا إلى هنا.. أعراض ضيق من رئة إلى رئة، قطرات سائل أصفر من حالب إلى مثانة، وانسداد في الأنف من فتحة إلى فتحة.. من توج مساعد سلطاناً على (أنسابة)؟

يتراجع الأب المكلوم بغتة في الداخل، ليفسح المجال للسلطان.. ولا أحد كان يعرف..

(الرؤيا الملفقة، مكر الهرمونات حين تمكر، من حفر حفرة لأخيه، أُمي في عز الشباب، ماتت.. أبناء أخوتي ضلوا في رحلة القنص.. أبقار الداجور نفقت.. الجدات يرقصن، الطاهرات يطهرن.. الرعايا.. مكر الهرمونات.. يسلبون الخصائص ويمنحون الهرمونات).

يتأمل الرشيد.. يفكر كانت لي الأهواء نفسها وأبي نفر المقدم على كرسي السلطنة يعدل ويظلم. وتشابكت الأهواء حين ابتدأت أمراض (الهيضة) و(الهبوب) والاستسقاء تخب إلى جسده، وحين توقف لسانه حتى عن تقليب الطعام. ولكن أنا.. يتحسس عظامه التي قويت بشدة

وانفلتت من إسناد الخصي، يتحسس مواقع (الهزيمة) في أيسر البطن،
مواضع (الهبوب) في أيمنه، ومواضع الاستسقاء في البطن كله. يتذكر
الليالي الطاعمة التي اندلق فيها في أحضان مسك النساء وجواري حياته
السرية، بلا أكاسير، يتذكر الوقفات المستقيمة التي يقفها.. الأحرار
التي طارد فيها سلطان كردمال (هاشم درب)، اللسان العربي الفصيح
الذي تفاصح به أمام وفد (الكاثوليك) حتى انقشع.. ما يزال سلطاناً..
ما يزال..

الكبار الواقفون في صمت، يجمدون حين يجمد، يفعلون حين
يفعل، الجمهوريون يحمون الظهر، ولا يستطيعون حماية القلب:
احكم السلطنة يا (يوسف كرا).. احكمها كأنني مسافر.. كأنني
مرضت.. كأنني في الحرب.. كأنني مت.

يتلقف الجليل المهاب صوت سلطانة المجروح، يتوزع في مقاليد
الحكم كلها.. ثمة فراغ في الأمن يستدعي تدخل الجند:
عودوا بأربعة آلاف جندي من الحدود..

ثمة اشتعالات واختناقات، ومصائب بلا حصر في مستودع الرعاع..
دواب تفكك، مشاريع تحوير تضيع، خصيان يزمجرون، وخوف كبير
من انتشار الفتنة..

- ارسلوا ستة من ملوك الأرياف.. وظفوهم قادة مؤقتين.. حتى ينجلي
الأمر.

وثمة احتمال كبير عن تفشي مرض الطاعون اللساني في السلطنة،
كما كان يحدث دائماً عند أي بليلة.

وزعوا الأكاسير على الناس.. وزعوها.

السلطنة الآن في حال يرثى لها. أمنها، اقتصادها، تجارتها، قوانين
ظلمها، وقوانين حكمها: ألوان فرشاة (يوسف ضر) الذي رس
نابها طيورها، دوابها، عابيات صيدها، دروب قوافلها، عبيتها،

عقلاؤها، سحنة الأنفاس في هدير أنفاسها، عزتها، كرامتها، حرها، خريفها، ومجالس (كوراكاها)، والسلطان في جبتين كلاهما ضيقة. جبة الأب الذي فقد.. وجبة السلطان الذي كاد أن يضيع.. يتوزع سرحانه بين أعضاء مجلسه الكبار، ويد الهرمونات.. يد الخصي دمدوم، تعاود النشاط في إسناده، إيقافه، إظهاره (رغد الرشيد) الذي لن يكون إلا سلطاناً..

(لا يمكن أن يكون حرضه (يوسف كرا).. فهو أطوع لي من بناني.. لا يمكن أن يكون دوباجي.. فهو الحكيم المغفل.. صانع الأكاسير.. لا يمكن.. الترزي كردمان.. لا البرناوي.. لا لا يمكن أن تكون مسك النساء لأنها لن تكون مسكاً في عهده، وليست الجدة السحابة لأنها لم تحرضه هو، حين كان أبوه يفارق.. هل يمكن أن يكون العم (أحمد برم)؟ لكن العم يكرهني ويكرهه.. لا لا لو امتلك مفاتيح درء الضرر، لأعاده حيّاً، حاكمه، سألته، ونفاه بعيداً.. لكن..

- من قتله حقيقة؟

يستعيد جراءة الصوت، يمدده إلى الحاضرين والغائبين، الشوارع والناس، (جوا جوا)، و(أنسابة) كلها..

- من قتل الأمير مساعد؟

يقولون خصي اسمه نجّام..

وهل أعرفه؟

- نعم يا مولانا.. لقد عمل في قصركم من قبل.

نجّام.. نجّام.. المتعجرف، كبير الطهارة الذي كنسته مسك النساء لأنه أسرف في الملح يوماً.. البقي الذي لا تبته حناء يده أبداً، الذي تجرأ على استخدام مرطبات القصر.. قد يبدو مغفلاً.. قواداً.. ولكن ليست في وجهه تدابير قاتل.. وقاتل لمن؟ لرجل أمنٍ كان يتبع الإحساس.

كانوا قد شرعوا في إجراءات تجهيز جثمان الأمير للدفن، صبوا أكاسير تنظيف الجلد، وأكاسير إزالة الشعر، ورشوا غبار (الهلجيج) المر على كل شبر في الجسد، إخفاء لرائحة الصقور التي كانت تحلق، خرج المنادي الرسمي ليطوف بالشوارع، ناعياً إلى الأمة الأنسابية رجل المهام الجليلة الذي رحل في عز الشباب، وكامل العطاء، المنادي الذي طالما تمت (الرزينة) سماع ندائه، ولم تسمعه. نُكِّست أعلام (أنسابية) الخضراء والوردية، وعلقت مجالس (الكوراك) إلى أجل لم يسم، وأعلنت حالة من حالات زعر السلطنة عطلت فيها حتى الزواجات والطلاقات، وكامل إجراءات الحياة المدنية.

جاءوا بنجّام البيقي ثابتاً، ومتأنقاً، وكامل الكحل وحناء الأصابع، عثروا عليه على ظهر ناقة فارهة كانت تشقّ الوحل في طريقها إلى قرى (التنجر) على مسافة ستة أيام من (جوا جوا)، أدخلوه على السلطان رغد الذي كان الآن في مرحلة طرد الذكرى، وإزاحة الكابوس، والتفكير العميق في تدريب خلف جامد الوجه، ليسد الفراغ العريض في لم الفوضى الذي خلفه الأمير مساعد. وقد كانت تركة الرعاع ثقيلة وكاتمة للنفس، وأولئك الستة الذين أرسلوهم وإن أفلحوا في التهذئة، إلا أنهم لم يفلحوا في إخماد النار بعد.. كانت مشكلة الرشيد تلك الأهواء.. أهواء أبناء السلاطين حين يمتلكون ما يدعم الأهواء.. ولكن كم بقي في العمر لنخاف من صبي؟ كان يقول ويجيل البصر في عياله الآخرين.. كم بقي؟.. وكان دمدوم موجوداً في كل تلك النقائص، والآن بالذات يقسم بأنه أقرب الناس في (أنسابية) كلها إلى قلب الرشيد، ولدرجة أن خيالات الأبوة الشيخة قد عادت لتلعب به من جديد.. لم لا؟، وهو الآن يملك الهرمونات، وقريب من البؤرة، وأسند السلطان في محنة لم تكن لتمضي بلا يد قوية لتسند.. وفي قراءته المتأنية لوجه الشيخ (يوسف كرا)، تلك التي قام بها أثناء انكتاب تلك الفاجعة، خيل إليه أنه

يقرأ الغيرة، يقرأ الحسد، وأحس بالفعل وفي عدة مرات خاطفة أن اليد الهرمونية الكبرى للأب الشيخ، حاولت إزاحة يده عن كتف السلطان، واحتلال مكانها. وكانت تلك اللحظة الغريبة حين نطق السلطان.. أبي الشيخ، وكانت نظراته عنده هو، وليست عند (يوسف كرا)، لكن هلوسة المخدع السلطاني بعد ذلك، كانت أجل.. والعرق الذي انفجر في أعقابها كان أعظم. قد نصلح ذنوبنا على الأرض.. قد نصلحها في التو والحين.. وكانت تلك هي جملة السلطان التي دخل بها دمدوم إلى قلبه.. ذنوبنا على الأرض.. ذنوبنا يا مسك.

ألقى السلطان بإبصاره كله على نَجَام:

- هل تحبني يا بقي؟ هل تحب (أنسابه)؟

- نعم أحبك.. وأحب وطني.

الثبات، مكر الهرمونات، وخطة الإفلات من التهلكة الآن تتبلور، أعادوه من الطريق إلى قبر الرزينة، كان يريد أن يبشرها، يخبرها في حفرة الأبد أنه حقق لها حلما طالما تمتته.. والآن أخوها واقف أمامه.. مثله تماما.. ولا يعنيه في شيء أكثر من أنه الأخ الذي تلف والأخ الذي أتلّف العائلة كلها بعد ذلك.

إذن لماذا عرّيتني هكذا؟.. لماذا نزعْتَ سراويلي في وسط شعبي؟

يردد الرشيد، ويحتد، وينكمش الحاضرون، ورغبات ملحة في اللاشعور للدقّ النظر إلى نصفه التحتي، والتحقق من كيانه العاري.. الأمن هو المستر، وانعدام الأمن هو العري كاملاً.

من أجلك مولاي الرشيد، من أجل (أنسابه) كلها.

تعمل الهرمونات بمشقة، والليلة ليست كالبارجة، طبق جرناس المعتبل بالخل والثوم، والسم، كان أسهل لأنه أعد لاقتناص صقر، وطبق حب الرشيد الذي يحاول الآن تتيّله، بخُل وثوم أخوين، يبدو شديد الصعوبة، الطبق الذي قد ينجو به.. وقد يهلك.

كيف؟

يصرخ الرشيد..

- نعم مولاي الرشيد، كان مساعد يريد اقتراسك، يريد إقصاءك عن العرش، يريد أن يذبحك بخنجره، وأوشك بالفعل أن يتحرك لولا أن تصرفت في الوقت المناسب وقتلته بالسم. مولاي.. لقد أراد تعييني أباً شيخاً ولم أقبل، أنا مواطن شريف أحب وطني، وسلطاني ولا يمكن أن أخون، هل رأيت ذلك الزي الذي كان يرتديه؟ لقد استورده في غفلة عنك.. وتلك الهيئة التي مات بها، هل كانت هيئة رجل أمن يحمي؟

يقول نجّام، ويلقي بنظرة الهرمونات على الحضور كلهم، الأب الشيخ (يوسف كرا) يرتعش، التريزي كردمان يبدو مفكراً، المفتي بلا فتوى، والحكيم دوباجي يفتش في جيوبه عن المزيد من إكسير ضبط النفس لضخه في حلق السلطان عند الطلب، وذلك الضحية (دمدوم)، ما باله؟.. يده على كتف السلطان لا تتزحزح، وشيء من غرور أو انتشاء ينط إلى تعابيره حين جاء ذكر (الأبوة الشيخة).. يكون تافهاً بحق لو كان ما يزال يحلم.. ويكون أتفه لو علم بموت أخته، ويحلم.

(بالفعل لم تكن هيئة رجل أمن يحمي.. يفكر السلطان.. الذي يحمي لا يتبع الأهواء، يأتي قاحلاً.. يأتي مشرداً، يتوزع في الشغرات، يسدها كلها، ولكن ليس أبداً بتلك المخصصات التي هي مخصصات السلطان وحده.

الم يكن ثمة طريقة أخرى يا بريقي؟ إخباري بالمسألة مثلاً.

- أبداً يا مولاي.. كان الوقت ضيقاً جداً.. ولم يكن ثمة مفر.

يهوي السلطان برأسه إلى الأرض، يرفعه:

هل تعرف الطريق إلى كردمال أيها الخصي؟

- نعم يا مولاي.. لقد شاركت في الحرب الأخيرة.

- إذن إلى كردمال.. إليها عاجلاً قبل أن يخنقني أولياء الدم. أنا تنازلت عن ثأري، ولكن لمساعد أخوان وأخوات، وعمات وخالات. له سلالة يوسف ضو كلها وما أستطيعه الآن قد لا أستطيعه غداً.

دفنوا الأمير مساعد في قبر أصر الرعاع على حفره بأنفسهم، وتوسيعه حتى يرتاح الجسد جيداً، وكانت ثمة جنازة فاخرة أقيمت، وبمشاركة الجدات اللاتي كانت مشاركتهن هذه المرة أيضاً استثنائية وبناء على رغبة الرشيد، لأن لا أحد سوى السلطان تشارك الجدات في مراسم دفنه.

لم يصدق (البقي) أنه نفذ.. وأنه طليق، ويمتلك ساقا الفرار، وقرار السلطان بنفيه.. كان خائفاً أن يشي به مساعدو الأمير.. أولئك التنظيمون الذين يعرفون أمر الرؤيا الملققة، ونقلوها إلى قائدهم، لكن ذلك لم يحدث، ولا أبصر واحداً منهم في مجلس السلطان. انفلت في طريق كردمال لا يلوي على شيء، وكان أكثر ما يحز في نفسه أنه لم يستطع أن يصل إلى أرض التنجر.. يبكي على الرزينة أولاً ويبشرها ثانية بأنه حقق لها أمنية غالية. المنادي الذي يصرخ في (جوا جوا).. معلنا وفاة أمير جليل بالسم.

-19-

جلس (آدم نظر) مع السلطان (رغد الرشيد) في قاعة الحكم الوردية في قصر (المسك)، كانا بمفردهما بعد أن صرف الرشيد (ظهورييه) وأعضاء مجلسه، وكانت قد مرت أربعون يوماً كاملة على وفاة الأمير مساعد، ونفي الخصي (نجّام اليقي) الذي سممه، إلى أصقاع (كردمال).

(أربعين الإفاقة) كما سماها الرشيد، وعمم تسميته تلك في كل مناطق السلطنة، مدنها، قراها، جبالها ووديانها، وحتى تلك المناطق التي ما كان يتردد اسمه فيها إلا نادراً. كان يسعى إلى غرس تقاليد حكم أخرى غير تلك التي كانت مغروسة من قبل، تقوم على سلطة الحب أولاً، سلطة الاستمالة، إلى خلق شعب سلس كالماء يجري من حوله. لم تلغ كتيبة الرعاع كما كان متوقّعاً بشدة، ولم تعاد الدواب الفقيرة إلى ذوبها كما دلت الأيام الأولى من أربعين الإفاقة، وأعمال التحوير والتدوير، وزرع الكحل والصفائر، وإن كانت قد علقت قليلاً، إلا أن أدواتها لم تبرح تلك الجحور، وبقيت صامدة، ومستعدة لاستئناف العمل في أية لحظة. وكان قد عُين لاحقاً واحداً من الأمراء الصغار قائداً لكتيبة الرعاع، ولد للرشيد من أم (فولانية)، وقائد صوري يسنده أربعة ملوك ريفيون عملوا في صحبة (مساعد) سنيئاً، ويعرفون الكتف ومن أين تؤكل. وكانت مهمتهم هي إمساك الخيوط، ترتيقها، وإبصالها طويلة وقوية إلى يد الأمير ليشدها. والشئ الوحيد الذي كان ملاحظاً بصدق، ولعله المبهج، هو تلك العادة الرهيبة التي انتهت بانتهاه مساعد، عادة الركوب على ظهر دابة فقيرة، كانت في يوم من الأيام مواطناً أنسابياً.

في غارات مدهامة المهريين والسحرة، في زيارات الأحياء الخاطفة، في السوق، في الشهيق والزفير، القائد الجديد لكتيبة الرعاع ومساعدوه على دوابهم، والعيون تراقب، تهبط إلى مستوى الحوافر وتراقب: ليسوا آدميين.. ليسوا آدميين.. بشرى خير، يتحدث الأنسابيون في الطرق، والأسواق، ومجالس الرغي الليلية.

كانت الإفاقة أولاً في الذات، تنظيفها من غبار شفقة كثيف، فتح باب جديد، فرش ملاءة على عطف عار. والحذر من الأهواء كلها. أهواء الأبناء إن قويت عظامهم، وامتلكوا المسامير التي قد تدق في النعش. أهواء المقربين إن اقتربوا بمسافة تسمح بإحصاء العيوب، وأهواء النساء إن دخلن بفتنة الوجه، وبقين بفتنة الامتلاك. وحتى أهواء الفقراء والبعيدون إن لم يعجبهم الفقر، أو البعد. تنظيف السلطنة كلها من أقصى أقصائها إلى أدنى أدانها، تنظيفها من جيف الحسد، وسحر السحرة، ومن الكلام الذي يجرح كالمبراة. الأرامل اللائي قد يجئن، ويصحن طلباً للقم العيش، وأعينهن على قصر المسك في أعماق دهاليزه.

(لن تتكرر تجربة ولدي مساعد حين امتلكت الأهواء قلبه، ولا تجربتي أنا حين أرخيت شهوتي لصوت أرملة لبائع حلوى لزجة وقذرة).

الآن تم استحداث كرسي في مجلس الحكم السلطاني، هو كرسي تتبع الأهواء، وله صلاحية تتبع الرعاع أنفسهم، وتتبع أواصر الدم، ومراقبة السرطانات التي قد تنمو فجأة في أماكن السلطة الحساسة. وكان أغرب ما في ذلك المنصب أن أحداً بعينه لم يوضع فيه، وظل هكذا كرسياً شاغراً، ومسنناً، وقابلاً للكثير من نسج الأقاويل، ومهاباً بإحساس المعنيين بالأمر أنه يراقبهم خلصة.

وكانت من إشرافات أربعين الإفاقة، تلك الزيجات الجماعية التي عقدت لكثير من المعسرين، وأرامل الشهداء والطلقات، وبدعم مباشر

من السلطان، وأيضاً بمباركة من مجلس الجدات الذي كان دائماً ما يسعى إلى الطهارة. والأجل من ذلك كله أن الرشيد جمع خصيان قصر (المسك) كلهم بما فيهم آدم نظر - دمدوم، وجواريه كلهم بما فيهم اللائي قدمن للخدمة حديثاً، وبعد مشادة كبرى مع السلطنة خرج منها وقسم الطلاق على لسانه، يكاد أن يخرج. جمعهم في إحدى قاعات الفرجة الكبيرة، والتي ما كانت تطرق إلا لدواعي التنظيف أو ترتيب الوسائد:

جميعكم أحرار في اتخاذ قراركم، من أراد أن يبقى معنا، أهلاً به وسهلاً، ومن أراد أن يرحل، فطرق القوافل كثيرة.. التي إلى مصر، التي إلى تمبكتو، التي إلى اليمن، والتي إلى الحجاز. لن نبيعكم إلى أحد، وقد نشترى غيركم إذا رحلتم.. فما دامت توجد سلطنة.. فلا بد من أحد ليعخدم. اتخذوا قراركم.. اتخذوه والآن فوراً.

لكن الخصيان كانوا جثثاً، الأنسابيون منهم، كانوا بلا شرف يعودون به إلى ذويهم في (جوا جوا) أو الضواحي، أو تجمعات القبائل البعيدة. والذين هم من خارج السلطنة، كانوا بلا خطط يذهبون بها، وبلا أهداف دينوية، تقفز بهم من بلد إلى بلد. الجواري تغامزن، وتلامزن، وقد رن أسعار أنفسهن لو بعن تلك الأنفس إلى مشترين، وقد فضل بعضهن الرحيل، وبقي البعض الآخر لا يريد أن يذهب.

كان (قلوب المسلاطي) من بين الخصيان الذين استشيروا في اتخاذ قرارهم، كان في تلك الأيام في أشد حالات بؤسه انحطاطاً، وبعد أن عينته السلطنة مسك النساء مريباً لواحدة من ورود (الكيالا) النادرة، والتي اشتريتها من إحدى القوافل التجارية. كان يسقي عطشها النهم بلا توقف، يحركها للضوء كي تضيء، يعود بها إلى الظل كي تستظل، يرقدها في أحضان صدره الهرموني، ويوقظها في الصباح الباكر مغسولة الوجه، تتلقى القبل من (مسك النساء). مل رائحتها، مل طعمها، وتأذى كثيراً بأشواكها الناعمة التي كانت تنام في صدره.

في تلك القاعة الكبيرة، وحين ألقى السلطان بطوق النجاة المتآكل الحواف ليلتقطه أو لا يلتقطه أحد، تحدث قلوب باكياً:

مولاي السلطان.. لو رحلت بلا مال ولا هدف، قد أموت. ولكن لو باعني جلالتكُم إلى تاجر يعرفه، ويوصيه علي، ربما أحس ببعض الجميل.. بعني يا مولاي.. أرجوك بعني. لا أستطيع البقاء هنا.. لا أستطيع العودة إلى ديار المساليط ليراني ولدي هكذا، ولا أستطيع أن أذهب دون هدف.

كان مسكيناً جداً، وفي لحظة انحدار المعنويات من أعلى شجرة (هجليج) في السلطنة، إلى أعرق هاوية من هاوياتها. ابنه لا بد قد كبر والآن يتعلم الخط والقرآن، ولو بيع إلى إحدى قوافل الحجاز التي يرتبط سادتها بود مع السلطان رغد، لربما عاش طاهراً، أو مات طاهراً. قلنا لا بيع ولا شراء يا قلب الأسد. اذهب إلى الحجازيين في مهبط القوافل ولا أظنهم يردون مستجيراً.

ألغاه السلطان هكذا نهائية بلا رجعة، رافعا يدا مزمجرة، وخافضاً لأخرى أشد زمجرة.

في ذلك اليوم بالذات، غادر قلوب قصر المسك إلى الأبد، باع كيانه المسكين بدراهم مسكينة إلى تاجر حجازي كان في (جوا جوا) يشتري ويبيع. راقبه (دمدوم) وهو يمضي حاملاً قفة من سعف أشجار (الدوم) فيها خرق وزاد قليل، ونبعت في عينه دمعة.. الدمعة التي كان لا بد أن تنبع لفراق قلوب القديم الذي كان رفيقاً ذات يوم في ذلك المستنقع الرهيب.. التفت ليقول شيئاً، ولم يقل.. ولعلها كانت وصية، أو كان اعتذاراً عن أشياء حدثت وما كان يجب عليها أن تحدث. وفي أحد الأيام وعن طريق إحدى القوافل الحجازية وصلت إلى دمدوم رسالته التي لم يكتبها لكنه حملها لأحد المسافرين، وكتبها المسافر على أذن جارية من جوارى قصر المسك كانت موجودة في مهبط القوافل:

عزيزي دمدمو.. لا تلمني أرجوك.. لا تلم صديقا يموت في أرض بعيدة.

جملة باكية ومبكية، تلقاها دمدمو من فم الجارية وانكفاً على وجهه.. لن يلوم قلب الأسد.. لن يلومه أبداً، الذي كان يتحرش به، كان يتحرش من غم، والذي أساء إليه، أساء بضغينة ليست من صنعه ولكن من صنع النصيب. لو كان يملك دمعاً أكثر، لحلبه كله، ولو كان يستطيع إعادة الزمن إلى نقطة البدء.. نقطة التحوير، لأعاده. أعاد قلوب قلبا للأسد.. يسرق الفئران الكبيرة.. يضرب زوجته، ويحمل ولده على الظهر.

وحدهما، وقاعة الحكم تبدو مختلفة الآن، أزيلت عشرات السيوف والخناجر من أماكنها على الحوائط، وعلقت مكانها رسوم مرتجلة لحمايم السلام، تحمل بين مناقيرها الغصون الخضراء. استبدلت وجوه الجاريات التي رسمها المستشرقون فيما مضى، بوجوه محلية فيها مزارعون ورعاة وحطابون، وأطفال في سن المهد والرضاعة. وفرشت على الأرض في ذات البقعة التي كان مسجى عليها جثمان الأمير، أبسطة من جلد الماعز، معالجة بفن. اليد العارية الآن من خواتم الترف، تسرح بين الجبهة وخصلات الشعر المصففر، واللسان لا يستغفر ولكنه يتساءل: هل تحقد علي يا (آدم نظر)؟

من حقه أن يحقد، ليس على (رغد الرشيد) فقط، ولكن على كل واحد في سلطنة (أنسابة) ينتهي اسمه بيوسف ضو، فليس الذي حدث لأسرة صانع الطبول أمر هين. الحاج الذي لم يحج أبداً.. الولد الذي هو الآن ضد وضده، وبقية الأسرة التي لن يعرف أبداً مصيرها حتى لو لفظ من خدمة القصر.

- أبداً يا مولاي.. إنه النصيب.

صدقت.

رددها الرشيد وشيء في لسانه ينكرها بشدة، النصيب موجود

بالطبع، ولكن ما أسوأ أن تحكم بالأذى وتورط النصيب.. اليد الآن يد أب حقيقي، تنزه في مفردات قطعة منه، لو كانت في أربعين الإفاقة ثغرة واحدة لرد هذا المسكين إلى حياته، لأدخله، ولكن الطباق مكسور.. ومكسور إلى آلاف القطع:

أكافئك يا صبي.. أعينك ظهورياً في كتيبة حرسى... هل تقبل؟
الخطوة الملائمة في مشوار الحلم القديم.. يفكر دمدوم بصعوبة،
ظهوري في كتيبة حرس السلطان، ما هذا الشرف غير المنطقي.. وهو يعرف والسلطان يعرف أن تلك الوظيفة ليست لأمثاله:
أتشرف يا مولاي.. ولكنني خصي.. ودستور (أنسابة) لا يسمح، هل نسيت جلالكم؟
فليكن.

زجر الرشيده بحدّة.. وعضلات شبيهة بعضلات الصائحين انتشرت على رقبتة..

- فليكن.. ما زلت سلطان (أنسابة) الذي يملك الاستثناءات، ومثلما صارت المغنية الفقيرة جدّة في مجلس (السحابة)، يصير الخصي ظهورياً في كتيبة السلطان.. والآن اذهب لتتدرب.. اذهب..

كنسه بإشارة مباغته خرج على إثرها يتخطى. مؤكداً أن السلطان في واحدة من لحظات انعدام الفطنة التي تحدث أحياناً تحت مساءلة الضمير. والخصي الهرموني لا يمكن أن يكون ظهورياً أبداً.. ومهما تدرب فلن تكون حمايته للظهر أكثر اتقاناً من عجنه للحميض، وطحنه لأرانب الذرة والقمح في قصور الترف، مؤكداً أن مساءلات الضمير لا تجلس عند السلاطين إلا فترة قصيرة تقوم بعدها، وتذهب دون عودة، مؤكداً أن الغد القريب يحمل في طيه تراجعاً ناضجاً عن قرار غير ناضج، تلك الترقية الغريبة لخدام إلى ظهوري.

تدرج دمدوم في مشيه حتى وصل إلى أكواخ الظهوريين التي كانت

ملحقة بقصر المسك، وتسمح لشاغلها بالوجود الوقح حتى في مخدع السلطان، متى ما نادتهم الوظيفة. يعرف (عجيب تمبولي) الظهوري الذي كان من قبيلة التنجر، قبيلته، ويحتفل تلك الأيام بمرور أربعة عشر عاماً قضاها في حراسة السلطان. في أيام أربعين الإفاقة، كان النظام في قصر المسك قد تهلhel، وكان من الممكن لخادم عادي أن يتسلل في الليل باحثاً عن (جوا جوا) التي يسكنها ولا يعرف وجهها الحقيقي، ومن الممكن لجارية سيئة تغذية الجسد، أن تعثر على قليل من التغذية في شوارع مظلمة وضالة، ومن الممكن جداً لخصي مثل (آدم نظر)، أن يمضي بلا حذر ليلا مسأكواخ الظهوريين التي كانت ملاستها جزءاً هاماً من ممنوعات قصر المسك الكثيرة والمتشعبة.

لم تكن المرة الأولى التي يزور فيها (تمبولي التنجري) في أثناء ليل عادي أو غير عادي، ولكنها الأولى وداخل الذهن حروف عبدة تتشوق إلى الحرية، ولوحات رسم باهتة الألوان، تسعى إلى إكمالها. (أنسابة) كلها تعرف حياة الظهوريين التي لم تكن أسراراً خافية، ولن تكون. أهل النعمة غير المنغمسين في الحياة الصعبة، ولا المبتولين في أحياء الفقر، ولا ضعاف الأنفاس الذين يلتقطون الشهيق مؤلماً، ويردون الزفير أشد إيلاًماً. وهم المأخوذون من أئداء أمهاتهم صغاراً، ليربوا في المحيط السلطاني، ويأشرف غريب الأطوار يشرف حتى على نوع ابتساماتهم، واختيارهم للعواطف. لا فرح إلا ذلك الذي يلح في وجه السلطان، لا حزن إلا ذلك الذي ييكبه، ولا فقد ستهتز له الدنيا يائرها إلا فقد سلطان في أثناء سيره أو احتفاله، أو تلقيه للصياحات. وبذلك الرماح المسننة من العواطف، وتلك الإبر الحادة الأطراف، كانوا يتدربون، يتدربون على الموت.. في نار تشتعل، في مرمى سهام ترشق، في أحضان سيوف خارج أغمادها، في حفظ روائح السموم بأنواعها كلها، وحتى في التعرض للصواعق في خريف (أنسابة) الجليل. وحين يخرجون في رفقة السلطان

لا يتسمرون في الظهر فقط، فهم في الظهر، والأمام، وفي الجانبين، وحتى تحت الجلد إن دعت الضرورة. تغنى الفتيات في حب الظهوريين أغاني تذيب القلب، يتطلع الصبيان إلى عز الظهوريين منبهرين، وتفصل الثياب الرخيصة وعلى واجهاتها رسوم لظهوريين يحمون رمز (أنسابة). الظهوريون لم يكونوا رعاعا، هؤلاء ليحموا مباشرة، وأولئك ليحموا ولكن من بعيد. وطوال وجود تلك الفئة، والتي كانت المحاولات تجري باستمرار لتجربتها من غرائز الجسد، في تلك الأكواخ المحيطة بقصر المسك، كانت ثمة شكاوى، وثمة روائح غير مستحبة، وأحداث تجري حين يغمض الليل عيونه، وعشرات الحكايات عن تسللهم إلى الدواخل المخفية في قصور الحرير، وتنزههم في القلوب الغضة التي تتآكل في تلك الدواخل.

كان (تمبولي) ساهراً، وعلى نكهة البن، كان يجهز ثوبه، ولثامه، وخناجر الخدمة لارتدائها في صباح حراسة السلطان. وعلى ضوء الفانوس الهزيل الذي كان يعطي لخياله المرتسم على الحائط فخامة غير اعتيادية، بدا الفرق واضحاً لدمدم. فرق العضلات المفتلة، والهرمونات المميعة، وجه النمش الغزير الشارب، ووجه اللمعة الذي بلا شارب، بطن الغازات الزاحف إلى الأمام، وبطن الضمور المضموم في الجسد، حوض التحور الواسع، وحوض الخفاء الذي لا يبين. جلس على حصير ملون في أرض الكوخ، وبذاءة المقارنات لا تفارق الذهن أبداً، يريد الرشيد تنقية ضمير قد تبقى شوائبه لاصقة إلى الأبد، ويكافئه بضخه ليتنا وسط تلك العظام الصلدة، الذي تدرب على الخوف، الانحناء، تنسيق الحداثق، عجن الحميض والذرة، ومرارة (الهجليج)، وتقديم ماء الورد مهيجاً، ومرطبا، وأيضاً مخدراً للحواس، لا يحمي سلطاناً يحتاج تمبولي وخياله الكبير على الحوائط، واسمه في أغنيات البنات، الظهوري الحق، لم يقرأ حظاً تالفاً.. كما هو إلى الأفضل، لم يصنع حساء جارحاً، لم يتلق صفة من

أحد، ولا كان صاحب الوجه الذي تشوه من البصق. يستطيع الحياة متى ما تقاعد، لأن أشياءه العزيزة لم تسقط، ولا يستطيع مائة تاجر حجازي شراء بتلك الدراهم المسكينة التي باع بها قلوب عمره.

يسأله تمبولي وفي يده قدح بن يتصاعد منه البخار:

هل من مشكلة يا دمدوم؟

لا أبداً.

وهذه التعاسة على وجهك؟

تمبولي يقرأ التعاسة الصغيرة والثافهة والمحملة على الوجه، ولا يستطيع أبداً أن يقرأ التعاسة الكبرى التي هي مقرها القلب. يتجرع البن في صمت، ويراقب الهيكل الظهوري في استطلاته وتضخمه على الظلال، الآن يتحدثان عن قبيلة التنجر، عن العادات والتقاليد والمخازي، وأنواع الحشرات والزواحف التي ترافق الخريف دائماً، يحكون عن أسماء تنجارية لمعت وانطفأت، وعن الفخر الكبير الذي حققته القبيلة حين انفردت بمعالجة فراء الثعالب المعد للتصدير، كان تمبولي يحاول العثور على خيوط غير محرجة تقربه من ذهن ولد من قبيلته حوزة النصيب، ويحاول دمدوم أن يتعد قدر الإمكان عن الدروب التي قد تؤدي إلى إهائته وانكساره. تحور ولكن لم يمت، وما دام لم يمت، فليعش. يمضي الليل عادياً، ومثل أي ليل، والنقاط كلها، على الحروف كلها، ووظيفة المجد التي تفرض عليه الآن، ولا يستطيع رفضها، تساهم في إيقاد التعاسة. قد يستطيع ملئها، ليس كلها ولكن ربعها على الأقل، ربعها الذي قد يكنس قليلاً من شوائب الضمير التي أراد السلطان محوها بالكامل.

جمعة (الكوراك) الأولى بعد أربعين الإفاقة، والتي أمر الرشيد فيها رفيقه، وسنده الجديد (دمدوم) أن يخرج إلى ساحة الصياحات المواجهة للقصر، يختلط بالصائحين، يرج صوته ويصيح مطالباً بضمه إلى فصيل الظهوريين، حماة السلطان من كل سؤ وفي أي وقت. كان يريد أن تعرف (أنسابة) كلها أن ثمة خادماً خصياً قد تعدل وضعه، وثمة آخرين قد تُعدّل أوضاعهم، ويرتقون إلى مجد محتمل لو أحسنوا التصرف. يريد في حمى لسعات الضمير، وحمى الغسل التي انتابته أثناء أربعين الإفاقة أن يرى الجميع بساطاً كربه الرائحة يغسل أمام أعينهم، ودماً متخثراً بشدة، يُزال تخثره، وبغض النظر عن لوائح السلطنة التي يُكلّف المستشارون بإحكامها باستمرار، ويملك هو الطرق التي تخترق ذلك الإحكام.

لم يكن دمدوم مقتنعاً بالفكرة. فكرة أن يخرج إلى ساحة فيها آلاف العيون والأذان وأنوف الشم، التي قطعاً تعرفه، ورأته وشمته، وتميز اسمه وصوته القديم. وربما أيضاً يمت بعضها له بصلة القرابة، في هيئته المحورة تلك، يخاف ضوء الشمس، ويخاف أن يحمل الهواء المسنن إعياءه إلى أماكن لا يريد أن يصلها الإعياء، لكن أمر السلطان كان أمراً، وتنفيذه حادث لا محالة.

كانت إجراءات فصله عن قصر المسك وإسكانه في واحد من تلك الأكواخ التي تخص الظهوريين، قد بدأت بالفعل، ووسط جو كافر، وتافه اللغة، ومسّن الكلام بين السلطان رغد، والمرأة التي تحكم الداخل المخفي للقصر، حيث من المفترض أن يأتي السلطان رجل بيت فقط.

ويغادر رجل بيت فقط. كانت ما تزال تحت تأثير غسيل ماء الورد وتوابعه التي تقسم أن دمدوم كان أبرع من خاض فيها.. أبرع من ينظف، أبرع من يكسر القسوة، وأبرع الذين يلبون الحاجات وهم نائمون. ومن أجل هذا كنست الجارية (سلافة) بيعها، وكنست جاريات أخريات إلى الطرق. وقد تكنس المزيد فقط فليبق دمدوم. أبرها الرشيد بجاريتين فارهتين وصلنا حديثاً إلى (أنسابة)، وخصي جديد أيضاً كان قادماً من نواحي بلاد الزنج، وعد بتغيير أثاث خشب الورد، وقماش الستائر، وكاد أن يعدها بجلب رسام الذنوب الإيطالي لرسمها مرة أخرى، لكن وجوه وفد الكاثوليك نطت إلى ذاكرته.. من يدري، قد يرسم ضياعاً أشد، وقد تأتي هذه المرة جماعات حفظ النوع والرفق بالحيوان، وربما جاءت الجيوش المحملة بالبارود لتقضي على (أنسابة) تماماً.. عندنا من الأعباء ما يكفي.

رضيت السلطنة على مضض، لكن شيئاً قفز من نظرات عينيها، وتوجه إلى الظهوري الجديد، وكأنه أمر..

تتبع عيون الليل حين تغمض، تسلل خفية.. تعال.
أظل (الهجليج) بعادة الظل التي يتقنها، امتلأت الأزيار الفخارية بعادة الامتلاء نفسها، وتلملم الأنسابيون لا ليصبحوا بحاجاتهم فقط، ولكن ليلتقطوا أي تغيير قد يكون استحدث بالفعل في جمعة (الكوراك) الأولى بعد أربعين الإفاقة. كان ثمة خصيان بلا عدد، أولئك الذين كبروا في العمر والمأساة، وما عادت تضنيهم تساؤلات الطرق، ونظرات عدم الاستحسان. ثمة أولياء أمر لدواب محجوزة في مستنقع الرعاع لم تبرحه، أطفال أوفياء يسألون عن أب، وبنات صغيرات بصفائر الخرز يسألن عن حلوى. ثمة زخم مبرر وغير مبرر، الناس من حي الريم يتوقعون أن يروا حدثاً قد يهم الحي، من بلاد التنجر والفلواني والداجور، يتوقعون قيامة قد تقوم، من المساليط، من عين صقر، وحتى من سلطنة كردمال التي تخضع الآن لسلاطين (أنسابة). العيون التي

تتقدم وتتأخر، التجشؤ، قرص الجوع، احتمال الثروة، احتمال الكساد، وكل شيء، وأربعين الإفاقة قد انتهت بعد أن أفلق الجميع على موت رجل يكرهونه، ويفيقون الآن على تمدد جمعة يعشقها الجميع.

السلسلة السباعية تنظم.

الحاجب المجدد ينظم.

الجليل الأسطوري يهبط من فرسه الأسطوري، ودابة من جنس الدواب تقف، ويهبط من ظهرها رجل المهام الجليلة الجديد. ليس هبوط الأمير مساعد، ليست رائحة السلوك والأخلاق، ولا نظرات الصقور المهووسة، ولا تلك الخطوات المريعة التي يفر من إيقاعها حتى الوحل. مساعد فصل للرعاع، والجديد ربما فصل لمهام أخرى، ولا يعرف أحد فلسفة الرشيد التي ألبست صبيّاً ثوباً هو في الحقيقة ثوب عائلة كاملة.

- السلطان في مجلسه ويتلقى الصباح.

كانت (حرة المسلاطية) زوجة قلب الأسد الذي تحور إلى قلوب، قد بدأت الصباح هذه المرة أيضاً. سبعة أعوام رزيلة مضت منذ أن صاحت بالطفل الأجرب، والحواجب المنتوفة، وألغت من صنف الرجال زوجا ربما كان عادياً جداً حين سرق وحين ضرب ودلق الطبخ، وحين استولى على شبع الغير حتى يشبع. الآن تبدو (حرة) أخرى، ثيابها ممزقة بصدق، حاجباها متوفان بصدق، وحبل من التيل يرقع حذاءها حتى لا يتبعثر في الطرق، وكان يتبعها صبيها الذي كان صغيراً فيما مضى وكبير، يسندها بيد رقيقة، وجافة، ويدفعها إلى فوهة الصباح دفعا.. أسرع يا أمي.. أسرع.. لكن الصغير ما كان يعلم، والمسلاطية نفسها ما كانت تعلم، أن قلب الأسد الذي يخبون في شأنه الآن، لم يعد ممكناً، الذي حوره لن يردده، الذي اشتراه من تجار الحجاز، لن يعيد بيعه، والدراهم المسكينة التي تلقاها من بيع النفس، هي أكثر الدراهم مسكنة في العالم كله.

أريد زوجي قلب الأسد.. سامحته يا مولاي.. أريده يا مولاي..
أنا مسكينة.. أنا مشردة.. أنا أم.. أعده من كتية الرعاع.. أرروك..
أرروك..

أمهلوها من قبل عامين لتصيح إن أرادته، ولم تأت، وكان ثمة عام
ثالث كان فيه قلب الأسد ناقة لم تحور بعد.. ولم تأت أيضاً.. كانت
سجينة لهواها، وتحررها في بيوت تجار المساليط، سجينة للعرق الذي
كانت تصبه، والكؤوس التي كانت تقدمها، مكشوفة الثديين، وسجينة
أهواء العازبات اللاتي لا يفقن إلا والزمن قد لسع، والأيام كبرت،
والتجار بسطوة المال يعشقون التغيير، والتغيير ليس في مصلحة واحدة
أبادت رجلها. يحبو الصغير في زمن الحبو.. والدي.. في زمن المشي..
والدي.. والآن في زمن التعلم وحفظ القرآن في تلك الكتاتيب البعيدة..
أريد عودة أبي..

الدقائق المعتادة للرد، والمسلطية تقاوم دموع عين أو قلب أو
دموع عمر كامل، وتشد ابنها إلى قلب ربما يريد أن يعتدل بصدق.. ثم:
- حرة المسلطية.. زوجة قلب الأسد المسلطي، زوجك غير موجود
في السلطنة، ولا يعرف أحد مكانه، لا تصيحي في هذا الشأن مرة
أخرى.

لم يتعاطف أحد، ولم تتحرك الدموع في عيني أحد، وحتى حين
أغشي على المرأة، وضاع الكثير من تنفسها، لم يسع أحد إلى ماء يرشه
على وجهها. كان الصغير الآن ضائعاً.. يتلفت بلا هدف، ويحاول أن
يفهم اللغة التي لن يفهم مفرداتها أبداً.

أولياء أمور دواب تحورت، ودواب ركبت في الطرق، وغارات
المداهمة، وأضداد لن تستقيم ظهور شرفهم مرة أخرى، وشيخ طاعن
في العمر يصيح بالصوت القديم واللاهث:
- مولاي السلطان.. أريد ولدي شبرق.. أعرف أنه كان فرساً للأمير،

ولا أعرف مصيره الآن.. أريد ولدي.. ارروك.. ارروك..
الدقائق القلقة نفسها، وذيل السلسلة يصرخ.
الشيخ الشباريقي.. والد شبرق.. ولدك مات منذ أعوام.. مات من
حمى مجهولة، لا تصيح في هذا الشأن مرة أخرى.
وقف (حلحلوك) المجنون وقفته ذاتها، ومن حلقة الذي لم يغب
عن الصباح جمعة واحدة منذ أن جن أو منذ أن تعرف على جمعة
الصباح صرخ:
أريد طبقاً من صقور (جرناس) متبلاً بالثوم والبصل ومنقوعاً في خل
القصب، وملوئاً بسم فأر من فئران الجقر.. أرروك.. ارروك.
ولدهشة المتجمعين كلهم، قفز صياحه بعد أكثر من خمسين عاماً
إلى خلق ذيل السلسلة، بقية السلسلة، والرد يأتي راكضاً وبأسرع مما
توقع الجميع:
حلحلوك البرني.. حلحلوك البرني.. أجب طلبك بشأن طبق الصقور
المتبل بالسم، ويرجى الانتظار حتى نهاية الجمعة.
كان أعقل مجنون في الدنيا كلها حين لقي بجنون التعمساء تحت
شجرة هجليج ظليلة، وفر من مجلس (الكوراك) فرار ريح. لم يضحك
أحد لأن لا أحد كان بوسعه أن يضحك، لم يبك أحد لأن لا أحد كان
بوسعه أن يبكي. كان حلحلوك رمزا كبيراً من رموز (أنسابه)، وطوبه
مدهشة في ذلك الطوب الذي يكون مجسّم (الكوراك)، وما دام فر، فقد
سقطت الطوبه المدهشة.
كان (دمدوم) متخفياً في وسط الجمع، ويرسل البصر من حوله
في وجل، وارتعاش قلب. ماذا لو جاءت الرزينة وصاحت تريده، ولو
استجاب السلطان، أمره بالعودة إلى ذويه؟ كيف يعود ولا ثغرة في
الحياة تسمح بعودته؟ انتظر حتى شارفت الجمعة على الانتهاء، وبدأ
ستار من ليل التخفي يزحف، ثم تقدم من ذيل السلسلة بعد أن أحكم

لثامه على الوجه:

- مولاي السلطان.. أريد أن أصبح ظهورياً.. أريد أن أحمي ظهرك من الأعداء.. أريد أن أفديك بالعمر.. أروك.. أروك.

التفت المتجمعون كلهم مذعورين، تهامسوا مذعورين، وتلامزوا مذعورين، وكأن بعضهم تساءل.. أليس هذا ابن صانع الطبول الذي صاح يريد أن يصبح أباً شيخاً؟.. أليس هو أخ الفتاة التي صاحت مرتين وانكسرت؟ أليس الذي حوكم ببذاءة الألسنة وأخذ الرعاع؟ لكنه خصي الآن، ويطالب بوظيفة الشرف.. ما أغرب هذه الجمعة؟ كانوا لا يعرفون ولن يعرفوا أبداً:

المواطن التنجري (آدم نظر).. المواطن التنجري (آدم نظر).. أجب طلبك من مولانا السلطان.. اذهب لتسلم الوظيفة.

لا يعرفون الطبخة التي مزجت بهار شديد اللسع، ولا يستطيعون التذوق.. غير منطقي.. في الشوارع..

غير منطقي في البيوت..

غير منطقي في الحفر.. في الأسواق.. في الأصقاع كلها، في بيت الجد (سند) في قرية (أم حراب) حيث الأم زوجة تحتضر لزوج يحتضر، وفي المقابر الفقيرة حيث الأخت ترقد، وفي متجر العطور النافه حيث جبروتي ولد الحُور يخترع ويوزع، ويجب على أسئلة التنجر التي ظلوا يطرحونها بجلافة لثلاثة أعوام كاملة دون كلل..

- لماذا قتلت الرزينة يا ولد الحُور وأنت لا تستحقها؟.. لماذا رفضتها بعد أن جاءتك حتى ديارك؟ لماذا؟ لماذا؟

ثم لتأت تلك الرسالة الكريهة كره العدو.. النافهة تفاهة روث الغنم.. المكتوبة بأقلام ترقيم البقر والتي فيها رائحة عطر السطوة المجدد..

(عزيزي دمدوم نظر.. أبارك لك المنصب الجديد بالرغم من كل

شيء... وبالرغم من أنك قد تلومني على موت أختك وقد تحقد علي..
صدقني أنا صديقك حتى الآن.. وأزور قبر الرزينة باستمرار. وأسأل لها
الرحمة.. فقط لا تنسني في زحمة أعبائك الجديدة).

لكن الرسالة لم تصل أبداً، وصلت إلى يد الظهوري الجديد،
ومزقها عن وعي، لأن تذكر الماضي لم يعد يهمه، وما يأت من ماض
مهما كان حلواً، لن يهز في تذكره شعرة، لا يريد أن يعرف شيئاً عن
الحياة في أم حراب، لا عن أم ولا عن أخت، أو ولد حور يعده الآن
أسخف ولد حور في (أنسابه) وما جاورها من الدول.

انتهت الجمعة بخيرها.. بشرها.. بلمسات تغيرها، بكلاسيكية
الجروح التي غرستها، الذين أجيبوا إلى طلباتهم، لموا الإجابات
والابتسامات، وانصرفوا، الذين لم يجابوا أو استحالت إجابتهم، تاهوا
وتمزقوا، والذين كانوا متفرجين فقط، تفرجوا حتى شبعوا. تراحم
الكثيرون ليلقوا النظرة القرية على الظهوري الجديد صاحب الحوض
الواسع، وحتى الظهوريون الحقيقيون ممن كانوا يزرکشون مجلس
السلطان في تلك الجمعة بدوا مستغربين، وسالت من (عجيب تمبولي)
التنجري، نظرة بله ما كان يجب أن تسيل من ظهوري أبداً. لا يعلمون
الطبخة ولا يتذوقون بهارها، وحتى لو علموا، فلا مجال للتذوق.

كان الرشيد هادئاً في جلسته، هادئاً في إجاباته، وعدم إجاباته،
وحتى في قهقهته التي كان يرسلها في هدوء أسر. الأب الشيخ يبدو وجلاً،
وخائفاً من قدر غريب الأطوار يتربص به، يريد أن يكلم السلطان، ولا
يقدر، ويستغرب من اقتراب صبي محور، كان في الأصل عدوا طبقت
في حقه بذاءة الألسنة، إحدى لوائح (الكوراك) التي لا تطبق إلا في
ساعات الهلع. يريد أن يستفسر ولا يقدر. دوباجي الحكيم لا يستغرب
أبداً، والذي عين فيما مضى كبيراً لممارسي الطب في (أنسابه) بوجود
ممارسين يطبون حتى الجن، لا يستغرب. كردمان المحاييد والغريب،

والذي استوحى من تلك الجبة المزركشة للأمير مساعد، إضافات عديدة لجبة المستقبل السلطانية، يبدو الآن أكثر حيادية لأن أذنه حتى لم تكن مشغولة بما يجري، لاليا البرناوي أفتى في سره فقط.. أفتى بعدم جواز اختلاط الخصيان بكتيبة كلها عضلات، وكلها شهوات مؤجلة، وقائد الرعاع الجديد، يبدو جديداً حتى في طريقة رده على استفسارات السلطان حين يستفسر..

انتهت الجمعة الأولى بعد أربعين الإفاقة بجدارة، وجاءت مائدة العشاء الاستثنائية كثيفة ومتنوعة، وجاءت (جديلة) مغنية الفراق والحزن لتمحو ما تبقى من أسى.. وأثناء دخوله إلى القصر ليلم نعاس الليلة الأخيرة، كان دمدوم منتعشا، التقى بزملاء الخدمة وأظهر انتعاشه، بالجوارى وأظهر انتعاشه، وحاول أن يغفو لكن انتعاشه لم ينم.. من يدري، ربما كانت تلك هي خطوة الحظ التي ترتفع به درجة أعلى.. درجة (يوسف كرا) التي حلم بها ودمرته، وما دام قد تدمر فليكن حالماً جديداً..

-21-

الرهبة من السكنى في أكواخ الظهوريين المبنوثة في تلك الدائرة الواسعة والغامضة، ليست هي المسألة. وأسماءهم التي هي أسماء الشتات المتجمع في شعور واحد، عاطفة واحدة، ونفور واحد.. الحارث.. سواهيل.. نجمي.. هطيل.. الوزاع.. تمبولي.. ليست هي المسألة. ولغة النظرات التي خاطبوا بها الظهوري الجديد عند انتقاله إلى تلك السكنى القريبة من بؤرة الأحداث، ليست هي المسألة أيضاً. ولكن الشعور بالدوران، الدوران عند النقلة، عند ابتداء الاستقرار، وفي ساعات التدريب الطويلة التي يجب أن تنجز كلها.

التم دمدوم في زخم العراك الجديد، التمس بلا لوازم سابقة هي من لوازم الأضداد وأضدادهم. لا كحل في العينين، لا ضفائر للشعر، لا مرطبات أو أكاسير لإبراز وجه الهرمونات، ولا مشية مهلهلة الخطوات من تلك المشيات التي فصلت له في مستنقع الرعاع حين كان لا بد من تحويره. سلمه الرشيد نظرة أبوية مشجعة، وكتاباً موقَّعاً من رأس السلطنة في (أنسابه) إلى الفقير (بابنوسة) قائد فصيل الظهوريين السلطاني. برجاء ضم المواطن دمدوم نظر إلى فصيلكم ظهورياً جديداً، وعمل اللازم. وسلمه (بابنوسة) كوخاً مشابهاً لتلك الأكواخ، وحصاناً أبيض اللون وفي عنقه غرة، وسيفين لامعين، وستة عشر خنجرًا حادة النصل، وعدة أثواب ومسراويل من قطن وصوف ومخمل، ومدون على كل زي أيام ارتدائه، وأيام غسيله، وفي أية مناسبة يجب أن يلمع، أية مناسبة يجب أن تجف لمعته.

هذا للزركشة في مجلس (الكوراك).

هذا في مواعيد ذكرى أعياد الجلوس.

- هذا في رحلة الصيد في الأحراش.

هذا إن زار مزرعة أو جبلاً أو قرية فيها نساء مسنات.

هذا في وقت الخروج للحرب.

هذا في يوم النعمة السنوي.

كان النظام صارماً بلا شك، ساعات نوم الليل مراقبة بشدة، وساعات استيقاظ النهار فيها تهافت على لم العضلات، والجسد الفذ، ومحاولة القفز أعلى من أي نسر يطير. لم تكن التغذية هي الحميض المسهل للبطن، ولا الدخن القابض لها، ولا وجبة الحمص المنقوع في زيت (الهجليج)، والذي يجعل الرؤيا تغيم والحواس تشتت، والدواب المحورة تظن أنها دواباً فعلاً، كما كان يحدث في مستنقع الرعاع. كانت تغذية ملائمة، يلتهمها الجسد وتبنيه، ويحبها العقل ولا تبعثره، اللحم، الدجاج، عسل النحل، وطحينة الفول المخلوط بالأكاسير والمستوردة خصيصاً لبناء البصر.

استلم الجديد الأشياء كلها، واستلم نظرات كبيرة وفاحصة، من قائد الفصيل، كانت هي أكبر النظرات التي تفحصته في حياته كلها. مد القائد عصا غليظة السمك، تحسس بها صدر الهرمونات الممتد، أنزلها إلى البطن الغازي نقر على غازاته، إلى الردفين المدورين، دار معهما، إلى المؤخرة التي تتماوج، مد شفثيه في تشاؤم، مسح عن وجهه عرقاً لم يأت من مجهود، وردد بصوت بعيد تماماً عن قرار السلطان، لا يمت إليه بصلة:

أسف يا أخي.. لست الظهوري الذي يحمي دجاجة من ديك..

ثم بسرعة كبيرة يلتقط خيط الفطنة الذي لاح في الوقت المناسب:

لكنني سأبنيك.. أعيد صياغتك من جديد.

كان (بابنوسة) ظهورياً قديماً جاءوا به من جبل (الكردوس) طفلاً

ليربى في تلك الكتيبة، وبرغم تجاوزه لسن الحماية القانوني، وتعيينه مسؤولاً عن صياغة الظهورين، إلا أنه استطاع الحفاظ على جسده باسقاءً على عينيه لماحتين، على ذهنه متقدداً، وعلى صوته الكبير.. كبيراً في أي وقت. في أثناء خدمته الطويلة استطاع المشاركة في حماية السلطان من عدة مؤامرات حيكت له من قبل أعدائه الكردمالين ومن أنسابيين كانوا يكرهون حكمه. إرسالهم للهدايا المسممة، دسهم لقتلة في ثوب مضطهدين فارين، وتلك الجارية التي كانت مدججة بالخناجر، وأوشكت على رشقها في صدر الرشيد أثناء أحد المواقب. وأثناء خدمته الأخيرة كمستول في صياغة الظهورين، لم تجابهه محنة شبيهة ب(آدم نظر). كان المنتقون يرسلون إليه أطفالاً وذوي عظام لينة كان يعدل من توازنها كما يريد. لكنه الآن أمام معضلة، معضلة التكفير عن ذنب، وفي وقت متأخر جداً. الوقت الذي قد لا يسعف لشرب قطرة ماء ولا يستطيع أن يرد الخصي خائباً، لا يستطيع أن يفكر عكس مشيئة السلطان.

لغة التدرب.. أغنيات الحماسة المجنونة.. ألفاظ قهر النفس، هيلاهوب.. ارتفعوا.. انزلوا.. تقدموا.. تقهقروا.. اقتلوا الأفعى.. خنجر في الظهر لموا الرجلين.. أرسلوا العيون.. تنفضوا..

وبوجع الهرمونات.. يا وجع الهرمونات، يتغلغل الظهوري الجديد في السعال حتى يسقط.. يقوم.. يسقط، يحس بالبطن يضمّر، بالصدر يستحي ويتوارى، بلياقة الجسد تعتدل لكنها لا تستقيم تماماً، يهزه (تمبولي)، وينظرة البله نفسها.. تشجع يا دمدوم.. تشجع، و(بابنوسة) يكتب التقارير ويعدلها، ويقيس الجسد في كل يوم مائة مرة.

كانت علاقته بقصر المسك الآن علاقة غريب بغرابه، وجار انطوائي بجيران انطوائيين، يتطلع أحياناً، يلمح الأضواء والظلال، ورؤوس الجوارى التي تتحرك من فراغ أو انهماك، يتطلع إلى ناحية المخدع السلطاني الذي عمل فيه سنيناً، يشم رائحة وردة، ورائحة حنظل، يستعيد

غبطة أو دموعا، ماء الورد أو صفعة الخد، يتوقع السلطانة ترمجر، ويكاد أن يرى (رغد الرشيد)، متخففا من أعباء سلطنته، يتلذذ بشراب ورد دافئ، يتحين اللحظة الدقيقة ليهز خصرا غير موجود، ويمد اليد المترفة بالخواتم، يتحسس بها لا أحد:

ذنوبنا على الأرض.. ذنوبنا يا مسك.

في إحدى الليالي الشاقة والمملة، والمفترض أنها ليلة نوم طويل يعقبها فجر استيقاظ نشط تعمل فيه الحواس كلها، أحس دمدوم بخطوات رفيعة تنتظم أمام كوخه، وسمع طرقا أرفع على خشب النافذة الوحيدة في الكوخ. توقعه (عجيب تمبولي) التنجري، يأتي من ملل أو كآبة كما كان يحدث في كثير من الأحيان، قام، فتح، وكانت مفاجأة له، فقد كان القادم إحدى الجواري الأعجميات، ممن تم اقتناءهن مؤخراً من إحدى قوافل فارس التي عبرت من الحجاز إلى (أنسابة).. كان اسمها (فروخ لقا)، وكانت خضراء في العينين، والقامة، وألحقت بالجنح السلطاني حين كان الفراغ قد حدث باختفاء دمدوم. ولأن مسك النساء شمت في عنفوانها، عنفوان راهبة، ولمست في يديها آثار خدمة متمكنة. وقد كان دمدوم متعجبا من اسمها باستمرار، ينطقه ولا يجيد نطقه، والسلطانة مسك النساء أيضاً، أنفقت أياما طويلة حتى اقترب اسم الفارسية من ذبذبات لسانها. نطقته فرخة وفراخاً إلى أن اعتدل. وباللسان الأعجمي الذي لا يكاد يميز بين حرف مرفوع وآخر مجرور، رددت:

- يريدونك في القصر.. أسرع..

ثم اختفت في الظلمة الكثيفة.

كانت (يريدونك) هي الكلمة التي ظل دمدوم متوجسا بشأنها، وخائفاً أن يسمعها منذ أن انتقل إلى أكواخ الظهوريين.. يريدونك التي قد تكون ناعمة، وقد تكون خشنة، وقد يكون وراءها ما وراءها، وكانت (أسرع) الخاطفة، والإلحاحية، كلمة أخرى قد تزيد الخوف تعقيدا، يرتبها

في الدهن.. يريدونك أسرع. أسرع يريدونك.. ولا يستطيع التحقق هل هي الناعمة التي تريد ماء الورد المدلوق في ساحة استحمام ليلية كثية، أم الخشنة التي ربما هي صادرة من السلطان رغد لأمر ما لا يستطيع معرفته.. يريدونك.. أسرع، سيلبي.. لأنه لابد أن يلبي في كلا الحالتين من تلك (اليريدونك).. تلملم في ثياب الخصيان القديمة التي رافقته إلى الكوخ ولم يرد أن يلغيها تماماً لإحساسه أنه قد يعود ذليلاً إلى قصر المسك في أية لحظة، ومضى يراقب عين الليل المغمضة، ويخاف أن تفتح فجأة على ظهوري متخف يحاول الولوج إلى القصر، حتى لو كان ذلك الظهوري خصياً مشبّعاً بالهرمونات. تتكرر مثل تلك التخفيات، تتكرر باستمرار وغالباً ما يتخفى الظهوريون المتسللون في هيئات مثل هيئته، لم يكن من المفروض أن يوجد هناك، وبرغم استدعائه من قبل حكام الداخل المخفي، إلا أن اكتشافه قد يكون هو الثغرة التي قد تدخل منها الريح الفاسدة، أو تخرج منها الريح التي تسعى إلى الفساد.. الجاريات المحبوسات، واللاتي قد يبحثن عن ري لعطش العواطف.

كان يوجد في قصر المسك من ظهره المواجه لسكنى الظهوريين باب صغير من خشب الزان، يستخدم في الحالات الطارئة، وحين تكون ثمة ضرورة للحماية حتى يلبي الظهوريون بالسرعة المطلوبة.. تسلل منه وأنغمس في الداخل عابراً الممرات وصلات لكز النظر.. إلى مخدع السلطان.

كان (الرشيد) هناك، وكان متخففاً حتى من خواتم الترف، ومنامة من حرير أحمر كانت تغلف جسده. كان عرقانياً، ويلهث، والسلطانة تحاول مداواته بإكسير ذهبي صبته من زجاجة:

- أبعديه.. أبعديه يا مسك.. لا أريد أكاسير..

وقف دمدوم بحيث سقط الكثير من كيانه الممتد على بصر الرشيد..

- تعال يا خصمي.. اقترب..

الصدر يعلو وينخفض، العرق يغزر ويجف، واليد الخالية من
الخواتم تقبض على موضع السكينة في أيسر الصدر..
لا إله إلا الله..

في البدء حين جاء خادماً محوراً.. كانت المناداة يا خصي.. في
الوسط حين اقترب أكثر، وحين لفته ملاءة تعذيب الضمير.. أصبحت يا
دمدوم.. والآن تعود صياغة العار لتناديه في صوت الرشيد مرة أخرى.
لا يستطيع دمدوم أن يفهم السلاطين، ولا يستطيع أن يقدر ساعات
استيقاظ ضمائرهم وساعات نومها. أحياناً يظنهم وحوشاً شرسة، أحياناً
آباء عظيمين للغاية، وأحياناً لا هذا ولا ذاك، والآن هو بالضبط في لحظة
اللاهذا ولا ذاك..

يسحب الرشيد يده الخالية من موضع السكينة.. يعيدها:

اقترب.. اقترب يا خصي.

وقف ساكناً يتأمل الضعف السلطاني، في الضوء الملون، الآن خف
العرق، تضائل اللهاث، انتصرت عينا الثبات، والحمد لله.. الحمد لله.
بغته سأله:

هل ما زلت تكرهني؟ ما زلت تحقد علي؟

أبدأ يا مولاي.. أبدأ.. أبدأ..

إذن لماذا تقتلني؟.. أقصد لماذا تجيئي في الحلم قاتلاً وليس شاكراً
للجميل؟

إذن فقد كان في الأمر حلم.. كابوس.. وفيه قاتل ومقتول، لكن
دمدوم لن يكون القاتل بأي حال من الأحوال، قد يكون المقتول، الدابة،
المحور، الذي بلا أمل، ولكن لفس القاتل. في حياته الشاقة في قصر
المسك، سنحت له مئات الفرص لقتل السلطان حقيقة، وليس داخل
حلم.. القهوة الليلية، شراب الورد الدافئ، وحتى الأكاسير التي كان
يقدمها حين تطلب.. ولكن فكرة القتل لم تكن تخطر على باله.. .

لا أدري يا مولاي.. حقيقة لا أدري..
أسمع..

يستند السلطان على كتف كرسي مجاور ليقف..
لسنا ملائكة عظام بلا أخطاء، نحن حكام في الأرض، لنا إشراقاتنا
ومخازيننا. من مخازينا أنك حورت إلى خصي، ومن إشراقاتنا إنك
الآن تتبع لكتيبة الشرف، كتيبة الظهوريين. إذا كنت ما تزال حاقدا،
فالحق بقاتل (مساعد) في كردمال.. لن أوظف في حمايتي خصيا
يكرهني..

كان انفعاله جمًّا، ترنحت له منامة الحرير في الجسد الفخم، وتناثر
كم من رذاذ الغلظة على وجه الظهوري الجديد. هو الآن في لحظة
بائسة، يريد أن يعرف تفاصيل حلم السلطان، ولكنه خائف..
- مولاي هل يمكنني معرفة حلمكم؟.. أتوسل..
يمكنك..

اتكأ السلطان على كتف الكرسي المجاور نفسه ليجلس..
كنا نسير في رحلة قنص في أحراش (جوا جوا)، فرحين ونحظى
بصيد وفير، حين خرج فجأة اثنان من بين دغل كثيف، وكانا يحملان
الخناجر التي لمعت أنصالها في ضوء الشمس. برزا أمامي وكانا
شخصين أعرفهما، هاشم درب سلطان كردمال الذي خلعنائه، وأنت
يا دمدوم. طعنتي السلطان من ظهري وأنت من الأمام.. هل رأيت؟
يتذوق الظهوري الحلم بمشقة، ولا يستغرب أن تغزو السلاطين
أحلام الدم. في حياة الفقر لا قتل ولا خناجر تتلامع في الحلم، ولكن
أحلام يقظة باهتة كلها تصب في أجولة (حميض) يابس، أو دخن
غزته العتة. وإن كان ثمة حلم حقير، فهو ذلك الذي قذف به إلى هذا
المستقع.. حلم الجليل الهرموني حين يهبط من فرسه.. وحين يخرج
من حي الرديم (آدم نظر). قطعاً يحس السلطان بالضعف، الضعف إزاء

سلطان آخر هزمه مرة ولا يستطيع أن يجزم أنه هزمه إلى الأبد، الضعف
إزاء ولد صغير حوره وقربه ورقاه، ولا يستطيع الفكك من عقدة تحويره
بعد.. هو الآن قطعاً لا يحقد عليه، ولا يحقد على أي شخص آخر..
يتشجع:

- وماذا تظن جلالتك؟

- أظن ما قاله الحلم.

يتشجع أكثر ومكر الخصيان الذي هو من مكر الهرمونات..
لقد أتى السلطان هاشم من الخلف، إذن فقد غدرك.. وأنا أتيت من
الأمام، إذن فقد واجهتك، ولا أظنك تسقط من مواجهة خصي..
ألقاها هكذا كبيرة، وفخمة، وفيها توتر، ليلتقطها السلطان التقاط
الملهوف. سكنت انفعالاته كلها، وتزحزحت اليد الفارغة من موضع
السكينة، لتمتد إلى الجبهة التي كانت الآن رفيعة، وإلى الشعر الذي كان
شعر فارس بلا صفائر.

صدقت يا دمدوم.. اجلس.

ذلك الليل الفريد من نوعه، تسامرا حتى أوشكت الشمس على
الطلع، شربا من القهوة ومن ماء الورد، وارتفع الضحك عالياً من حلق
فخم وحلق مدمى على حد سواء، السلطان وخادمه.. السلطان وحارسه..
السلطان ورفيقه الذي ارتفع أكثر مما ينبغي. وفي لحظة موغلة في بياض
الصفحات الذي طرح في تلك الجلسة، ألقى دمدوم بسؤاله المفاجأة:

هل تجعلني أباً شيخاً كما طلبت منذ سبع سنوات يا مولاي؟

لا هذه لا يا دمدوم.. قرا الأب الشيخ ليس قرارى، ولكنه قرار
(يوسف ضو) مؤسس السلطنة. جزء من أسرار تكوين السلطنة حين
أسسها، ولا ييوح سلطان إلى العوام أبداً..

والاستثناءات؟

- ليس في هذا الأمر استثناءات.. إنه أشبه بالقدر الذي لا يمكن تلافيه..
بمجرى السيل الذي لا يمكن ردمه.. أخرج من هذا الموضوع يا
دمدوم.. أخرج.

كان كلاماً غريباً وجافاً، وفيه الكثير من الغوامض، لكنه الكلام
الذي يلغي بلا شك أي حلم يقظة يحاول البزوغ في هذا الشأن. يود
أن يسأل.. إذن لماذا كل هذا ما دمت قد صحت في شأن راسخ؟ لماذا
بذاءة الألسنة والتحوير وما تبع ذلك؟
لكن السلطان قرأ..

- لم يكن يعنينا صياحك كثيراً.. كان صياح ولد صغير وأحمق.. ولكن
الأمن.. الأمن كان يستوجب ذلك يا صديق.

النقاط كلها على الحروف كلها، والظهوري الجديد الآن سبعان
جداً..

كانت السلطانة (مسك النساء) متوفرة طوال تلك السهرة، شهية في
كرنفال العطر والحريز، وموجات شعر الليل الذي لا يريد أن يصبح. لم
تكن عينا (رغد الرشيد) تلمحانها، وكانت عينا دمدوم منشغلتين بشبع
آخر، شبع الفقير الذي كان يمجّد بشدة في سهرة سلطانية.. خرج من
قصر المسك بالشبع نفسه، بقاء الروح نفسها، وبمفتاح غليظ الحجم
أغلق به على حلم التعاسة إلى الأبد. مر بالأجنحة، بالممرات، بصالات
لكز النظر، بلوحات العالمي (جيوفاني)، وبنظرات الخصيان والجواري،
عبر الحداثك المسكية بأزهارها التي تفتح تفتح الفجر، بأريجها الذي
يملاً الدم ويفيض، وبطيورها الطليقة، والتي في أفاص الحريز. سيسعى
إلى حماية سلطانه بكل ضراوة، يمسك بتلك الإشرافة التي وردت في
سهرة الخيال.. من مخازينا أنك حورت.. ومن إشرافاتنا أنك تتبع الآن
لكتيبة الشرف.. نعم هو في كتيبة الشرف.

-22-

الذكرى الرابعة والعشرين لتولي (رغد الرشيد) مقاليد الحكم في سلطنة (أنسابة). ذكرى فيها توتر وعدم إيهار، وإحساس عام بأن خطأ ما قد حدث، وأن السلطان قد كبر ليس في عمره كإنسان فقط، ولكن حتى في إدارته وتقديره للأمور

صحيح أن الفرح أسس بذات الطريقة التي يؤسس بها في كل عام، الجذات غنن ورقصن، وأشعلن البخور وضفرن الحماسات كما يفعلن دائماً، الطاهرات طفن بصفائر العقيق والخرز، والفوانيس الملونة، الخراف نحرت وسلخت ووزعت، وابتدأ الموكب، اخترق الأحياء وانتهى، والظهوريون يحمون، والرعاع ينظمون الفوضى، لكن الإحساس بالخطأ ظل موجوداً ولم يتغير.. واجتهد الكثيرون جندوا أنفسهم لقراءته في أية صفحة من صفحات ذلك اليوم فيها سطور قد كتبت بتأن أو كتبت على عجل.

في حي (عظمة رغد) النظيف والمسمى باسمه والذي أسسه مترفون أرادوا لحيهم تميزاً ما، لاحظ (دمدوم) الذي كان الآن ظهورياً لصيقاً بالسلطان، له قامة الظهورييين الفذة، وسيوفهم وخناجرهم، ونظرات الجبايرة التي تلمح السم في أحشاء أفعى. لاحظ أن السلطان انحنى بصعوبة ليقبل طفلة جاءت فرحة وتحمل عقدا مضفرا من زهور (المنوليا) المنتشرة بحدة في حقول (أنسابة). في حي (الحجاز) الذي كان أصلاً إحدى محطات تجار القوافل الحجازيين المرتبطين بتجارة أبدية مع (أنسابة)، يملكون بيوته، وعواطف نسائه، والكثير من موارده، لاحظ دمدوم أن السلطان أعجبه بيت، ثم أعجبه آخر، ثم عاد وتحدث

كثيراً عن عيوب البناء المتعجل قال.. منظرها يسر لكنها بلا أساس. في حي (الرديم) المسكين الذي خرج منه ذات يوم ولم يعد، وحاول أثناء سير الموكب أن يبدو ثابتاً وبلا عواطف، ومرتخي اللثام حتى العينين، وطارداً لذكرى حياته القديمة، لاحظ أن السلطان سأل كثيراً عن فائدة الحمامة، ومواضعها في الجسد، ومضاعفاتها لو كانت لها مضاعفات:

هل تستخدم في أمراض الهبوب والهيضة واستسقاء البطن؟..

هل إذا تداوى بها العجائز أمثالي لا تحدث (الغرغرينا)؟

بعد كم يوم يضيع الأثر من موضع الفصد؟

وأثناء سيرهم المكثف واقترابهم من مقابر (جوا جوا) الكبيرة حيث يدفن السلاطين والأمراء، وتوابع الحياة المترفة، توقف السلطان أكثر مما ينبغي، وتأمل فراغا مربع الشكل كان لصيقا بقبر والده السلطان (نفر المقدم)، وحين ارتقى فرسه (المهراجا) مرة أخرى وابتدأ الموكب في الانطلاق، لاحظ دمدوم أن دمعيتين كبيرتين كانتا تشقان طريقهما من المنابع إلى بعيد. مروا على الأحياء كلها، وطيبوا الخواطر كلها، وعلى الأسواق سألوا عن توافر السلع أو انعدامها، وفي مهبط قوافل التجارة الذي وسعوه مؤخراً بعد أن تكاثرت الجمال، وتشعبت الحيل، وراجت سلع كالخطب، والأقمشة الملونة، ومسابح (الكهرم)، ومرطبات الوجه، وتمر المدينة، انتحى السلطان بتاجرين من تجار (تمبكتو) يبدو أنه كان يعرفهما بعمق لأن كتفه لاصق كتفيهما في التحية، وملامحه أشرقت حين أشرقت ملامحهما، وارتفع صوته حين ارتفع صوتهما. لم يعرف دمدوم ولا أي واحد من اللصيقين في الموكب ماذا قال لهما وماذا قال له، لكن السلطان عاد إلى موكبهِ وفي وجهه علامات إشراق غريبة..

انتهت الذكرى كما تنتهي دائماً. يوم الشيع الكبير.. يوم اللاجوع، ولا شد للأزمة على البطون، وعادوا إلى قصر المسك الذي كان مزينا بالزهور، لتكملة أمسية الفرح. كانت المائدة استثنائية جداً، أعدتها

السلطانة مسك النساء بمساعدة خصيانها وجواربها المدرجات، واشتملت على أنواع نادرة من الطيور، وسحالي البر، والسلمون المجفف الذي لم يكن الأنسابيون يعرفونه أبداً، لأن بصمته في التجارة كانت متواضعة، وسعره العالمي في غير متناول يد الجميع. وأبدى (لاليا البرناوي) مفتي الديار الأنسابية استغرابه حين تذوق الطعم ولم يميز النكهة:

هذا من خيرات (أولاد جون).. يروننا بها من حين لآخر
ردد السلطان..

كان تعبير (أولاد جون) هو الصفة المحلية التي تطلق على ساكني الدول الأوروبية.. يستخدمها المحليون حين يرون أشقر أو يتحدثون عن أشقر، واستخدامها السلطان في تلك الأمسية تماشياً مع التراث الأنسابي..

تعال يا دمدوم.. خذ نصيبك.

وفي خرق جديد لقوانين الكبار الذين لن يصغروا، والصغار الذين يفترض أن يظلوا صغارا، حتى ولو كانوا ظهوربي الشرف الذين يدودون عن رمز (أنسابة) الكبير، تقدم دمدوم بنشاط ليغرق في مائدة العشاء النادر، تذوق نوادر البحر، ونوادر البر، والثمار الطازجة، وخيرات (أولاد جون) التي يربها السلطان، ويعمم البر على جلسائه، وطرب معهم أيضاً حين جاءوا ب(جديلة) المغنية الشابة كصوت هاضم للدمسم، ومطلق للأرواح من قماقمها:

أحييك يا عيون ناعسة.

أحييك يا عمر ضائع.

أشيلك يا قلب مسكين.

أدسك في الندى الطالع.

فجأة تردد صوت الهية الرقراق، منساباً من بين شفتي الأب الشيخ (يوسف كرا) ليقطع استغراق لحظة الاستغراق:

لا أريد أن أفسد ليلتك يا مولاي لكنني سمعت بأن السلطان (هاشم
درب) مسنوداً بزعماء عدد من ممالك الوسط، يحاول العودة مرة
أخرى إلى كردمال.

ومتى وردت هذه الأنباء؟

يسأل الرشيد...

صباح اليوم يا مولاي.. نقلها إلينا عدد من الرعاة وتجار الإبل، كانوا
قادمين من نواحي بلاد (المجانين).

ومن يناصرهم حقيقة أبي الشيخ؟

تململ الرشيد في جلسته، وبدأت مرارة الخسارات المحتملة
تتماوج أمام عينيه. في عرف الحكم.. أي حكم. حتى لو كان حكم جمل
على سرج يوضع فوقه، توجد خسارة ما، ويوجد ربح ما، وثمة شعرة
رفيعة بين الربح والخسارة. يفكر الآن في هاشم درب، سلطان كردمال،
غريمه الذي هزمه وطارده لأيام طويلة في الفيافي والأحراش، وتوغل
بعدها إلى بلاد الوسط. يفكر في وجهه حين اندحر، وشهوته التي لن
تلتئم أبداً كشهوة منحدرة، ولكن لا بد أن تستيقظ من جديد. يفكر في
خنجر الحلم الذي طعنه من الظهر، ويتململ في جلسة السمر أكثر..
اليوم تريح وغداً تخسر اليوم وغداً تريح وبعد غد تخسر.

- أظنه (الأصم) سلطان دار (الجعل)، وأصهاره من سلاطين (برثة)
و(القوادير) و(أم رماد).. أوباش حوض النيل يا مولاي.. هؤلاء
يكرهوننا لأننا تقدمنا كثيراً، وما زالوا إلى الآن ثيراناً في أحواض
برسيم.. لا تجارة.. لا اقتصاد.. لا أمن.

وماذا ترانا نفعل أبي الشيخ؟

صوت الهية الرقراق يبدو مطمئناً، وقد اختفت من نكهته وساوس
السنوات الماضية من خطر ظهور (دمدوم) إلى السطح هرمونياً مَرَبَّأً
من السلطان رغد بالرغم من الدراية التامة بقوانين (أنساب) غير القابلة

للنقاش، هاهو الولد المقرب، مقرَّباً بالفعل، ولكن بعيداً عن الدهاليز العميقة لواحد مثله.. (يوسف كرا).

لا شيء حتى الآن يا مولاي.. جنودنا يرابطون في كل الأماكن المحتملة في (أنسابه) وكردمال، وأصدقائنا من عرب (المجانين) يطوفون بالبراري والأحراش، يتحسسون أي تحرك ليخبرونا به، وحكامنا في كردمال يحكمون بمواثيقنا التي وضعتوها لهم، والناس راضون. لا تقلق مولاي الرشيد.

الليل يمضي والفجر يكاد أن ينجلي، وتغني المغنية ألحان ذكرى ودمدمات طوفان. الأحبة في القلب، الهجران في العينين، سفر الجفاء.. سفر اللاعودة، ويحاول السلطان أن ينزع خنجر الحلم من ظهره، في تلك الليلة الكبيرة المحتفلة، والعامرة المائدة، لم يكن يريد هواء فاسداً أبداً.. ذلك الذي إن دخل الدم شتته، وإن لامس الحواس أظلمت.. لكن الهواء الفاسد من توابع السلطة.. وما دام يوجد هواء نقي، فلا بد من هواء فاسد. المعادلة.. التوازن..

افتحوا أعينكم جيداً أبي الشيخ.. تتبعوا إحساسكم.. لا أريد أن يستيقظ الشعب في أحد الأيام ليجد الكردمالين وحلفاءهم ينتشرون حول أسرته. أخ البارود.. أشم رائحة البارود. أي بارود يا مولاي؟

يسأل قائد الرعاع الذي لم يعد جديداً بحساب زمن الهواء الذي استنشقه في مستنقعات الكتبية، لكن لا شهقة ذئب، ولا مشية تخيف الوحل، ولا نظرات لطير مهووسة كانت تنط من عينيه..

البارود يا أمير.. لغة الحرب الجديدة والمدهشة، لقد فاوضنا (أولاد جون) في شأنه مئات المرات ولم يمنحنا أحد شمة منه.. يريدون سجلاً نظيفاً من الدم، ولا يوجد في الدنيا كلها سجل نظيف من الدم. يرسمون ذنوبنا ولا يرسم أحد ذنوبهم، ويصنعون البارود لحرقتنا،

ولا نملك إلا الخناجر.. آخ البارود.. أكاد أشم رائحته تلوث سماء
(أنسابة).

ينكفى السلطان على جنبه الأيمن بغتة، يتحسس موضعاً في الجسد
بدا له ورماً غير مألوف، والظهري يلتصق أكثر، يحاول حماية السلطان
من خطر غير معروف، والكبار يودون لو عرفوا، لو شموا البارود مثلما
شمه، لو توغلوا إلى منابع التعاسة داخله، لو جففوها.. يستقيم الرشيد
مرة أخرى:

- غني يا جديلة.. غني أغنية رغد الباسل حتى يعود رغد باسلا بالفعل.
تمسك المغنية بعودها المعطر مرة أخرى بعد أن أهملته، يتردد
صوتها الفتي في المكان مشعلا حماسة أقرب إلى الانطفاء..

يا (رغد الرشيد)

يا باسل الأيام.

في صدرك قلب

أسد الفلا الضرغام.

وفي صدرك حنان

أما رعت أيتام.

نفديك بالنفيس

والغالي يا همّام.

الغربة في لغة السلطان، الغربة في زوايا وجهه، وحين يمد يد
الخواتم المرفهة لتعض على موضع ما في جسده الغزير المواضع، يفكر
دوباجي الحكيم بمشقة. ماذا لو التقط مأساة لا يريد أن يلتقطها؟.. ماذا
لو كانت ثمة أعراض ل(هيضة) أو (هبوب) أو استسقاء بطن في ذلك
الجسد الغزير؟

في تلك الليلة الكبيرة والمحتفلة، وفي آخرها الذي بدأ بانفلات

النحاس من أسرته، والعصافير من أوكارها، نهض الرشيد منها جلسة السمر التي كان نصفها سمرأً، ونصفها مرارة: تعال معي يا دمدوم.. أريد أن أحدثك.

لم يذهب إلى المخدع السلطاني مباشرة كما كان يتوقع الظهوري، ولكن السلطان كان يخب في سير مختلف، اجتازا ممراً ضيقاً في الجانب الخلفي من القصر بمواجهة أكواخ الظهوريين، وتوقفا أمام غرفة مهملة، ومتسخة باب الدخول، كأنها صيغت من نسيج آخر غير النسيج الذي صيغ منه قصر المسك. كان دمدوم قد رأى ذلك الباب مراراً، وتساءل كثيراً عن سره، خاصة أنه لم يكن ضمن قوانين قصر المسك التي تحرض على كنس التراب حتى من السطح. تقدم السلطان من الباب، فتحه بعدة مفاتيح متشابهة، دخل أولاً وشد الظهوري من يده ليدخل، وحين أضاء فانوساً مثبتاً في الجدار، بدا المنظر غياهب كهف غائر في الخيالات.

من هنا يبدأ الطريق إلى تمبكتو.. إلى مملكة حوريات الأرض.
ردد الرشيد.

لم يفهم دمدوم حرفاً واحداً مما قيل.. وبدأ وجهه في الضوء الظلالي.. وجهاً ميتاً وبلا تعابير، لكن السلطان أضاف خطوة أخرى.. توغل إلى ستار من الحديد الصدئ في الركن المواجه، أزاحه، فبانت فوهة مظلمة وأبدية..

هذا هو السرداب الأمني الذي شيده الرعاع.. يبدأ من هنا وينتهي في حدود تمبكتو.

كان شيئاً غريباً، وسراً ماتخيل دمدوم أن يوضع في ذاكرة خصي كان في يوم من الأيام واحداً من بذئي الألسنة الذين نالوا جزاء حكام الأرض. إلى ماذا يهدف الرشيد من كل هذا؟.. وما هي مبرراته لنشأوم غير مبرر وهو ما يزال الكبير في أنسابة؟.. لو أراد الرحيل لرحل دون أن

يسأله أحد ولو أراد البقاء.. فهو باق، ولو كانت ثمة حرب حقيقية فلا بد أن يحاربها كما حارب كثيراً من قبل.. ماهي مبررات السلطان؟. أغلق دمدوم ذهنه على اللغة الغامضة.. ووقف ينتظر.

الآن تعرف قدري.. تعرف أنني مثلك.. أحكمك لكن الأقدار تحكمني، وإذا اضطرتت لعمل شيء سخيف كالفرار في لحظة تحتمة، فأنت الرفيق في هذا السفر. داخل هذا السرداب يوجد زاد.. ويوجد أمل.

كان كلاماً مظلماً هو الآخر، تجرعه الظهوري بمرارة، وكاد أن يحلب دمة كبيرة. قد لا يصدق أحد أنه الآن يحب السلطان رغد حباً جارفاً ولا يوصف، ولا يستطيع أن يتخيل (أنسابة) إلا تلك التي يحكمها الرشيد.. لا يتخيل الرشيد إلا حاكماً ل(أنسابة).. لا يتوقع فراره أو رحيله المفاجئ.. لا يحب إحباطه، وإن كان لابد من فرار أو رحيل أو إحباط، فهو الرفيق في تلك المعاناة. كان في مستنقع الرعاع فرساً يستعد للتحوير حين حفر الرعاع ذلك السرداب الأمني.. حفروه بسرية سخيفة وبعيون مغمضة كان إبصارها هو إبصار الأمير مساعد.. ولابد أنهم كانوا يحفرون وهم لا يعرفون أنهم يحفرون طريق الضعف للرجل القوي.. وطريق الشتات للذهن الملتئم.. وطريق الإحباط للذي حكم (أنسابة) أكثر من عشرين عاماً دون أن يكون في قلبه إحباط. يفكر دمدوم بصعوبة، حتى الآن لم يحدث شيء.. ولا وردت أنباء حتى عن احتلال (هاشم درب) لسلطته التي نزع منها، ولابد أن هناك وقت لاحتواء المسألة لو كانت هناك مسألة.. لا يستطيع فهم السلاطين.. لا يستطيع فهمهم أبداً. غادرا فوهة السرداب والسلطان باليد في موضع البطن، ودمدوم بالتلف في الأعصاب.. ليت الحرب نشبت بالفعل.. ساعتها قد يفهم الكثير مما خفي عنه.

عدة أشهر يتوزع جو الحرب في البلاد كلها، تتناثر سيوف لعراك

غير حادث، وتشح السلع في الأسواق كأنها سلع حرب. عرب المجانين
يرصدون ويتحسسون ويقولون.. والعيون الواسعة التي أرسلها الأب
الشيخ (يوسف كرا) إلى ممالك الوسط للتجسس، تأتي بتوافه الأمور..

هاشم درب في صحة جيدة، ويأكل خروفا بمفرده..
امراته اقتنت ذهباً جديداً وعلقت على صدرها عقداً من العقيق
النادر.

جبهته الخضراء المذهبة كان فيها جيب إضافي لا تعرف محتوياته.
خصيانه يدقون طبول النحاس باستمرار.. وعياله زادوا ولداً.. لا
شيء.. لا شيء..

يعقد السلطان جمعة (الكوراك) عادية، وحالة للأنسابيين من كل
صوب، يجيب ويقهر ويفضها.. يتخفف في قصر المسك.. قد يرتعش
وقد لا يرتعش، وقد يشرب الورد الدافئ وقد لا يشربه، وقد يقول
ذنوبنا يا مسك وقد لا يقولها.. والظهوريون كتيبة الشرف. الرعاع ستر
السلطنة ولباس أمنها. الفقراء فقراء.. المترفون مترفون. الكبار كبار..
الصغار صغار.. الجنود المتحمسون وغير المتحمسين. الذين يعودون
من الحدود والذين يذهبون والذين يتصنعون المرض، والقوافل لا تنفك
تأتي تفرغ وتحمل.. لا شيء.. لا شيء..

أغنيات الحماسة المضمفرة من حلوق عدة، والقادمة من الريف أو
حماسة المدن.. وأحلام اليقظة عن السراري من بنات (دار الجعل)..
الجميلات.. العذبات.. المكسرات الطرف.. الغارقات في اللين
والتأوهات خصل الشعر وتلك الأغنية التي لا يعرف أحد من الذي
فصلها ومن الذي طيرها في الجو لتستقر على تذوق الكبار والصغار
والذين يملكون والذين لا يملكون.. ويسمعها السلطان والسلطانة،
وتطير منها ربات البيوت في مسكتهن:

يا بنات دار جعل..

يا بنات ويا حلوات
أنا أنسابي أعشق
ضحكة الحلوات.
يا بنات دار جعل
يا صاحبات الرقة
أنا أنسابي أعشق
الجمال والرقة.
يا بنات دار جعل
يا ساكنات القلب
أنا أنسابي عاشق
وانتو جوه القلب.

أكثر من خريف رش، وأكثر من جفاف جفف، وأكثر من مائة
شائعة تستعر، ومثتا خرافة ترتدي ثوب الحقيقة، وجاء الرعاع مرة بفرقة
للزار مكونة من اثني عشر فرداً، كانت قادمة من كردمال لإحياء عدد من
الحفلات في عدد من بيوت حي (عظمة رغد) النظيف. أمسكوا بأفرادها
في الحدود، كبلوهم بالحديد وكمموا أفواههم، قالوا جواسيس.. خونة،
وجاءوا بهم إلى السلطان رغد الذي ألقى عليهم نظرة واحدة فقط ثم أمر
أن يطلق سراحهم على الفور:

يأتون بالمهلهلين الباحثين عن لقمة الخبز بتهمة التجسس.. في عهد
الأمير مساعد لم يكن هذا ليحدث أبداً.

وفي واحد من شهور (رمضان) السخية في الحب، ونكران الذات،
والمناجاة، والنقية من سفك الدم، قدم إلى (جوا جوا) عدد من أعراب
قبيلة (المجانين).. كانوا على دواب منهكة، وبلا زاد، وعلى أجسادهم
ملابس رثة للغاية، وكانوا يحملون كتلة من اللحم مغطاة بالخرق وفيها

رائحة بكتريا خانقة.. التقوا بالأب الشيخ (يوسف كرا) في قصره، وطلبوا أن يلتقوا بالسلطان لأمر عاجل لا يحتمل التأخير. دبر لهم الأب ذلك اللقاء المتعجل بالسلطان، وكشفوا عن كتلة اللحم أمامه.. وكانت رأساً غزير الشيب وعابس الأسارير للسلطان (هاشم درب) سلطان كردمال الذي كان يتلملم لاستعادة عرشه.. ومستعيناً بملوك الوسط..

كانت صدمة حقيقية للسلطان رغد، صدمة الغريم حين يفقد غريماً يحب مناصبته العدا.. صدمة الزاهد في تلك الأيام المباركة حيث لا دم يسيل، وصدمة المختق من عفن البكتريا حين تأتي في رأس بلا حول ولا قوة.. لا حول ولا قوة.. لا حول ولا قوة.. ردها مراراً، وأطفأت حماس المجانين الذين لم يكونوا أصلاً أطرافاً في أي حرب ولا ناصروا سلطاناً ضد سلطان، وما تبعوا السلطان (درب) وذبحوه إلا طمعاً في جائزة.. لا حول ولا قوة.. رجتهم.. أخرجتهم من قصر الحكم أصفاراً.. ولكزتهم حتى الخلاء البعيد ليدفنوا جزءاً من ميت لم يكن سوى صفقة خاسرة.

راقبه دمدوم وهو يرى ويسمع وأحس أنه أمام رجل كبير لم يرد أن تنتهي شائعة الحرب هكذا.. رأساً مقطوعاً لعدو أعزل.. وبكتريا بلا عدد.. وتفاهة كبيرة.. كان دمدوم قد جرد (المجانين) من سيوفهم، حين دخلوا، وأبى بشدة أن يعيدها إليهم حين خرجوا.. كان تصرفه هو.. تصرف الظهوري الذي يتبع إحساساً آخر غير إحساس الجميع في (أنسابة).. إحساس سلطانه وسيده (رغد الرشيد).

وفي اجتماع الكبار الذي عقد على عجل وحضره الجميع بلا استثناء، كانت البهجة كاملة على الوجوه كلها.. الوجه الهرموني للأب الشيخ.. الوجه المفتي للاليا البرناوي.. الوجه التركي للترزي كردمان.. الوجه الركيك لأحمد برم عم السلطان.. وجه دوباجي الحكيم، وصبابي الذي انتفخ كثيراً بازدياد الطلب على سلعه باعتبارها سلعة شحيحة

في زمن الحرب.. لكن وجه السلطان كان منطفتاً وملفتاً للنظر بكثرة التجاعيد التي ركدت على صفحته فجأة.

مولاي السلطان لا أراك سعيداً بانتهاء الحرب.

صوت (يوسف كرا) الرقراق يحاول النيش..

- الحرب لم تنته أبي الشيخ.. بل ابتدأت.

يعض الرشيد على مخارج حروفه بشدة.. الحرب التي تنتهي هي حرب المواجهة.. حرب غريم لغريم.. سيف لسيف.. رمح لرمح.. لكن حرب الغدر لن تنتهي إلا بغدر أكبر.. يمد يده إلى ظهره.. يتحسس موضع الخنجر الحلمي الذي طعنه.. لا يتبعون الفطنة.. لا يفهمون الحياة إلا عجالة.. يشد يده من الظهر، يتحسس بها الجانب الأيمن حيث ما ظنه وربما غير مألوف.. اليوم ذبح المجانين رجلاً مخلوعاً، وغداً يأتي غير المجانين ليذبحوا رجلاً متمركزاً في حكمه.. قد تطول السنين.. قد تضاعف.. قد تأتي أجيال وأجيال، ولكن حرب الغدر لا تنتهي..

أغرقهم باليأس كلهم. غمرهم في مياه العميقة وتركهم يتخطون، ليس هذا (رغد الرشيد) الفارس.. ليس القديم الذي عاصروا بشاشته، ولا الباتر الذي شهدوا الكثير من بتره، يفكرون.. يفكرون.. لا بد أن موت الأمير مساعد أنهكه.. لا بد أنها أعراض من إحباط عارض ستزول.. يفكرون.. لا بد.. وحده (دمدوم) الظهوري كان يعرف.. ويعرف الكثير. فجأة:

- هل ما زالت (درة) العجوز تعمل في التنجيم أبي الشيخ؟

نعم يا مولاي ما زالت.

إذن أحضرها يا دمدوم.. لن نرسل إليها أحداً غيرك.. وأظنك تعرف جحرها.

سنوات طويلة تلك التي مضت حين توغل حالم صبي في أشلاء حي قديم لكنه نظيف باحثاً عن حظ.. يا إلهي.. لقد نسى فعلاً تلك

القراءة الرهيبة لحظه الرهيب.. القراءة التي ما طاش منها حرف واحد ولا التوى حرف.. الظهر ينحني بشدة.. امرأة تحب وتبصق.. وشيء عزيز يسقط.. يضيع.. يا إلهي.. تعود به خطوات ضد هذه المرة، خطوات شرفي مستثنى في كتيبة الشرف، تنبش في الحي كله محاولة التذكر.. ودررة المنجمة كانت كما هي، لم تضاف إليها أيام يؤسه الشخصي يوماً واحداً، نفس الوجه، نفس العينين، نفس اليد الكثيرة العروق، وقميص (الكستور) الأبيض المتسخ الذي بدا كأنه ذلك القديم.. عرفته على الفور وضحكت، لا يدري من هيئته أم من نصيبه. دعه إلى قهوة مرة وقراءة جديدة، فارتعد.. لا يريد قهوتها ولا قراءتها.. أخذها إلى مجلس السلطان مرتعشة، وكانت طوال الطريق تردد.. الستر الستر سألتها عن الستر.. قالت.. ليس الفضيحة، وسألتها عن الفضيحة.. قالت.. ليس الستر.. أسكتها بخشونة وجزّأها إلى المجلس خائفة القدمين.

أجلسي يا دة.. اقرأي علينا ما تريه من مستقبل البلاد.

كان جزء مستطيل من أرض المجلس قد عري من السجاد الذي يكسوه، وفرشت عليه رمال ناعمة ونظيفة تناثر على وجهها الحصى. بركت المنجمة أمام الرمال، استلمت الحصى وظلت تنثره وتلمه، وتنثره وتلمه.. وتنثره وتلمه وسط سكون يغلى، ونظرات تستعر وأذان تكاد تفارق مواضعها.. ثم التفتت أخيراً إلى السلطان:

- أرى المطر يهطل، (أنسابة) كلها خضراء، أرى بهائم ترعى، وخلقاً كثيرين يأتون إلى مجلس مولاي يوم الجمعة.. يأتون صائحين ويعودون راضين.. أرى نساء حوامل.. وأمهات يرضعن، وأرى بنات صغيرات يلعبن وسط أكوام من الذهب.

بشرى خير.. بشرى خير ردد الكبار في تهافت.. انفرجت أسارير السلطان قليلاً، لكن شيئاً في داخله كان يهتف:

كذب المنجمون ولو صدقوا.

عاد دمدوم إلى كوخه في سكنى الظهوريين في ذلك اليوم مشوّشاً، فقد كان انتقاؤه لحماية السلطان وحده في المجالس التي تنعقد وتنفض تلك الأيام، قد أثار ضغينة الظهوريين القدامى ضده، وبتحريض خفي من القائد (بابنوسة) انقطعت عنه الكثير من مزايا الشرف، وصار لقاءه بالزملاء في ساحات التدريب أو أمسيات الكآبة والملل، لقاء صامتاً لا تتخلله لمحة من صخب.. حتى (تمبولي) التنجري الذي كان رقيقاً قديماً ويحمل الدم القبلي نفسه، ما عاد يحضر، كان يكتئب بعيداً، وينشرح بعيداً.. لم يكن ذلك الأمر يقلقه في شيء، فهو في الأصل لم يكن من تلك الفئة، وما وجوده بينها إلا استثناء لوى فيه الرشيد عنق اللوائح.. لتكفير شيء من ذنوبه على الأرض كما يقول. تلك الليلة كانت خاصة جداً.. إنها ذكرى وفاة أبيه صانع الطبول التي غيرت مسار حياة أسرته تماماً. كانت تلك الذكرى وغيرها من الذكريات، هي الحاجيات التي دفنها.. طمس معالمها في المستنقعات التي مرت بها حياته منذ ذلك الحين. لا يعرف مصير أمه أو أخته بعد، ولم يسع أبداً لمعرفة ذلك المصير، واحترم عدم سعي الأطراف الأخرى لملاقاة مصيره هو الذي بات معروفاً في كل أنحاء (أنسابه). ظل السلطان الذي سيظل يتبعه مات أو فر أو بقي يحكم، في أفكاره تشاؤم هو الآخر، ورأى والده بعيني خيال مجروح يجيء وفي يده مسبحة غزيرة الطول، يضرب بها يميناً ويساراً.. نفخ رأسه مراراً ليفك الوسائس، يتخلص من الخيال والمسبحة، وسمع ذلك النقر الملحّ على باب كوخه. كان (تمبولي) الظهوري متسللاً، وتلفت في كل الاتجاهات كأنه يخشى أن يلمحه أحد.

ضمهما الكوخ الصغير وتعانقا كأنهما مقيم وعائد من سفر. ردد تمبولي:

لم أرد مقاطعتك يا دمدوم.. لكن الأخوة أرادوا.. باتوا يكيدون.

الأخوة هم الظهوريون.. مصطلح النداء المتبادل في كتيبة الشرف..
أخي.. أخوتي.. قاماتهم أخوة.. عواطفهم أخوة وكل عين ظهورية أخت
لعين ظهورية.

- لماذا يكيدون يا عجيب؟

- لأنك سرقت الوظائف.. حرمتهم من حضور مجالس الترفيه في قصر
المسك. في المواقب وذكرى الأعياد.. والسفر للحرب.. تبدو المهمة
شاقة وفيها قلق، ولكن في مجالس الكبار دائماً ما يوجد ترفيه. قبل
أن تظهر كنا نقسم أنفسنا هكذا.. ثمانية يحضرون وسبعة يبقون في
الأكواخ والآن واحد يحضر وخمسة عشر يبقون للملل.. للكآبة.. هل
رأيت؟

بالطبع قد رأى ولكن ما ذنبه ورأس السلطنة يريد ذلك.. وما دام
يريد فلن تسري إلا إرادته رضي الجميع أو أبوا. ألقى بنظرات غاضبة
على كيان تمبولي الذي كان الآن يتململ في الظلال الشاحبة، يخرج
من جيبه منديلاً متسخاً وقابضاً على قليل من تبغ (أنسابة) القوي الذي
كان سلعة رائجة ومحرمة على الظهوريين لا يقتنونها إلا خلصة، وبحجة
تدخله في اعتلال البصر، يمد المنديل إلى أنفه ويشم:

وماذا أفعل؟ قل أنت ماذا أفعل؟

من بين عينين تورمتا بفعل التبغ، ولسان أسود ومقشر، وأسنان
أكلها الجير بشراهة.. يردد عجيب:

أخبرنا بكل شيء.. أنقل إلينا ما يدور داخل مجلس (الكوراك).. لا
نريد أن نكون طرشانا في الزفة.. وعند ذلك فقط يمكن أن نحبك.
كانت تفاهة غريبة الشكل كما فسرنا (دمدوم) في تلك اللحظة،
يريدون أخباراً وشائعات، ويعتبرون الملل في تلك الجلسات المطولة،
ترفيهاً. كتيبة الشرف مثل غيرها من عقول (أنسابة)، كتيبة رعاى أخرى
لكن في ثياب مزركشة.

التفت إلى تمبولي بكله.. برأسه.. يديه وجسده الهرموني:
- أنا ظهوري حقيقي وليس غير ذلك، يريدني السلطان قريبه أكون..
يريدني بعيداً.. أكون، لا تحبوني.. لا تحبوني..

خرج تمبولي متقدماً من عند (دمدوم).. وكونه تنجري ومن اللحم
والدم نفسه، لم يقل يا خصي.. لكن أعماقه قالتها بالفعل، وقالها القائد
(بابنوسة)، والوائق وسماهيل وولد الجبال وكلهم. وتدريباتهم، وخمودهم
ونشاطهم، وانتظامهم وفوضاهم، وأيقن دمدوم وهو يغلي معهم، ويخدم
معهم، ويأكل معهم ويشرب، أن مسألة كنس الضمير السلطاني من شوائبه
والتي جاءت به وسط هذه الفئة، لم تكن في الصالح أبداً.. وأن محوراً
مثله قد يكون سعيداً وهو الخادم المثير للسخرية، أو دالِق ماء الورد في
تلك الاستحمامات الرهيبة. لكن السلطان أراد ذلك.. ولا مفر.

-23-

هل هو مرض (الهيضة) الذي يصيب الطحال بالجنون، بالعمى، بالتمرد، ويؤدي إلى موت الخلايا في الدم وتعفنها؟
هل هو الهبوب الذي ينتج من التواء مصران على مصران، وشریان على شریان، وعضو حيوي على عضو حيوي، ويؤدي إلى إيذاء العقل بضخه للبكتيريا؟

هل هو (كالازار) الأحشاء الذي تسببه طفيليات (الشريريا) المقيمة بشكل دائم في أجواء (أنسابة) وتساهم بفعالية في خفض الإنتاج والمعنويات؟ أم هي أعراض هلامية منبعها النفس المتوجسة للسلطان رعد.

جمعة عادية من جمع (الكوراك) جاءت ويلاحظ (دمدوم) ويلاحظ الكبار المجتمعون أيضاً، أن الرشيد أضاع ردوداً فخمة على صياحات فخمة، وأجاب بأهات ألم مر على صياحات كانت بعيدة تماماً عن درب الألم.

جاء عدد من زعماء الأرياف.. كانوا فرحين وصاحوا شاكرين ومقدرين، ومنوهين بخيرات بساينهم وحقولهم التي أنتجت مضاعفاً، ويتوقعون موسماً من حصاد لم يحدث من قبل. واستلموا تحايا سلطانية فيها خمول وكسل وأهات.

جاء عدد من تجار القوافل من الحجاز واليمن وأفريقيا السوداء، صاحوا مودعين للسفر وشاكرين لحسن الضيافة، وذاكرين ما لمسوه من انتعاش كبير في حركة البيع والشراء بعد أن خفت حدة شائعات الحرب وبدأ الناس يتذوقون الحياة.. ولم يصلهم من ذيل السلسلة أي انفعال أو

تحية.. امتلأت السلسلة بصياحاتهم وعادات فارغة. واضطر الأب الشيخ (يوسف كرا) أن يلاحق السلطان مراراً.. يسأله عن الخطب وإذا أراد أن يلغي الصياحات لتلك الجمعة، لكن السلطان لا يكثرث، يواصل جمعته وعلى ذلك النسق الغريب. تدخل (دوباجي) الحكيم الذي شم الخطب بخبرة العجوز الذي قد لا يفهم كثيراً في الطب، ولكن يملك الخبرة التي توازي فهم الطب..

مولاي أنت مرهق.. أنه الجمعة والزم سرير الراحة.

والرشيد لا يقبل.. يواصل ويواصل حتى انتهت الجمعة بزمن الانتهاء العادي، وخرج الكثير من المعمرين وقد عاد إلى أذهانهم سلطانهم القديم (نفر المقدم) في آخر أيام حكمه حين كانت جمع (كوراكه) فصولاً بلا نهاية من دراما سمجة..

السلطان ليس على ما يرام.. وانطباع أخذ بتلهف، تم تداوله بتلهف، وطاف على أحياء (جوا جوا) والقرى والمدن والبلاد كلها، وكاد أن يقفز إلى بلاد الوسط التي كانت تناصر السلطان (درب)، عبر كردمال، لولا أن الرعاع أوقفوا سريانه في الوقت المناسب.. كان يتألم.. ليس على ما يرام.

في تلك الجمعة أسنده (دمدوم) بعادة الإسناد في أوقات تدهور المعنويات التي تكررت كثيراً في الآونة الأخيرة، حتى المخدع السلطاني، حيث استعرت حمى مباغته لم تلق بالآ إلى التعب، إلى الألم، أو انقلاب الوجه.. مسك النساء تستعر:

- وعدتني بمنحي لقب (الأيكيري) الذي يصيرني أما مبعجلة للجميع، ويطلق يدي "في ما أريد، ولم تف بالوعد، ماذا تنتظر يا رغد؟.. أن أكس من القصر الذي شيدته أنا؟ أن ألقى إلى الطريق؟

يداك مطلقتان بالفعل يا مسك.. ولقب (الأيكيري) قد يصيرك محترمة ويقيدك، ثم هذا لقب السلطانات اللاتي ينحدرن من (آل ضو) وليس

من آل النكرات وحلوى الدردام.

كان صوته قد ارتفع إلى أطول من قامته الطويلة.. استعر، أج ويد الخواتم لا تفارق البطن، الإساءة بالغة، وقذف الذكرى الأليمة لأرملة بائع الدردام إلى ذهنها بعد أكثر من عشرين عاماً على تفخخها كسلطانة، قد ألهب الحمى أكثر

- لم أسع نحوك إلا كمواطنة تسعى إلى لقمة العيش.. وكونك تزوجتني ونصبتني سلطنة، فقد كان هذا باختيارك.. ولم أجبرك.

لقد حدث ذلك بالفعل.. يفكر الرشيد.. حدث وباختياره التام في لحظة الشبق التي كانت حتمية ولا مجال لردعها.. لكن:

وعدتني أيضاً بتعيين ولدي (فاخر) ولياً لعهد السلطنة، ولم تصنع شيئاً.. كانت حجتك في ابنك التافه مساعد الذي لم تحب ولدأ غيره، والآن ذهب في ستين داهية.. ماذا تنتظر؟ تريد أن يتكالب الأخوة على السلطنة بعد أن ترحل؟ أو يأتي ابن عمك (الرأس) من تلك الجبال ليصير سلطاناً؟

فاخر في السابعة من عمره.. وأخوه (المقدام) في السابعة عشرة، وأخوهما (نفر) في العشرين.. وكلهم أولادي الذين لهم الأهواء نفسها.. والتدريب نفسه، والحياة نفسها.. والآن من أحق؟ صبي السابعة أم رجل العشرين؟ وبالنسبة لابن عمي فليأت إن استطاع. وما دمت تعتقدين في رحيلي فدبري أمورك.

كيف أدبرها، وكان بإمكانك تعيين مجلس وصاية لفاخر حتى يكبر.. لم تعد تحبني يا رعد.. لم تعد تحبني..

تبكي ويحتد، ويستغرب دمدوم فعلاً أن تطرح مسائل كهذه في يوم جاء فيه السلطان القوي مسنوداً على كتف واحد من الخصيان، أحس بالسلطنة محرّكاً كبيراً للآلام ربما أكبر من أعباء إدارة السلطنة والفقر وشبح الحرب.. لو كان مكانها لاقترب من رعد الزوج.. رعد الحبيب

وشهق في لحظة دخوله مسنوداً بعد جمعته المرهقة، لوضع يدا على جبهته، ولبسما من العطف على مكان الألم، لكن واقع الأمر يختلف، والذي يقف الآن يرى ويسمع ويتفلسف في سره، ما هو إلا عين ليست في مكانها الصحيح، وما وجودها إلا بفعل ذلك الإصرار الغريب لكنس الضمير الذي يمارسه السلطان منذ أن اقترب منه.. التفتت السلطانة فجأة ناحيته، قاسته من رأسه إلى قدميه، ولم تصرخ في وجهه كما كان يتصور، بل أحس بلسانها يمتد من حلقها، يبلل الشفتين كأنها تتذوق طعمه، ولمح يدها تتحرك إلى مواضع البعثة في الشعر، تلمها، وفي الثوب، تعدلها.. لكن المساء مضى، وأمسيات كثيرة مضت، وجاء دوباجي وكثير من حكماء السلطنة الكبار، ليخضعوا السلطان لذلك الفحص الكبير الذي لم يتركوا فيه موضعاً إلا جسوه، ولا خلية إلا استوثقوا من أنها خلية حية، وكانت النتيجة.. لا شيء.. لا شيء أبداً.. وحين عادت جمعة الصياحات التالية، كانت عادية وأمضاها السلطان بالحضور القديم الذي تشوه في تلك الجمعة الغربية.

هبطت القافلة الجديدة في مهبط القوافل المخصص في سوق (جوا جوا) فجأة في ذلك النهار، وأحاط بها الرعاع من كل صوب مانعين فضول الطريق من الاقتراب. لم تكن إحدى القوافل التجارية المعتادة التي تأتي من طرق التجارة المتشعبة، ولا قافلة من تلك التي قد تضم وفدا رفيعا جاء لقرص أذن أو تقديم نصيحة، ولا كانت من قوافل الإغاثة الخيرية التي يقذف بها العالم من حين لآخر ذرا للرماد في العيون، ولكنها عدد محدود من البشر كانوا مسلحين، ومئات من الإبل تحمل صناديق مختومة بالشمع. وكأن السلطان كان على علم بها قبل أن تهبط بساعات، لأن أعضاء مجلسه الكبار استدعوا في ساعة مبكرة من ذلك النهار، والظهوريون أيضاً نبشوا من أكوأهم حول قصر المسك لمرافقة السلطان في مهمة بدت واحدة من المهمات الجليلة.

كان الموكب الذي نبع من قصر المسك بعد ذلك، وصب في مهبط القوافل، عبر طرق (جوا جوا) الموحلة والملتوية، كبيراً بعض الشيء، لأن العامة في الطرق والذين تبعوا إحساساً غامضاً، قد كبروه، وأزياء الفضول التي تبعثرت لدى رؤية السلطان مخترقاً الشوارع في يوم عادي ليس يوم عيد ولا يوم نعمة، ولا ذكرى جلوس على العرش، أعطت لذلك الموكب طعم المواكب التي ربما كان وراءها خير. وصلوا إلى مهبط القوافل، وترجل السلطان أولاً يتبعه الكبار، ودمدوم، والظهوريون الآخرون الذين حرموا من جلسات الترفيه المغلقة، وأنسح الرعاع المحيطون بالقافلة طريقاً مستقيماً بعض الشيء نفذ منه السلطان وموكبه إلى مكان الإبل والمسلحين الذين كانوا الآن وقوفاً بنظام ورافعين تحايا قوية في وجه السلطان:

يا صاحب العظمة.

البارود في أنسابة.

ردد الرشيد..

البارود عندنا.. لغة الحرب الجديدة عندنا..

كان يردد ويتسمم، والكبار يتسممون، والظهوريون التوت أعناقهم في التحديق بحثاً عن منكر، ربما يتربص بتلك الابتسامة. وفي حقيقة الأمر وبعد رسائل سرية عديدة، أرسلها السلطان، وردود أفعال عديدة تلقاها وبسرية أيضاً، وافق (أولاد جون) الأوروبيون كلهم بلا استثناء على تسليح (أنسابة) بالبارود.. لغة الحرب الجديدة وجدوا في السجل الذي تدارسوه بإمعان وفي مرات كثيرة، بقعاً من الدم جف بعضها وما يزال بعضها حيّاً يتحرك.. وبمقارنة السجل بسجلات دول أخرى، تقدمت لنيل حصتها من لغة الحرب المطورة، وبعد تعهدات من السلطان بتبعية لا يعرف كيف سيدبرها، تمت تلك الموافقة. كانت هناك حادثة السلطان (هاشم درب) الذي جاء (المجانين) يحملون رأسه على خرق ممزقة،

والتي وصلت إلى بعيد بواسطة العيون التي لن ينقطع بصرها عن رسم عيوب الدول، لكنها اعتبرت حادثة فردية قام بها أعراب من البادية طمعاً في جائزة.. ولم تدخل سجل (أنساب) الدموي.

لغة الحرب الجديدة..

بدأ المسلحون يزيلون الشمع المختوم أمام السلطان وكبار سلطته.. وتحت ستار من الرعاع يفصل العامة عن التحديق.. فتحو صندوقاً كبيراً وظهرت الكتل السوداء المغلفة بالسيلوفان، وفتحوا آخر، وظهرت البنادق.. الأسلحة التي تسحق غزاة مسرعة في الركض، وترمي جملاً محملاً من طوله. يتسم الرشيد بلا أية أعراض للتوجس أو ضيق النفس التي ظلت تلازمه في الآونة الأخيرة، وكادت أن تُشخص (هيضة) و(هبوباً) واستسقاء بطن. ويفكر (دمدم) بعمق وهو يحمي الظهر، يفكر في سرداب طوله نصف السلطنة فيه زاد وفيه أمل، وحفر بدماء مقهورين لا يمكن أن تكون سجلتها عيون التقصي التي ساهمت في منح البارود. يفكر في لحظات ضعف أكيد مرت وكان سنداً فيها، وسرحان غريب في الجمعة التي لا تتحمل السرحان، ودلائل أخرى متشعبة كانت تشير إلى أن الرشيد قد دفن شهوة الحكم، ويتطلع إلى مصير جديد. لكن الأمور الآن مختلفة والبارود تم جلبه في سرية، والبارود لغة العصر التي تؤكد البقاء والتمركز، وامتداد شهوة الحكم إلى أجل غير معروف..

سندرب الجنود على استخدامه.. وكذلك الظهوريين، وبعض الموثوق بهم من الرعاع، هل أنت معي أبي الشيخ؟

الذهن الرقراق معه بالتأكيد.. معه في انبهار شاق يحاول أن يستوعب اللغة الجديدة.. كيف تعباً البنادق؟ كيف تفجر الألغام؟ كيف يسقط جمل من طوله بلطمة واحدة من تلك الكتل المغلفة؟.. ما أغرب التقنية التي لا تتوفر إلا عند أولاد جون..

- نعم يا مولاي.. أنا معك.. لكن من يدرهم؟

هؤلاء.

يشير إلى حراس القافلة المسلحين بأسلحة شبيهة بتلك التي كشفت عنها الصناديق..

- سيمكثون في السلطنة إلى أن يتقن الجند تقنية البارود، والآن خبثوا سلاحكم في مخابئ أمينة، واکرموا ضيوفكم.

يتحرك موكب السلطان من موضعه في مهبط القوافل، ويتحرك البارود بأيدي الرعاع إلى حيث يدفن في أقبية بعيدة، ويؤخذ مرافقو القافلة إلى قصر واحة (جوا جوا)، كي يكرموا في ضيافة قد تطول وقد تقصر، وقد تنتهي فجأة إذا جد أمر ما. وتلك الليلة بالذات يقترب (دمدوم) من أذن السلطان، يحاول محادثته عن غوامض ما استطاع أبداً حلها، لكن لا يستطيع.. يلقي بالسؤال إلى طرف اللسان، ويستعيده.. مولاي لا أفهم.. هل استعدتم الثقة التي كانت مفقودة في تلك الليالي الكثيرة الإحباط؟ هل ستردمون السرداب الأمني؟ لكن السلطان يقرأ.. ويجزم (دمدوم) أن الرشيد هو أعظم قارئ للأفكار صادفه في حياته..

ماذا يا دمدوم.. هل تستغرب؟ البارود قد يحل مشكلة (أنسابة) في حرب المواجهة، لكنه لا يجدي في حرب الغدر.. التي لا تأتي من الفوهة ولكن من القعر.. هل فهمت؟

بالطبع لا يفهم، يحاول الفهم ولا يفهم، يدور بالجواب في عقل الهرمونات من خلية إلى خلية، ويعود أبلها كما هو.. والرشيد يقرأ:

حين يجيد الجيش استخدام تلك الأسلحة، تأمن البلاد أو تملك الأمل، هذا ما استطعت أن أقدمه لشعبي، ولذلك تجدني سعيداً.. أما بالنسبة لي فما هي إلا هنيئة وتتغلب الأهواء على.. لا تستغرب.. أنا أحكم (أنسابة) الآن بصعوبة كبيرة.

يتدحرج دمدوم إلى البله أكثر.. فما دام الأمر لم يكن مرضاً في واحد من أعضاء الحياة الهامة.. وما دام البارود قد وصل وصار في

اليد.. وما دام العدو القديم قد مات ودفن في تربة (أنساب) الموحلة..
فأي هنية تلك التي يتحدث عنها؟ لا يفهم السلاطين.. لا يفهمهم
أبداً.

الآن خبر البارود وقد انتشر. واللغة التي لن تكون أبداً سرية في
بلد لا يولد فيه السر إلا ليتوزع، موجودة بالفعل في كل بيت.. كل
شارع.. كل مدينة وقرية وجبل.. والشكل الذي ما استطاع العامة التحقق
منه، يوصف بالتخيل الذي لا يستطيع الرعاع منع أحد من تخيله.
البنادق توصف بأنها أفخاذ إبل لكن متحجرة.. جذوع هجليج يابسة..
والرصاص يشبه بثمار شجر السدر، والكتل المتفجرة.. هي بالضبط
صخور جبل (الكراديس) التي كانت تجلب إلى (جوا جوا)، وتستخدم
بعد نحتها وتسويتها كموائد لطعام الفقراء. ظهر في الأسواق زي نسائي
أسود كان اسمه ثوب البارود وولد أطفال كانوا في رحم أمهاتهم حين
وصلت القافلة، وسموا (بارودي) و(بارودة).. ويحلف الرجل صائحاً..
أطلقك طلاق البارود، ويلعب الصغار لعبات خشنّة ومؤذية أسموها
حزام البارود. وينط الخبر إلى كردمال.. جلبوا البارود.. جلبوا البارود،
وإلى ممالك الوسط حيث (0 الأصم) وأصهاره زعماء تلك الممالك،
والذين ضحكوا بشدة، وكشفوا لأول مرة عن سر كبير كانوا يدسونه
بحرص.. البارود عندنا.. وعندنا منذ سنوات طويلة.. ودعموا ذلك
الكشف بالفعل حيث تجمع مواطنو تلك الممالك في ساحات كبيرة
ليشهدوا ذلك التفجير التجريبي لكتلة ضخمة من السر الذي انكشف.
وينط الخبر المجدد عائداً إلى كردمال.. إلى تخوم (أنساب).. وعرب
المجانين بعطايا الأب الشيخ وجوائزه لا يقصرون:

البارود عندهم ومنذ سنوات طويلة؟ ما هذا الكلام السخيف يا يوسف

كرا؟

- هذا ما وصلني يا مولاي.

وهل أنت متأكد؟

-كل التأكيد يا مولاي.. عرب المجانين لا يكذبون في شأن خطير كهذا.

إذن فقد تدربوا على استخدامه.. ولا بد أنهم تفوقوا.. وتقول ثيراناً في أحواض برسيم.. من هو الثور حقيقة أنت أم هم؟ لم تعد تعجبني أبي الشيخ.. لم أعد أنبهر بك.

كان صوته في تلك اللحظة أعلى صوت لسلطان في مجلس نقاش، واليد التي رفعها في الهواء وهوى بها على الأرض، أعلى يد ترتفع وتهوي.. وأحس الأب الشيخ بأن الصوت قد جرحه، واليد قد هوت على صدغه، وتعكرت هرمونات دمه بالكامل. كان حتى تلك اللحظة رهناً لإشارة مولاه (رغد الرشيد)، يميل حين يميل ويعتدل حين يعتدل، لكن الإساءة بالغة.. بالغة جداً.. ثور في حوض برسيم.. وما دام السلطان قد بدأ.. فلن تكون إلا نهاية لا يمكن بلعها بأي حال من الأحوال. خرج السلطان مستنداً على كتف ظهوريه الهرموني، وخرج الأب الشيخ مبثر الوجه، وهائماً في هواجسه وجرحه وإحساسه بألم صفعه كانت تقصده.. الأشياء تتغير.. الناس يتغيرون، وما كان طاعماً بالأمس، قد تسد مرارته الحلق في يوم يجيئ.

-24-

كان لأحمد برم عم السلطان ذي اللسان الريك الراطن، ولد في أربعينيات العمر اسمه (صرحي)، وكان يلقب ب(الرأس) لأنه خرج إلى الحياة بمؤخرة شديدة الضالة وبقي رأسه الكبير الحجم محشورا في رحم أمه لعدة ساعات قبل أن يتم استخلاصه. نشأ الرأس وتربى وسط أمراء السلطنة الآخرين، نفس الحياة المترفة، نفس رضاعة الغطرسة، وفي سن مبكرة ظهرت عليه آثار التمرد على سلطة الرشيد.. كان يأتي بتحليلات غريبة تنادي بعزل السلطان الذي لم يأت في موعده ولكن غصبا.. حكايات شفاهية عن انتزاع السلطة من (آل برم) الذين كانوا هم الوارثين الحقيقيين وتحولها إلى آل المقدم.. أعمامه.. لم يكن يملك سندا، ولا جرت الأمور كما تخيلها، وحاول الرشيد في مرات عديدة أن يحتويه، يمنحه كتيبة ليقودها، أو شلة من جباة الضرائب ليرأسهم، أو قافلة تجارية تبعده عن مناخ (أنسابة) قليلاً ووضع مرة عضواً في سلسلة نقل الصياحات السباعية. كان (الرأس) عنيدا، وموغلا في التمرد وابتدأ يجمع المؤيدين لإفراز لسانه، واضطر السلطان في النهاية إلى اعتقاله، ونفيه إلى الجبال البعيدة بحراسة عشرين من الرعايين يتم استبدالهم كل بضعة أشهر، وذلك خوفا من تمردهم في جبال القحط تلك، أو رضوخهم لصدقات مريبة قد يحاول (الرأس) إنشاءها. كان إجراء صعبا، وأحدث توترا في علاقة الدم ولم يتم تجاوزه إلا بصعوبة كبيرة. كان الأب الشيخ (يوسف كرا) أحد الذين هضموا تمرد (الرأس) وحاول الأخير إغراء بمعاودة الرشيد في زمن بعيد.. فأبى بشدة، وكان يزوره من حين لآخر بناء على تعليمات السلطان..

(اطمئن على أحواله أبي الشيخ.. مهما يكن.. فيوجد الدم.. وتوجد الرحم).

كانت آراؤه التي يثبها في حضرة الأب الشيخ هي نفسها آراء الشهوة التي لم تتغير، وقد شم فيه (كرا) رائحة سلطان ربما يمنح الكرسي نكهة ما.. حاصره ذلك الشم مراراً، وكان يقتلعه، يفلت من حصاره بصعوبة.. فحتى تلك الأيام كان السلطان سلطاناً.. والأب الكبير أباً كبيراً.. ومواثيق بناء السلطنة التي وضعها (يوسف ضو)، راسخة في العمق لا تتزعزع.. والآن.. ثمة هواجس للنفس تأتي وتذهب.. واهتزازات متكررة يهتزها السلطان، وتهتز لاهتزازة الهيبة الموقرة.. في الماضي ما كانت شائعات الحرب تذهب بابتسامته، خسائر الحرب ما كانت تضنيه، وحتى لو فر الجنود كلهم كان يحارب.. يربح.. يخسر لا يهم.. الآن يرفع الصوت أكثر مما يجب، يعلق اليد في الهواء ويهوي بها في تلك الصفحة المعنوية، ويخرج دائماً ودائماً وهو متكئ على كتف خصي نكرة ما كان يجب أن يقرب بتلك الدرجة..

وصل الأب الشيخ إلى قصره العامر في بقعة قرية من قصر المسك.. قصر (المشاورة) كما كان يطلق عليه، والقصر الذي كانت جواربه المدللات والمتنوعات مشارا لحسد الكثيرين.. وكان عبيده بمواصفات خارقة ويغطون ضوء الشمس لو خرجوا.. جلس على مقعد يحاول الاسترخاء.. ولم يستطع، كان (الرأس) يأتيه قافزاً، يأتي بهيكله الفارع، وعينيه المدورتين، وأفكاره التي ما كان يستطعمها سابقاً والآن تبدو ذات طعم.. ينحشر في عقل استرخائه، يشده.. ويدفع بالسؤال الحار.. والحار جداً:

ماذا لو أصبح الرأس سلطاناً لأنسابه؟

ماذا لو تغيرت وراثة الحكم.. خرجت من آل نفر المقدم.. وذهبت إلى آل (صرحي الرأس)؟

حتى هذه اللحظة هو أطوع للسلطان من بنانه.. لكن الطاعة قميص قد يضيّق وقد يتمزق، والبنان قد يشل وقد يتلف، وما دام الرشيد قد سعى إلى تمزيق القميص.. فليتمزق.. فليتمزق..

رددها مراراً وبصوت الهرمونات الرقراق، الذي لم يكن من المفترض أن يكون صوت الهيبة، ولكن الصوت المستلف.. الصوت الذي ينبع من مكان آخر.. في الغد سيقوم برحلة إلى منفى (الرأس) ليتأكد من شكله، وصلادته، وصلاحية الأفكار التي يحملها.. سيقترح على السلطان ذلك، وسيوافق السلطان لأن أشهراً طويلة قد مضت منذ زاره لآخر مرة، سيوافق، وقد تكون الموافقة الأخيرة في حياته.. في وسط تلك الأفكار لم يمنع نفسه من السؤال.. هل يحب (رغد الرشيد)؟ كانت إجابته على نفسه صمماً تاماً.. في مثل تلك المناصب لا يوجد حب.. توجد أقلمة للنفس تنام ساكنة ومتى ما بدأت تصحو.. فلا بد من شيء.

الصباح التالي يحمل رائحته وتميزه، وكونه الصباح الذي جاء بعد أرق وسهاد ومعاناة، وشجار حاد بين نفس تريد ونفس تأبى ومصرع النفس التي تأبى الخيانة أخيراً وإشرافات الصباح تلوح في الأفق:

-مولاي السلطان.. منذ مدة طويلة لم نتفقد ابن عمك الرأس.. شغلتنا هواجس الحرب عنه.. وأخشى أن يغضب الشيخ أحمد برم.. هل تسمح لي بالذهاب إلى جبل (برتي) لاستوثق من أمره وإن كانت قد غيرته سنوات الحبس الطويل؟

- اذهب يا كرا.. رافقتك السلامة..

بالجلافة نفسها، بالصوت المرتفع نفسه، وبإشارة من يد الخواتم المرفهة فيها كنس.. كأنه كنس لقدارة ما.. وينهض مستنداً على كتف خصيه النكرة.. والكبار الآخرون ما بالهم.. كأنهم طيور محبوسة في قفص.. حسناً يا رغد.. أيام لك.. ويوم عليك.. يوم واحد فقط وبلا زيادة.

ركب (يوسف كرا) في قافلة مخملية تضم عبيده المخلصين، وبعضاً من جواريه الناعمات، وزاداً نظيفاً ومرفهاً يكفي لرحلته الطويلة ويفيض. كانت الجبال بعيدة جداً، والطرق إما قاحلة وإما وعرة، وإما تشق قرى تسكنها الهوام وديدان الأرض. لقد كان الأب الشيخ معتاداً على تلك الرحلات، يقطعها جليلاً ومهاباً، وما حطوا في بقعة للاسترخاء إلا جاءه الريفيون محيين، ومقبلين للأيدي، وأيضاً ناحرين لخراف الضيافة ومقدمين لعصائد الدخن والحميض. لكن الرحلة الآن مختلفة، رحلة المكيدة التي قد تبقيه جليلاً مهاباً إلى الأبد، أو تهوي به إلى حفرة سحيفة في باطن الأرض. في موائق (أنسابة) يوجد عرف لا يغيره أحد، والأب الشيخ.. وظيفة الخصيان تأتي بوصية من خصي إلى من يخلفه، وما دام الوزير الكبير يخضع للسلطان بالقلب كله، والعقل كله، والشفافية كلها، فقد لا يحدث شيء ولكن في حالته هو.. توجد دلائل كثيرة على أنه ما عاد الكبير الحقيقي فعلاً.. لقد خاف كثيراً من (دمدوم)، وعاد ليدفن الخوف.. ثم تأتي الجلسات الأخيرة بالخوف مرة أخرى.. الكتف النكرة في مواجهة الكتف الجليل.. والنكرة هو الذي يربح.. رحلة الجبال صعبة وأفكار النفس تجعلها رحلة توتر حقيقي.

في إحدى تلك القرى المحيطة بالجبال، التقوا برفيين كانت أرضهم قاحلة، وهياكلهم جذوع متخشبة، وكانوا غاضبين وسلموا الأب الشيخ كتاباً إلى رأس السلطنة أبدوا فيه تدمرهم من جياة الضرائب الذين يأتون مرتين في العام، والحصاد لا يحدث إلا مرة فقط.. كيف يحدث هذا أبانا الشيخ؟

طمأنهم (كرا) كثيراً، قال سينصلح الحال، وكانت (ينصلح) التي أصر على تكرارها مرات ومرات، هي (ينصلح) الكائنة التي كانت تعدها هرمونات الحق داخله، وتبهرها ببهار ما سيحدث.. وحين وصلوا إلى سلسلة جبال (مادبو) التي يقيم (الرأس) في واحد من كهوفها في جبل

(برتي)، كانت فكرة الأب الشيخ ناضجة، وعلى نار هادئة.. نار الرحلة الطويلة الصعبة.

أول ما فعله الأب الشيخ حين وصل إلى كهف السجين، هو أنه شرع في تفحص (الرأس) في أغلاله وبعد أن أزيلت منه. وابتدأ يفكر في صياغته كسلطان قادم إلى عرش أنسابة:
الliche البيضاء يمكن خضابها..

الرأس الكبير الذي غدا أصلاً، تهدمه عمامة الضباب الفخمة.
الساقان اللتان تقوستا من جر أثقال المعاناة، تعتدلان تحت الجبة الخضراء المزركشة. اللسان مهما كان ركيكاً، يمكن غسله، ولون البشرة الداكن بفعل شمس الجبال التي لا تغيب، تضيئه القناديل في قصر (المسك) أو قصر (الرأس) أو أي قصر.. لا يهم..

نهض إليه، قبل رأسه وناداه بمولاي لأول مرة في تاريخ زيارته التي كانت بلا عدد، وطوال سنوات ماضية. والرأس ليس غيباً، ولكن في ذهنه غباش من أثر حميض الجبال المر تحدث بهدوء وهو يثبت عينيه على وجه الرجل الكبير:

ماذا يحدث في (جوا جوا) أبي الشيخ؟
عاهدني أن تكتم السر أولاً
همس (يوسف كرا).
أعاهدك..

ردد الرأس في همس مماثل، وبانت أسنانه مقبولة بين شفثيه غير المقبولتين في الوقت الحاضر من كثرة ما امتصتا من الجير والرطوبة والتهاب اللثة.

بيني وبينك فقط يا مولاي..
بيني وبينك فقط أبي الشيخ.

ناشده (يوسف كرا) أن يغتسل، وأخرج من جيبه مصحفاً صغيراً
مطعماً بخبز الأبنوس، وضعه أمامه، وناشده أن يحلف عليه بالرغم من
قناعته السابقة أن الرأس لم يكن من الذين تمنعهم حليفة من نقض عهد.
لكنه المتاح.. المتوفر والذي قطعاً سيمضي في المكيدة حتى نهايتها.
وفي صوت رقراق وهامس قص عليه قصة الهواجس والزوغان، وكفت
الخصي النكرة، والإخفاق الكبير في ملء الجمعة الصائحة وشعب
(أنسابة) الذي بدأ يلاحظ، لم يقل شيئاً عن البارود باعتباره مصطلحاً
جديداً على (الرأس) قد يستغرق وقتاً طويلاً ليفهمه، واكتفى بالقول إن
(أنسابة) الآن كاملة النمو.. كاملة العتاد وجاهزة للوقوف في وجه أي
عدو، ولا ينقصها سوى رجل.

ومسك النساء.. هل لازالت هي الأثيرة؟

طبعاً.. وتستنزف الكثير من موارد السلطنة.

وهذا الخصي النكرة الذي تتحدث عنه من أين جاء؟

هو ولد صاح في إحدى الجمع مطالباً بوظيفتي.. وعاقبه الرشيد..
الذي كان.. عاقبه

ببذاء الألسنة، ثم اقترب الولد منه بعد ذلك.. إنها قصة طويلة..
ستعرفها بالتأكيد.

ضحك الرأس ولكن في همس، انتشى في همس، وتسارعت
ضربات قلبه في همس شديد جداً. هي نفسها الصفقة التي أراد إبراهيم
مع الشيخ منذ عشرين عاماً، والآن تعود إليه، وفي كهف مظلم في جبال
بعيدة.. ما أغرب ذلك؟

ولكن كيف نتزع السلطنة من (وغد الرشيد)؟.

قال وغداً، ولم يقل رغداً، وأعجبه التسمية، افترت شفتاه مجدداً،
وخرجت من بين أسنانه ضحكة هامسة برائحة الحميض ولون الجير.
- دع الأمر لي يا مولاي.. وقريباً جداً آتيك بالأخبار، فقط تمسكن..

أبك بغزارة.. صر أبلهاً.. لا مؤاخذه، حتى أستطيع أن أقربك من العرش وبعدها تتضح الأمور.

الرأس ليس غيباً، والرأس يملك الأهواء التي لم يستطع كتمانها وقذفت به إلى ذلك الجحر، وتتجدد الشهوة في دمه بتجدد الظروف.. رجل (أنسابة) الكبير يأتيه.. وقطعاً يملك المخرج، ويستطيع أن يضعه هناك حيث حلم دائماً.. يتمسكن.. يبكي.. ويصير أبلها بالريالة وحتى قبل أن يغادر الأب الشيخ مكانه.

تركوا له تغذية جديدة لتنظيف أحشائه، ومرطبات للوجه لفرد تجاعيده، وكمية من الأكاسير المختلفة لتعديل ساقيه المقوستين ومزاجه البربري بفعل البيئة. وأيضاً منحوه خضاباً جربه أمام الشيخ حتى يستطيع أن يرى اللحية مصبوغة.

ينهض الأب مستأذناً في الرحيل ويبقى وهم السلطة الذي زرعه في تلك الجبال وهماً كبيراً لا يحاول الرأس أن يتفادى مضاعفاته ولكن ليغرق فيها.. ولأول مرة منذ عشرين عاماً رأى بعيني الخيال قصراً فخماً.. أحصنة تسابق الريح.. جوارى لذيذات الطعم من لحم فارس والحجاز ومصر، وحنائن غناء ترتع في نضارتها البيغوات التي سمع عنها في القصص.. وهم السلطة الذي صيره سجيناً منكشاً إلى أقصى حد.. يحاور الداخل، ويأبى الجلوس إلى سجانيه الخشنتين، يحدثهم بركاكة كما كان يحدث في السابق.. السلطان (صرحي الرأس).. ما أحلى الرأس حين يسبقها صرحي، وما أحلى صرحي حين تأتي لصيقة بالرأس.

الحمد لله على سلامتك يا كرا.. كيف وجدت ابن عمي الرأس؟..
الجلافة.. الجلافة.. الكنس.. الحمد على السلامة المُرّة.. التي هي في الواقع لا حمداً على السلامة.. ولا أي شيء آخر.
- تعيس جداً مولاي الرشيد.. أبله ومسكين وفاقد لصفاء الذهن.. لقد

تأدب وحتى لو أطلقته في شوارع (جوا جوا)، فلن يكون إلا أبلها
يتبعه العيال، ويلقون على جسده الطوب.

يستمع الرشيد وفي ذهنه لا شيء، يرفع العينين ويخفضهما، وفي
ذهنه لا شيء. كان (صرحي) في الواقع رأس فتنة بعيدة طواها الزمن،
ونفي إلى تلك الجبال لأنه كان يستحق النفي، ولم تكن ثمة عقوبة
أخرى أخف. وما دام قد توقع فقد تاب، وما دام قد تاب، فلا بأس من
عودته إلى (جوا جوا).. هي الطريقة التي تكسبه عائلة عمه التي كانت
تواليه، ولكن موالة مغضوب لغاصب، ولم تنج من القلب أبداً. فقط
هناك نقطة يجب أيضاًها.. الشرط الذي لا بد منه حتى ينكسر (الرأس)
انكسارا تاما، ولا يرتفع إلا بأمره..

لا بأس يا كرا.. فليعد، ولكن بشرط..

وما هو يا مولاي؟

أن يعلن التوبة أمام الملأ في ساحة (الكوراك) يوم الجمعة.
كان شرطاً قاسياً وصعباً، ويكاد أن يتوغل في لحم المكيدة يفسد
خلاياه، الصباح بالتوبة لمواطن عادي.. لا تعني الكثير للكثيرين، ولكن
لمتمرد بحجم (الرأس) عرف الأنسابيون كلهم بأمر تمرده فيما مضى،
ولابد أن سيرته انتقلت إلى أجيالهم الجديدة، فهو صعب وصعب
للغاية.. لكن في المقابل كانت هناك السلطنة.. هناك عرشها المذهب..
كرنفالات أعيادها.. مجالس (كوراها) التي تقبض على المصائر..
وهيتها التي لا يستطيع مائة (رأس) ألا يحلم بها. فليأت.. وليصبح
ولينكسر.. ولكن إلى حين. صوت الهرمونات ييزغ:
- بالتأكيد يا مولاي.. سيفعل ما تأمر به.

وصل (الرأس) إلى (جوا جوا) برفقة حراسه الرعاع في يوم شتائي
بارد هبطت فيه الحرارة في الأجساد والقلوب، وبدت البلاد فراغاً
عريضاً تشتت في عرضه الأجساد المرتعشة والأخشاب التي تشتعل

بنيران الدفء. وأسرع الأب الشيخ ووالده أحمد برم وبعض أقاربه إلى استقباله في الضواحي وقبل بلوغه (جوا جوا) بساعات. حملوا إليه ثياب أمير محتشم وغداء أمير جائع، وانفراجات وجوه لا تتوفر إلا عند استقبال سلطان حقيقي. وجاءوا به مباشرة إلى الرشيد ليركع أمامه، ويقبل الأرض.. كان الرشيد متكئاً فجلس، وبيني الفطنة القديمتين بدأ يتفحص التائب الذي لم يد له أبلهاً تاماً ولكن بعض أبله.. كان جديداً ومختلفاً ولدرجة أن الرشيد استغرب كيف استطاع أن يقود الحملات ضد سلطته في تلك الأيام البعيدة؟

مرحباً يا صرحي.

خادمك يا مولاي.

- سمعنا أنك الآن تناصرنا.. وتود لو عفونا عنك عفواً تاماً.

هي الحقيقة يا مولاي.

إذن دعني اسمع تلك المناصرة في مجلسي يوم الجمعة وأمام كل الناس.

- تسمعها يا مولاي.

وبتلك الإشارة التي كانت تؤجج الغل في صدر (يوسف كرا)، كنس الرشيد ضيفه التائب والتفت إلى دمدوم راسماً على شفثيه ابتسامة. خرج الرأس ومرافقوه، متوجهين إلى مقر إقامته الذي كان بيتاً متواضعاً في أحد أحياء (جوا جوا) البعيدة.. دبره الأب الشيخ حتى يكون ملاذاً آمناً، وفي نفس الوقت جهة للتشاور الخفي لا تسقط عليها عين ولا تلتقط همسها أذن. كان الرأس موافقاً على الصباح يوم الجمعة، ومتعجلاً في نفس الوقت.. فقد بهرته حضارة (جوا جوا) التي تركها مراعي رعاة ووجدوها مدينة.. بهرته البيوت والقصور العالية الأبراج، وألبسة الحرير، ونكهة التجارة التي كان يتحسسها في كل بوصة في الطريق ومن ظهر الناقة الذي كان مرتفعاً فوقه كان يشم العطور، ويرد الابتسامات، ويحيي

بعض معارفه الذين لم ينسوه برغم غيابه الطويل، ويود لو رفع صوته وهتف.. أنا سلطان (أنسابة) القادم.

لم تكن هي الجمعة الظليلة في حساب المنجمين، وقراء الفلك، وأنوف الشم الأنسابية التي ما كانت تخطئ في ذلك الأمر إلا نادراً، لكن الرشيد أراد أن يجعلها كذلك. ليس من ترفع ولا رغبة في إذلال جديد لابن عمه الذي أذلت سنوات الجبال والحميض المر بما يكفي، ولكن تتبعاً لإحساس غامض لم يستطع تفسيره. انتشر الرعاع في كل أرجاء السلطنة، كانوا يلتقون الناس بوجوه هاشة، يحثونهم على الإسراع إلى (جوا جوا).. كأننا سمعنا أنها الجمعة الظليلة.. في العاصمة مؤشرات كثيرة تدل على ذلك.. وكان (حلحلوك) المجنون الذي فر في تلك الجمعة البعيدة التي أعقبت أربعين الإفاقة بعد مقتل رجل المهام الجلييلة، مختبئاً في دغل كثيف بالقرب من العاصمة، يتغذى من النبق والدخن النبيء، وطيور (القيلدون) التي تتساقط بفعل سهامه أو بفعل ضعفها.. عثر عليه الرعاع في غربة كثيفة للأماكن التي من الممكن أن تأوي خوف مجنون، حثوه بشدة.. لا صقور (جرناس) ولا نسور، ولا رخم ولا أي شيء آخر، فقط عد إلى الجمعة.. ولن تخرج صفر اليدين. كان المجنون مذعوراً ما يزال، وقد مضى أكثر من عامين والناس يتلفتون بشدة في ظل ((الهجليج)) والشوارع المحيطة بساحة (الكوراك) بحثاً عنه، الحاجب يناديه بانتظام كأنه يقف أمامه، وذيل السلسلة يود لو سمع نداءاته تعربد ليمتصها ويلقي بها بعد ذلك عند قدميه. الطوبة المدهشة في مجالس (الكوراك).. الصوت الذي لا تكتمل الجمعة إلا بوجوده. أمسك بثياب الرعاع الذين عثروا عليه..

أستحلفكم بالله.. ألا يوجد صقران من صقور (جرناس) متبلان بالسم؟

- نقسم بالله.. لا يوجد ذلك.

خرج من مكنه متبعاً للطريق، وذاهباً إلى حياته التي هي جمعة (الكوراك).

هي الظليلة.. هي الظليلة.. جمعة القدر..

يتهاشم الناس وقد فاضت ظلال (الهجليج) بالمستظلين، تكدست الدواب والسحبات، ومشاق السفر، وانتفخت الحلوq بصياحات من كل شكل ولون.

هي الظليلة..

الباحثون عن وجاهة، الباحثون عن لقمة خبز، الباحثون عن سروال أو عمامة، الباحثون عن قصة حب أو احتكاك لذة، والمتفرجون الذين لن يصيحوا ولكن يستمتعون بالصياحات.

وكان ما ساهم في تفرد تلك الجمعة، أن قافلة قادمة من (تمبكتو) ومحملة بالسحرة الأفارقة قد هبطت في (جوا جوا) في ذلك اليوم بالذات، وفوجئ الناس بالعشرات من أولئك السحرة في سواد سحناتهم، وأزيائهم الملونة، وقبعات اللامعقول التي يرتدونها، وهي مشتعلة بالنيران. أيضاً كان الكثير من الشاماسة المتجولين حاضرين، وبعض رسامي الذكريات الذين جاءوا بتوصية من السلطان ليرسموا (الرأس) وتشنجات رقبته، عندما يصبح طالبا العفو.

كان (دمدوم) ظهوري السلطان، ورفيقه مانح الكتف النكرة في ساعة البؤس، يحس بغليان غريب يعذب هرموناته، ولا يعرف سببا لذلك إلا أن يكون مريضاً أو مُرهقاً أو به وساوس نفس. كان يحس بالظهور الفجائي (لصرحي الرأس) في مناخات (جوا جوا)، وبتلك الطريقة المبذرة، ظهوراً يدعو للعجب. غزته عشرات الأفكار التي كانت تصب كلها في بوتقة أمر ما.. إنه (الأمر الما) الذي يحاول معرفته بجنون ولا يستطيع.

التم المجلس السلطاني في داخل قصر (المسك) كما يلتم دائماً،

كان الأب الشيخ لامعاً كعادته، العم أحمد برم متجهماً لكن في تجهمه رضى، لم يكن يريد لابنه صياح توبة تعرفه البلاد كلها، ولم يكن يريد سجنأً أبدأ يموت فيه (الرأس) بعيداً وتافهاً، وواحداً من الجيف وكانت العودة التي لن يعرف تفاصيلها أبدأ بمثابة الرضى الذي أكل شيئاً من تجهمه. كان السلطان متدفقاً حياة، تلك الحياة التي أغاظت الأمير مساعد فيما مضى، وتغيظ الآن أباً هرموتياً يفكر ويفكر بعمق لإطفائها. وكان اللصيق الذي بات العدو الحقيقي لزملائه الجمهوريين باستيلائه على مجالس الترفيه، واقفاً وقريباً جداً، وله خنجران ينطان من تحت الجراب.

صرخ حلحلوكم المذعور ومائة شعيرة دموية في داخله تنتفض، كان عجوزاً ومتهدلاً، وكان عاما العزلة في ذلك الدغل قد هدا حيله: أريد كفنأً أبيض ليس من دمور، ولا بوبلين، ولا تيل ولا ساكوبيس، أريد قبرأً واسعاً ليس في الأرض، وجنازة يخرج في مقدمتها مولاي الرشيد.. أرروك.. أرروك.

كان نداءً جديداً، وفيه بعض النقاط الموضوعية كما قدر ذيل السلسلة، نقله كأى نداء عاقل إلى سلسلته، وجاء الرد يحمل موافقة السلطان بقماش الكفن، وتقدم الجنازة، وإصدار الأوامر إلى الرعاع لحفر القبر في أعماق أئمة ترعة أو بئر.

صاح واحد من عرب (المجانين) أولئك الذين حملوا رأس السلطان (هاشم درب) مخنوقاً بالخرق في ذلك اليوم البعيد، وطاردتهم (لا حول ولا قوة) التي زمجر بها السلطان، واضطرتهم للتخلص من الرأس بدفنه:

- مولاي السلطان رأس (درب) يطاردني.. عيناه تتعقباني.. ولسانه يمتد في وجهي.. أريد أن أتوب.. أن أدخل الرعاع.. أن أموت.. أرروك.. أرروك.

سرت نداءاته في السلسلة وعادت ممتلئة. لقد استجاب السلطان،
وستصدر الأوامر للرعاع بأخذه..

وكان أغرب نداء ذلك الذي أطلقه أحد السحرة الأفارقة ممن
جاءوا بقافلة (تمبكتو)، كان صراخاً وعراكاً وتنطيطاً للعيون، لم تفهمه
السلسلة، ولم يفهمه السلطان، وعادت السلسلة فارغة.

تتوالى الصياحات، وتنفر العروق من تحت جلد الرقاب،
وابتسامات انتصار أو تقطيات هزيمة، والجمعة تأخذ مسارها كجمعة
ظليلة لم تشمها الأنوف ولكن حشرت في الأنوف حشراً. ولم ينجمها
المنجمون ولكن أربكت حساباتهم بشدة.

خرج (الرأس) من بين الجموع المحتشدة يرتدي جزءاً كبيراً من
البله الذي فصله له الأب الشيخ، كانت جبته من قطن عادي قصير
التيلة، عمامته من (كرب) مهروس، وحذاؤه من جلد أرنب بري.. أفقر
الأحذية التي تمشي على الأرض قاطبة. مشى ملتوياً إلى ذيل السلسلة،
واستطاعت الأعين الغزيرة أن تلتقطه كله..

الرأس.. صرحي الرأس.. يتذكر الكبار.

مشعل الفتنة.. المنفي.. تتذكر النساء.

العبيط.. العبيط.. يهتف الأطفال.

مولاي أريد أن أعلن توبتي.. أن أقبل أرض (أنسابة).. أن أكفر عن
ذنوبي وأخدم مولاي السلطان إلى الأبد.. أروك.. أروك.

وأعقب ذلك الهتاف بحركة سريعة انحنى فيها حتى لامس فمه
الأرض، وقبل التراب أسفل قدميه. لم تكن تلك الحركة من رسم الأب
الشيخ، لكنها أعجبت حين وصفت له بعد ذلك، واستنطال ليقبل الرأس
الفارع في قمته.

خرج (الرأس) متابعاً بالهمس، وخرج (يوسف كرا) لامعاً،
وانفضت الجمعة الظليلة بمخلفات الأحلام والسفر والمشاق، ليعود

نبض العاصمة إلى سريانه الطبيعي..

قراءة المكيدة الآن مشتعلة والأب الشيخ ينحت عقله الهرموني،
والرأس في ذلك الحي البعيد جالس.. ينتظر.. وعلى أحر من الجمر
أبله.. وصرنا.. مسكين.. وصرنا.. الصباح صحناه.. وأرض (أنسابة)
الزبالة قبلناها وأصابنا المصارين باللوعان:

مدخل (مسك النساء) مسدودٌ تماماً.. فحتى لو وعدناها بلقب
(الأيكيري) الذي تتمناه، فلا الرأس ولا أي واحد آخر يقدر على
قيادة مهرة جامحة كتلك.

باب الخصي النكرة، حامل الخناجر اللصيقة بظهر السلطان مسدودٌ
أيضاً.. فلو لم يقبل بالمهمة.. سيفشي السر ولو قبل بها، سيفشيه
أيضاً.

إرسال حلوى مسممة، أو وجبة من تلك التي يحبها رعد.. لن يجدي
لأن هناك عبداً مكلفاً بتذوق الوجبات التي لا تصنع في القصر كنوع
من الاحتراز الأمني.

- باب القنص والصيد في رحلة إلى أحراش (جوا جوا)، وحرية قد
تطيش إلى صدر السلطان.. ممكن.. لكن الظهوريين بلا عدد، والرعاع
بلا عدد، وقد تطيش الحرية ولكن إلى صدر ظهوري أو قلب واحد
من الرعاع..

التمرد العلني وإعلان الحرب لن يجدي نفعاً، لأن الحرب في صالح
الذي يملك العتاد وليس المشرود والهارب.

باب الجواري الغادرات اللائي يمنحن السم في الدسم وارد في
السابق حين كان رعد فتياً، وليس متكاسلاً كما هو حاله الآن.. لكن
يمكن.. يمكن..

كان عقل الهرمونات يعمل، وصبر السلطان المستقبلي ينفذ، وبدا
منظر الغليان واضحاً لدرجة أن (الرأس) لم يستطع أن يتناول غدائه ولا

عشاءه، ولا جاءتة نفس للنظر حتى إلى تلك الجارية المليحة التي جاء بها الوزير الكبير لتسلية في ساعات التفكير المضية. وأخيراً نطق الأب الشيخ:

هل سمعت بريانة الفارهة يا مولاي؟

ريانة الفارهة؟

نعم.. واحدة من بنات فارس المدلهات واللائي يستطعن القضاء على إمبراطوريات أرفع شأنًا من سلطنة أنسابة.

وما علاقتها بالأمر؟

هي الأمر نفسه.. لقد شاهد الرشيد رسمها يحمله بعض العشاق ممن مروا بالسلطنة منذ عامين، وذلك اليوم لم يستطع أن يتمالك نفسه وشهق.. قال أريدها.. أريدها.. ولكن ما كان في اليد حيلة.

- والآن؟

في اليد ألف حيلة.. وستأتي الفارهة لتنصيبك سلطاناً.. أبشر أبشر. يريد أن يبشر بالفعل.. أن يجلس اليوم قبل غد.. وتلك (الريانة) الفارسية التي يتحدث عنها تبدو بعيدة ومستحيلة ما دام العشاق يحملون رسومها في السفر ويكون.. لا يدري كيف يدبر كبير الخصيان مكيدته.. لكنه سيتنظر سيبحث عن أكاسير لقتل الملل، وتجميد الشوق وزيادة البله مؤقتاً حتى تتم المهمة.. الخصيان ملاعين حتى وهم كبار الدولة، وتلك الهرمونات في أجسادهم لها أفعال الجن. اتكأ الرأس على كرسية وغفا.. والجارية تمرر يديها على رأسه الأصلع.. كان حلماً فخماً ذلك الذي أمسك بغفوته.. حلم الكبار جداً.. حين يحلمون.

-25-

أشهر طويلة مرت، تشعبت فيها الطرق، والتوت الأعناق تلفتا لاقتناص المخرج الذي لم يعد من اقتناصه مفر، واكتشف الأب الشيخ بعد مراسلات ومناورات وتقصيات عنيفة شارك فيها الكثير من أعراب البادية، وتجار القوافل، وأصدقاء يعرفهم ويودهم في البلاد الأعجمية، أن (ريانة) الفاراهة التي كانت هي الباب الذي أراد أن يطرق عليه، والمخرج الذي لم يجد مخرج أخرى غيره، ليشد (الرأس) من شهوته إلى كرسي السلطنة، ويتقم لهموناته من جلالة الرشيد، لم تكن حقيقة أبداً. كانت أسطورة.. وهما اخترعه العشاق ورسموه وطافوا ليكون على حبه في الطرق والحواري، وعذابات السفر البعيد. ريانة التي شهق الرشيد عند رؤية رسمها وهتف.. أريدها.. أريدها.. لن تكون الأداة ولا غير الأداة، ولا أي شيء سوى رسم خيالي ومن اختراع عشاق مجانيين.

كان (الرأس) ممغوصا وهو يستمع، وهو يمشي وهو يجلس، وهو يطيل التحديق في قصر (المسك) الذي أسماه قصر (الياقوت)، وخطط لاستضافة ياقوتة من جميلات أنسابة داخله، وتزيين غرفه وممراته، وجدرانه، وصلات لكز النظير المريعة فيه كلها، بالياقوت.. الياقوت.. الياقوت.. كان يرتدي المسكنة كثيراً، والبله كثيراً، يلتقي بالسلطان في مناسبات جليلة وغير جليلة، يقدم المسكنة والبله، ونظرات الخضوع ويتلقى الجلافة.. لا بأس يا رغد.. أيام لك وأيام عليك.. لا بأس.. عطر تعطره اليوم، أنعطره أنا في الغد.. تستهويه العلامات الكبيرة، روح المسك حين يشمه، حماية الظهوريين حين يتخليها حمايته، وحتى رحلات القنص التي طالما قرأها في الخيال رحلات قنص للسلطان (صرحي الرأس).. وفي ساعات الخلوة التي لا يبد أن يخلوها في بيت

العوام ذلك.. كان يرتدي الجبة الخضراء المطعمة بالعقيق، عمامة الضباب الفخمة، وحذاء جلد النمر المرقط الذي أحضره الأب الشيخ لتكملة تخيله المريع.

ماذا ننتظر أبي الشيخ؟

اللحظة المناسبة.

ومتى تأتي تلك اللحظة؟

حين يحين وقتها.

يعود بذاكرته إلى أيام التمرد البعيدة، كان صغيراً والأب الشيخ أيضاً، وكان الرشيد سلطاناً غضا لم تجئه الفطنة كلها ولا صلاة السلاطين كلها.. يعود إلى أيام نفيه في جبل (برتي) البعيد، الجير والحصى والبرد، وحميض الجبال المر، وركاكة الحراس الذين كان يعاقر أعينهم وألستهم. ولا لحظة متاحة للتفكير في عز.. يأتيه الكبير فجأة.. يأتيه ليوظ كل شيء ويعجز عن فعل شيء.

- ما رأيك أن أتمرد من جديد أبي الشيخ؟

لن يجديك التمرد شيئاً يا مولاي.. وما هي إلا أيام قليلة ويقتنصك الرعاع من حيث لا تدري.. وهذه المرة لا يوجد نفي.. لا يوجد سجن.

ما هو الحل إذن؟

نصبر.. ننتظر.

تلفه الهرمونات بالنظر، بالسرحان، بالمغص أكثر، وفي مجالس السلطان التي لا بد من الجلوس فيها، ولا بد من الخوض في شؤون السلطنة، كان السلطان يقترب ويبتعد، جلفاً حيناً، وناعماً حيناً، لكن القلب الهرموني الآن يمقته، يريد إزاحته بأية صورة وهرمونات المكيدة قد تلاقحت، وتلاقحت وبدأت ثمار تلاقحها تخرج حتى في اللفظ والمناقشة:

لا أعرف. لا أستطيع.. هكذا.. جافة دون زركشتها السابقة.
في أحد الأيام جاء الأب الشيخ لزيارة (الرأس) في ذلك البيت
البعيد.. كان يحمل إليه جديداً خطيراً وفارهاً، ومخرجاً انفتح هكذا
فجأة دون أن تكون لهرمونات التلاقيح يد في فتحه. فقد أصيب حراس
السلطان كلهم وبما فيهم خصيَّة النكرة (دمنوم) بمرض مفاجئ أقعدهم
عن الحماية.. تسمم.. هبوب.. غيرة في البطن، لا أحد يدري، هم
الآن يستفرغون بغزارة، يسهلون بغزارة، يضعون أيديهم على بطونهم،
والسلطان في مجلسه وحيد وأعزل وبلا ظهر كان وجه الشيخ لامعاً
بشدة، أعضاؤه تنبض بجنون، وتحت الجبة الخضراء الفخمة، يرقد
خنجر المكيدة المسنون مستعداً للاستيقاظ، وغرس (الرأس) في كرسي
السلطنة.. أسرع يا مولاي.. أسرع..

كانت مفاجأة كبيرة تلك التي واجهته.. كان الرأس أنيقاً بشكل
لا يتخيله أحد، لم ينس حتى أن يرطب وجهه، ويدلي اللثام المذهب
إلى عنقه.. لم ينس الحذاء المرقط، وجراب الجلد حول الوسط، ولم
ينس أن يتسم ابتسامة مشعة وهو يعلق رأسه بحبل في سقف حجراته
المتواضعة في ذلك البيت الذي لم يكن أبداً باتساع أحلام سلطان
يستعد للجلوس على عرش (أنسابة).. فوجئ الأب الشيخ بذلك المشهد
ودعك عيون النظر مراراً حتى يستطيع أن يستوعب.. هرمونات الجسد
كلها حتى يستطيع أن يتذوق.. ارتبك.. تبعثر.. جن.. انطلق في الطرق،
في الأحياء، في الأحرار كلها، في الحياة المرة التي لم يكن يعرف إلا
قشورها من قبل..

أليس هذا يوسف كرا؟.. مستحيل.. مستحيل..

أليس الأب الشيخ.. مستحيل.. مستحيل..

لقمة من هنا.. نظرة من هناك.. تسامح.. عطف.. حجر في الظهر..

مستحيل.. مستحيل..

-26-

جمعة (الكوراك) عادية جداً.. الناس.. (الهجليج).. أزيار السقاية، وانتظام الحاجب والسلسلة السباعية. وهبط الجليل المهاب عن فرسه الرمادي المخطط، وعلى أيدي العبيد الخارقين وخطا بحذاء جلد النمر المغاربي إلى داخل القصر.. كان يرتدي عمامة الضباب الفخمة، والجبّة الحمراء المزركشة، ورائحة مسك نفاذة تغلغلت في أحشاء المتجمعين في لحظة مروره.. زغردت المزغردات، وهتف الهاتفون.. وصرخ الحاجب الذي عند الباب:

- الأب الشيخ (آدم نظر).

2003/3/13

آفاق سلسلة عربية

هذا النص مستوحى من التاريخ القديم لسلطات
كانت سائدة في السودان ردياً من الزمان، وقد
استوحى الكاتب أحداث هذه الرواية من كتاب ألفه
رحالة عربي قام برحلة إلى بلاد السودان في
القرن السابع عشر.

وزارة الثقافة



السعر: ثلاثة جنيهات